

اعترافات

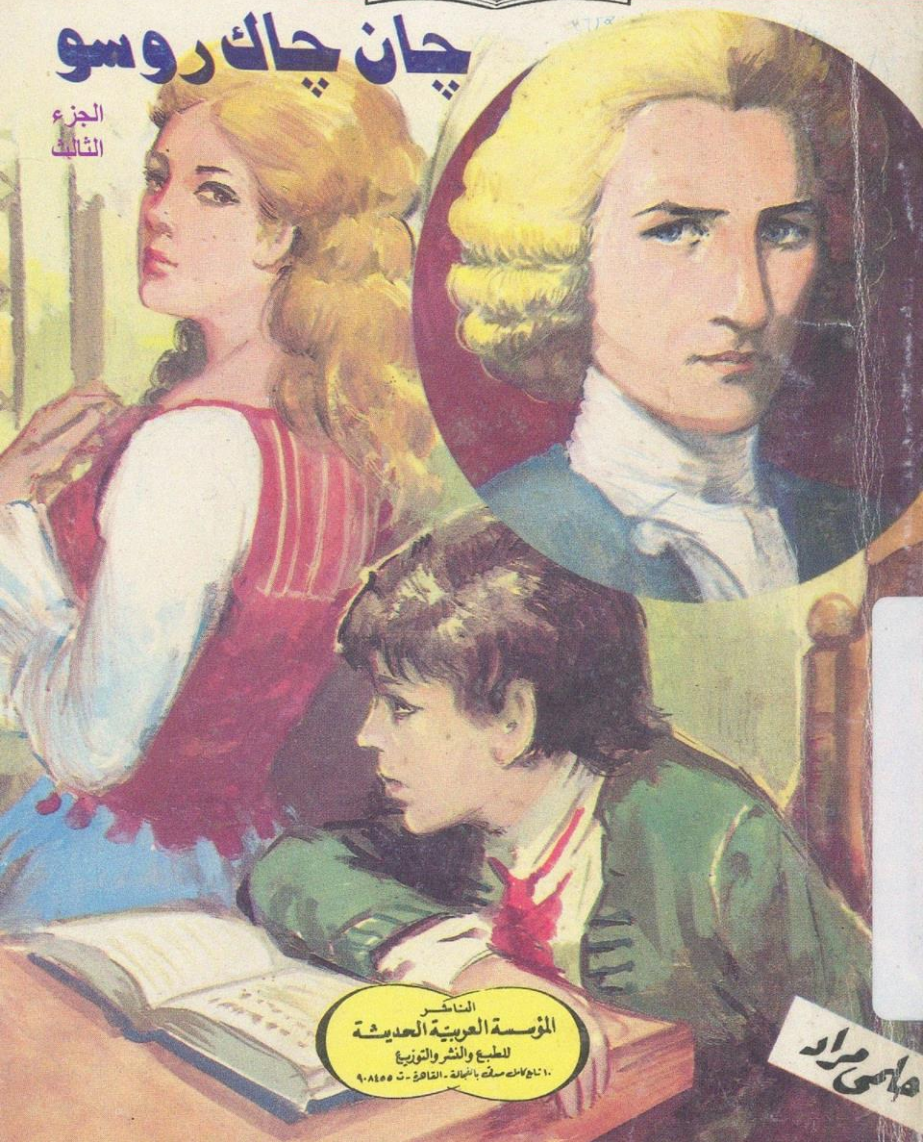
٣٩

كتابي



جان چاك روسو

الجزء
الثالث



الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع

١٠ شارع طلعت سقاية بالهناقة - القاهرة - ت ٩٠٨٥٥٥

مكتبة

٤١

كتابی

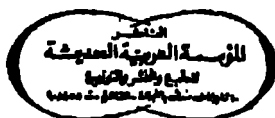


یصدره : حامی مراد

مطبوعات کتافی

اعترافات جان چاک روسو

الجزء الثالث



إصدار جديد

كتابي

بمسيرة حلمي مراد

●●●

كتب متنوعة للقصة والخطابة والريشة ..

● مختارات كتابي : باللغة مطبوعة

مجموعة لأروع الكتب العلمية .

● مطبوعات كتابي : الترجمة

التيمة الكاملة لسراج الكتب العلمية.

● روايات كتابي : ترجمة

أحدث الروايات العلمية المعاصرة

●●●

فصل كتابي



مصباح الذكر عند الإغريق

●●●

نبذة

الأستاذ / إسماعيل ديب

●●●

إشراف

الأستاذ / حمدي مصطفى

●●●

المكتبات

هيئة التحرير : حلمي مراد : ١٨ شارع العباسين - مصر الجديدة ١٢٧٥١٢٦ - ٢٩١٤٤٤٩

الناشر : المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة : ٨٢٦٢٨٠ - ٨٢٦٧٤٧

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ١٦٠١٠ شارع كامل صدى الدجاجة -

٤ شارع الإسماعيل بمدينة الكبرى بروكسي مصر الجديدة - القاهرة ٨٢٦٢٨٠ -

٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ ج.٢٠٠٤



اعترافات
جان جاك روسو
الجزء الثالث

موجز ما جاء في الجزئين الاول والثاني

ولدت في (جنيف) ، في سنة ١٧١٢ ، لأب كان يعمل في صناعة الساعات ، ولأم توفيت عند مولدى . وبدلاً من أن يكرهنى أبى لذلك ، فإنه أسرف فى حبه لى ، لآئنى كنت شديد الشبه بأبى .

تنبه إحساسى قبل أن يتنبه لكرى . ثم عهد أبى إلى أسلوب خطر ، إذ اشركنى فى قراءة الروايات والكتب الدسمة .

اضطر أبى إلى أن يهجر (جنيف) عقب مشاجرة بينه وبين عسكري فرنسى ، كادت تلقى به إلى السجن دون مبرر قانونى . فبقيت فى كنف خالى « برنار » ، الذى كان متزوجاً من ممتى ، والذى أرسلنى مع ابنه إلى (بوسى) لنقيم فى رعاية القس البروتستانتى « لامبرسييه » ، ولنطلقى العلم على يديه ويدي أخته . وكانت الأنسة « لامبرسييه » تولينى حنان الأم ، ولكن عقابها إياى نبه المشاعر الحسية والشهوانية فى كيانى !

على اثر عقاب ظالم ، لذنبت لم ارتكبه ، كرهت الظلم ، وولت طمأنينة طفولتى . . والحقتى خالى بمكتب موثق للعقود ، على أمل أن أشتق طريقى فى المحاماة — فيما بعد — ولكنى لم استسغ هذا العمل .

قرر خالى أن من مصلحتى أن أتعلم حرمة ، فالحقتى كصبى — أو تلميذ صانع — لدى حبار كان ينقش على المعادن . وهناك اخططت بالعمال الذين كانوا يكبروننى سناً ، فتعلمت

السرقه، لا سيما وأن معلمى كان يقسو على بالعقاب والحرمان . ومع ذلك فأننى لم أكن أسرق حبا فى المال أو الحيازة . . وإلى جانب هذا ، اشتد شغفى بالقراءة حتى أصبح تهوسا .

واضطرتنى قسوة معلمى ، ونفورى من خيائى هذه ، إلى الهرب من (جنيف) . . وانتهى بى المطاف إلى سيده محسنة فى (انيسى) ، كان ملك سردينيا قد خصها بمعاش ، لأنها اعتنقت الكاثوليكية . . تلك هى « مدام دى فاران » التى اشفقت على ، وأرسلتنى إلى دير نبذت فيه عقيدتى البروتستانتية ، وأصبحت كاثوليكية .

واستطبت بعد ذلك حياة الترحال ، وعانيت الفاقة والمتاعب . ثم انتهيت إلى العودة إلى السيدة دى فاران ، التى رحبت بى ، وأنزلتنى من نفسها منزلة الابن ، وأفردت لى غرفة فى دارها ، وراحت تنفق على تعليمى الموسيقى ، رغم تضاول مواردها . . وتعلقت بهذه السيدة تعلقا ملك على كل حواسى وعطلى . . ويمرور الأيام صرت أدموها « ملما » !

وكانت هذه الحياة أبهج من أن تدوم . فقد أولممتنى « ملما » مرة لأعاون السيد « لوميتز » ، الذى كان رئيسا لفرقة الموسيقى بكنيسة (انيسى) ، والذى اختلف مع بعض رهبان الكنيسة فشاء أن يفر من وجوههم . . وقد رافقته إلى (ليون) ، حيث أخذت تعالوده نوبات الصرع ، لفرط إسراره فى الشراب ، ففررت منه فى إحدى هذه النوبات ، وعادت إلى (انيسى) . . وإذا بى أملاجا بأن « ملما » قد رحلت فى بعض شئونها ، ولم أدر لها مقصدا أو مقرا !

واقمت لفترة مع « فينتور » ، وهو شلب كنت أعرفه من قبل، وكان يزعم أنه موسيقى موهوب. وكان لبقاً ، أنيقاً ، مرحاً ، يستهوى النساء . وفي تلك الاثناء ، كان أبى قد تزوج من امرأة على شيء من الدهاء والقول المعسول ، وشغل عنى بأولاده منها .

وانتهى بى المطاف إلى (لوزان) ، حيث رحت أتكسب عيشى بتدريس الموسيقى ، باذلاً جهدى — فى الوقت ذاته — إلى تنمية معرفتى بها . وحاولت إذ ذاك أن أكون ملحناً ، دون ما إلمام كاف بأصول التلحين ، فمضى لحنى الأول بفشل ذريع ، جعلنى أعيش فى حزن وهوان لفترة من الوقت .

ولم اكف طيلة هذه الأحداث عن الحنين إلى « مايا » ، لا لحاجتى المادية لمصعب ، وإنما لحاجتى القلبية قبل كل شيء . ومع ذلك ، فإن تعلقى بها — رغم ما كان عليه من تاجع وقوة — لم يكن ليحول بينى وبين أن أحب غيرها . ولكن ، على غير شاكلة حبى لها !

وقدر لى أن أذهب إلى باريس ، ولكننى لم ألق فيها الحظ الذى كانت تصوره لى أحلامى . على أننى ظفرت هناك بنفا جعلنى أنطلق من جديد بحثاً عن السيدة دى « غاران » . وهكذا أخذت أجوب الأقاليم على غير هدى ، متعرضاً للتشرد ، والتضور جوعاً ، والنوم فى الطرقات .. حتى عرفت أخيراً أن « مايا » الحبيبة قد استقرت فى (شامبيرى) ، فخلفت إليها .. وما كن أحلاه من لقاء !

واستطاعت « مايا » أن تحصل لى على منصب فى

« المساحة » ، فبدأت أكسب عيشي بعمل مشرف ! .. وكانت هذه خير خاتمة لبأكورة صباي !

واقمت في دار « ماما » ، ولكنها لم تكن في بهاء دارها الأخرى في (أنيسى) ، إذ كانت موارد « ماما » في تضائل ، وكانت أمورها مضطربة . وفي هذه الحياة الجديدة ، اكتشفت أن « ماما » كانت على علاقة بخادمها الوفي « كلود لآنيه » . وكان شابا لا يكبرني بكثير ، ولكنه كلن رزينا وقورا ، غدا منى بمثابة المربى . ومع أنني لم أنتج من الألم ، إذ أدركت أن ثمة من استطاع أن يعيش مع « ماما » في مودة تفوق موثى كثيرا ، إلا أن وهائى للسيدة امتد إلى الشاب ، فقد كنت رافيا في سعادتها هي قبل شئ .

وانصرفت إلى الموسيقى — في تلك الاثناء — في استغراق ملك على حواسي ، وحملنى على أن استقيل من عملى في « المساحة » ، وأن استعين على الحياة بتدريس هذا الفن . وقللنى هذا إلى المجتمع الراقى ، وإلى دور نوى الجاه والثراء . ويقدر ما تعرضت للمغازلات من فتيات ونساء هذا الوسط ، فلن سذاجتى — التى ذهبت إلى درجة الغباء — كانت تفوت على الفرص . إلى أن أحسست « ماما » بأن إحدى السيدات كانت توشك أن توقعنى في أحبالها ، فائسفت على من مخاطر شبابى ، ورات أن تنقضى منها بأقرب طريقة خطرت لامرأة في مثل ظروفها .. بأن تمنحنى نفسها !

واخفت « ماما » تروى عطشى إلى النساء من معينها .. على أن العلاقة البدنية لم تفسد شيئا من براءة علاقتنا العاطفية والروحية والفكرية ، كما أنها لم تؤثر على علاقة كل منا

بخادمها وعشيقتها « كلود آنيه » ، بل قامت بين « ثلاثتنا » زمالة قد لا يكون لها مثيل على الأرض ! .. وما لبثت « آنيه » أن ملت — وهو في ريعان شبابه — فحطت محله في تدبير شئون « ماما » وماليتها . ولاحظت أن مواردها كانت في نضوب ، فأخذت أعمل جاهدا على أن أجنبها هالوية الاملاس .

وانتهى بى التفكير إلى وجوب الحصول على عمل ، كى أعول من دخله « ماما » إذا المت بها الفاقة . وفى سبيل ذلك رايت أن اتعلم التلحين ، فكان هذا الاتجاه عاملا جديدا على تبييد مواردها المتضائلة ! .. وكذلك شرعت فى تأليف الأغاني .

وقضيت عامين أو ثلاثة بين الموسيقى ، ومجالسة الحكام وذوى الجاه ، والرحلات .. وما لبثت صحتى أن أخذت تتداعى ، وغلبنى الاكتئاب والأسى والتشاؤم ، فنصح لى الطبيب بأن أقيم فى الريف . وسرعان ما استأجرت « ماما » منزلا ذا حديقة ويستان ، فى ضيعة (شارميت) . وهناك ، نعمت بأهنا فترة فى حياتى .. مع « ماما » !

ولكنه كان هناء قصير الأجل .. ففى تلك الأثناء ، شعرت بضعف فى القلب ، وضيق فى التنفس ، وطفنين فى الأنفين ، وتراخ فى حيويتى ، مما أوحى إلى بأن همى لن يطول ، فرايت أن استمتع بما تبقى منه أعظم استمتاع . وأقبلت على دراسة العلوم والآداب ، كما أكثرت من الأسفار ، أنشد علاجا لعلى .

وفى إحدى هذه الأسفار ، التقيت بالسيدة دى « لارناج » وكانت تكبرنى فى السن كثيرا ، ولكنها راحت تعمل على إغوائى ،

حتى إذا رأت ما كان الخجل والتردد يخلقانه من قيود تشل إقبالي عليها ، لم تتورع عن أن تكون هي البائدة بالعناق والتقبيل . وأصبحت عشيقتي خلال الرحلة . ولو أنني عشت مئة عام ، لما استطعت أن أفكر قط في هذه المرأة الفاتنة . دون أن يطنى السرور على ! .. كنت متعنى مع « ماما » مشوية بالأسى والضيق . أما مع السيدة دي لارناج ، فقد كنت مخورا برجولتي ، مزهوا بسعادتي .

وكانت صدمة لى أن عدت إلى « ماما » ، فوجدت أن شابا قد حل محلى أثناء غيابى . . وكان شابا جاهلا ، مغرورا ، استطاع أن يفرض على « ماما » سلطانه ، فلم أستطع أن أطبق بقاء إلى جوارها ، وقررت أن أهجر الدار ، وأن أرحل إلى باريس ، لأمراض على « الأكاديمية » طريقة ابتكرتها للتسجيل « النوتة » الموسيقية بالأرقام بدلا من العلامات .

الكتاب الثانى

وصلت إلى باريس فى خريف سنة ١٧٤١ . . واستطاع بعض من حملت إليهم خطابات للتوصية ، أن يمكننى من التقدم إلى « الأكاديمية » برسالتى التى قدر لى أن يناقشنى فيها علماء لم يكن بينهم من له إلمام كاف بالموسيقى ، فانتبهوا إلى الحكم بعدم صلاحية طريقتى . وبدلا من أن أستسلم للقنوط ، أسلمت نفسى للخمول وللقدر ، ورحت أقتر على نفسى لأبىد بها تبقى من موارد المتضلة .

والآن . . تعال نتابع « روسو » وهو يشق طريقه إلى قمة المجد فى المجتمع الباريسى .

١١ اعترافات جان چاڤ روسو - الجزء الثالث

ولقد كانت السكينة ، واللذة ، والثقة التى استسلمت بها لهذه الحياة الخاملة المنعزلة - بالرغم من أننى لم أكن أمتلك موارد تمكننى من أن أستمع فيها ثلاثة أشهر - من الصفات الغدة فى حياتى ، ومن الظواهر العجيبة فى طباعى ! .. كانت الحاجة البالغة إلى أن أجد من يعنى بى ، هى عين الشيء الذى جردنى من الجراة على أن أظهر بين الناس .. كما أن الضرورة التى كانت تدعونى إلى زيارة الناس ، جعلت الزيارات أمرا لا أطيقه ، حتى أننى كففت عن زيارة أعضاء المحفل أنفسهم وغيرهم من رجال الأدب ، الذين قد تعرفت إليهم . وأصبح « ماريغو » والراهب دى « مابلى » و « فونتيل » هم الوحيدون - تقريبا - الذين ظللت أزور دورهم فى بعض الأحيان . كذلك أطلعت أولهم على مسرحيتى الهزلية «نارسيس» فراقت له، وتكرم بأن ادخل عليها بعض التنقيح ! .. وكان « ديدرو » يصفرهم كثيرا فى السن، فقد كان يقارنى عمرا . وكان مولعا بالموسيقى، ملما بنظرياتها ، ومن ثم فأننا كنا نتحدث عنها ، كما أنه كان يحدثنى عن مشروعاته الأدبية ، فخلق هذا بيننا رابطة من الود القوى دامت خمس عشرة سنة ، وكان من المحتمل أن تدوم زمنا أطول ، لو أننى لم أذبح دفعا - لسوء الحظ - إلى مهنته ذاتها .. وكان هو صاحب الخبز فى ذلك !

ولن يمكن تصور الطريقة التى استغللت فيها هذه الفترة القصيرة ، الثمينة ، التى سبقت اضطرابى إلى أن أتسول قوتى ! .. فلقد حفظت عن ظهر قلب أجزاء من الشعر كنت قد درستها قبل ذلك مائة مرة ونسيتها . واعتدت أن أتمشى كل صباح - فى حوالى الساعة العاشرة - فى حدائق

(لوكسمبورج) ، حاملا « فريجيل » أو « روسو » في جيبى (١) ، وأروح أردد في ذهنى — حتى موعد الغداء — أحد الأناشيد القدسية ، أو أحد أناشيد الرعاة ، دون أن يشبث من مزيمتى أننى كنت واثقا من أننى لن البث — إذ أردد الجزء الذى اخترته ليومى — أن أنسى الجزء الذى حفظته بالأمس .. وتذكرت أن الأسرى الاثنيين — بعد هزيمة « نيسيبلس » فى (سيراكيوز) — (٢) كانوا يستمدون قوتهم من ترديد أشعار « هوميروس » . ولقد كان الدرس الذى استخلصته من هذه ، كى أعد نفسى للفاقة ، هو أن أروض ذاكرتى البديعة على حفظ جميع الأشعار من ظهر قلب !



وكانت لدى طريقة مبتكرة مكيئة أخرى فى الشطرنج ، الذى كنت أكرس له بانتظام فترة ما بعد الظهر — من الأيام التى لم أكن أذهب فيها إلى المسرح — فى مقهى « موجى » . وقد تعرفت هناك إلى السيد دى « ليجال » ، وإلى سيد يدعى « هوسون » ، وإلى « فيليدور » ، وإلى جميع لاعبى الشطرنج الكبار فى ذلك العهد ، دون أن أحرز مزيدا من التقدم فى اللعب . على أننى لم أكن أرتاب فى أننى لن البث أن أفقد فى النهاية أقوى منهم جميعا ، وكان هذا — فى رأى — كافيا

(١) يتعد ديوانى الشامرين « فريجيل » و « جان باپتست روسو » .

(٢) كان نيسيبلس من أشهر القادة الإغريق الذين برزوا فى حروب البلوينيز ، وقد هزم وهلك فى حملة سطية فى سنة ٤١٣ قبل الميلاد .

لأن يمدنى بمورد للعيش . وكنت كلما استهوتنى فكرة طائشة جديدة ، رحت اتدبرها بنفس الطريقة دائماً .. كنت اتول لنفسى : « ان الذى يبرز فى شىء ، يطمئن دائماً إلى انه منشود . فليبرز إذن ، فى أى شىء ، وإذ ذاك اغدو مرغوباً .. إن الفرص سائحة ، وعلى كفايتى يتوقف مابقى من الأمر ! » .. ولم يكن هذا التفكير الصبيانى ولید سفسطى ، وإنما كان نتاج كسلى . فقد كنت فى جزعى من الجهود الضخمة السريعة التى كانت خليفة بأن ترهقنى ، أسعى إلى أن أزين كسلى لنفسى ، وإلى أن أدارى خجلى من نفسى بحجج ملائمة !

وهكذا مكثت ساكنة إلى أن انتهت نقودى . واعتقد أننى كنت على استعداد لأن أبيع حتى آخر « سو » لدى ، دون أى قلق ، لو لم يوظفنى الأب « كاستيل » — الذى كنت اذهب لزيارته أحياناً ، وأنا فى طريقى إلى المقهى — من سباتى . ولقد كان الأب « كاستيل » مخبولا ، ولكنه كان — برغم هذا — رجلاً طيباً . وقد غاظه أن رآنى أبعد وقتى وإمكانياتى بهذا الشكل ، دون أن أفعل شيئاً . فقال لى : « ما دام الموسيقيون ، وما د العلماء ، يابون أن يغنوا بطريقتك ، فعدل من أوتارك ، وجر النساء ، ولعلك تكون — فى هذه الناحية — أكثر توفيقاً .. » لقد تحدثت منك إلى السيدة دى « بوزينفال » ، فإذهب لزيارتها ، وانكر أنك قادم من لدنى ! .. إنها امرأة طيبة ، يسرها أن ترى شخصاً من موطن زوجها وابنها (١) ، ولسوف

(١) كانت البارونة دى بوزينفال هولندية متزوجة من فرنسى .

طلعت في دارها بابنتها السيدة دي « بروجلى » ، وهى امرأة زكية .. وهناك السيدة « دويان » ، وهى الأخرى بمن حدثتهن هناك ، فاحمل اليها مؤلفك ، لأنها تتوق إلى رؤيته ، وسوف تحسن استقبالك . . . إن المرء لا يستطيع أن يبرم هملا في (باريس) إلا بوساطة النساء ، فهن كالمُنحنيات ، التى يكون الحكماء بمثابة الخطوط التقريبية (١) لها . . فالدريقان يتقاربان باستمرار ، ولكنهما لا يتماسان أبداً . .

وبعد أن أُرجأت هاتين المهمتين المتعبتين من يوم إلى آخر ، استجمعت أخيراً شجاعتي ، وذهبت لزيارة السيدة « بوزينفال » ، فأكرمت وفادتي ، وإذا دخلت السيدة دي « بروجلى » الغرفة ، بادرتها قائلة : « ها هو ذا ، يا ابنتى ، السيد روسو الذى حدثنا عنه الأب كاستيل . . فاطرت السيدة دي بروجلى مؤلفى ، وقادنتى إلى معزلها ، لترينى أنها كانت معنية به . ووجدت أن الساعة قد شارفت الواحدة ، فاردت الانصراف ، غير أن السيدة دي بوزينفال قالت لى : « انك على مسافة بعيدة من مسكنك ، فامكث ، وتناول غداك هنا . . ولم أكن بحاجة إلى إلحاح . . وبعد ربع ساعة ، أدركت أن المائدة التى دعنتى إليها كانت مائدة الخدم . . فقد كانت السيدة دي بوزينفال طيبة ، ولكنها كانت ضيقة الالمق ، شديدة الاعتداد بعراقه أصلها البولندى ، وليست لديها فكرة تذكر عن الاحترام

(١) الخط التقاربى - أو التقريبى - فى الهندسة ، هو خط مستقيم يطابق المعنى طلباً لا نهائياً . . أى انها يتقاربان دائماً دون أن يتماسا .

الواجب للمواهب . وقد حكمت على — فى هذه المناسبة —
بمسلكى أكثر منها بملبسى الذى كان — برغم بساطته المتناهية
— لاثقا كل اللياقة ، ولا ينم قط عن رجل يؤاكل الخدم ..
لا سيما واننى كنت قد نسيت الطريق إلى مائدة الخدم من
زمن طويل ، ولم أكن راغبا فى أن اتعلمها من جديد (١) ..
وقلت للسيدة دى بوزينفال — دون أن أبدى غضبى — اننى
تذكرت أن لا بد لى من العودة إلى مسكنى لمهمة بسيطة .
فاقتربت مدام دى بروجلى من أمها ، وهبست فى أنفها ببضع
كلمات كان لها تأثير سريع ، إذ نهضت مدام دى بوزينفال
لتسبقتينى قائلة : « اننى أقصد أن يكون تشرىفك إيانا
بالغداء .. معنا ! » . ورأيت أن التثبث بالكرامة محل أخرق ،
فمكثت . وإلى جانب ذلك ، كان لطف السيدة دى بروجلى
قد ملك قلبى ، وجعلنى ارتاح إليها ، فكنت جد مغبط بتناول
الغداء معها . ودأخلنى الأمل فى أنها لن تندم — إذا ما عرفتنى
جيذا — على أنها أولتنى هذا الكرم . ولقد تناول الغداء هناك
أيضا ، السيد رئيس (لاموانيون) ، وهو من أعظم أصدقاء
الأسرة ، وكان — كالسيدة دى بروجلى — يالف اللهجة
الباريسية الموجزة ، التى تتألف من كلمات صغيرة ، كلها كنايةات
بسيطة رفيعة .. ولم يكن لجان جاك البائس مجال للتألق فى
هذا المضمار ! .. وكنت من حسن الإدراك بحيث أننى لم أشأ

(١) يعنى « بوسو » أنه كان قد نسى معاينة الخدم وارتمع بوق مستوأم
ولعلنا للكز — مع جاد فى الجزء الأول — أنه يمل خلعة فترة من الزمن .

أن انظر بالمرغم من « منيرفا » (١) ، فأمسكت لساني ! ..
 ما كان أسعدنى لو أننى كنت دائها بهذه الحكمة ؟ .. لقد كنت
 بهذا جديرا بالا أتردى فى الدرك الذى أجدنى اليوم فيه !

ولقد استأت لما بدوت عليه من ثقل الفهم ، ولعجزى من أن
 أبرر - فى نظر السيدة دى بروجلى - ما فعلته هى من أجلى .
 لذلك لجأت - بعد الغداء - إلى موردى المعهود . فقد كانت
 فى جيبي رسالة شعرية ، كتبها إلى « بريسو » أثناء مقامى
 فى (ليون) ، ولم تكن الحرارة تعوز هذه القصاصة ، فعمدت
 إلى قراءتها ، واستطعت أن أحمل ثلاثتهم على البكاء . ولقد
 خيل إلى - سواء من غرور ، أو من صدق فى تأويلاتى - أننى
 رأيت عيني السيدة دى بروجلى تقولان بنظراتهما لأما :
 « ما رايك يا ماما ؟ .. أمكنت على خطأ إذ قلت لك إن هذا
 الرجل كان أكثر جدارة بأن يتناول غداءه معنا منه مع
 وصيفائك ؟ » .. وكنت حتى تلك اللحظة مثقل القلب ،
 ولكننى شعرت بالرضى بعد أن ثارت لنفسى على هذا النحو .
 ولقد تبادت السيدة دى بروجلى قليلا فى الراى الطيب الذى
 داخلها نحوى ، معتقدة أننى لن ألبث أن أثير ضجة فى (باريس) ،
 وأن أغدو ذا حظوة لدى النساء . ولكى ترشدنى فى هذا المجال
 الذى كنت غير خبير به ، أعطتنى « مذكرات الكونت ... » ،
 قائلة : « أن هذا الكتاب مرشد مستحتاج إليه فى المجتمع ،

(١) منيرفا ربة الذكاء والحرب والفنون لدى الرومان . ويشير « بوسو »

بهذا التعبير إلى أنه لم يشأ أن يدمى ما كان بعيدا من أن يسلمه فيه نكارة

وستحسن صنعا إذا أنت استعنت به بين وقت وآخر ! » .
ولقد احتفظت لأكثر من عشرين عاما ، بهذه النسخة ، معتزفا
بفضل اليد التى جاعتنى عن طريقها ، وإن كنت كثيرا ما أضطك
للراى الذى لاح أن هذه السيدة قد أرثاته عن مؤهلاتى للظرف
والملاطفة . . ومنذ اللحظة التى طالعت فيها هذا الكتاب ، رفبت
فى أن أخطب ود صاحبه . وقد حقت الأحداث هذه الرغبة ،
فإذا هو الصديق الصادق الوحيد لى بين رجال الأدب (١) .

وجرؤت — منذ ذلك الحين — على أن أطمئن إلى أن السيدة
البارونة دى بوزينفال ، والسيدة المركيزة دى بروجلى — وقد
اهتمتا بأمرى — لن تدعائى طويلا بلا مصدر للعيش . ولم
أخطئ الحس . . فلنتكلم الآن عن دخولى دار السيدة
« دويان » ، الذى كانت عواقبه أطول مدى واجلا !



كانت السيدة « دويان » — كما هو معروف — ابنة
صمويل برنار ، والسيدة فونتين . . وكن ثلاث أخوات ، من
الممكن أن يدعين بالحسان الثلاث : السيدة ديلا توش — التى
فرت إلى إنجلترا مع دوق كينجستون — والسيدة دارنى ،
عشيقة السيد الأمير دى كونتى ، بل — بالأحرى — صديقتها ،

(١) عقب « روسو » — فى هامش مذكراته — على هذا بقوله : « هكذا
ظلت أعتقد طويلا » وعن انتفاع راسخ ، حتى التى مهدت اليه — مثلا
مودنى الى باريس باعترافى . إذ أن جان جاك الحلم المستريب « لم
يؤمن قط بوجود الخدعة والخداع ، الا بعد أن وجد نفسه ضحية لها » .

الصديقة الوحيدة المخلصة ، وكانت امرأة جديرة بأن تعبد ، للطف وطيبة شخصيتها الفاتنة ، بقدر ما هو لفكائها المستحب ، والمرح الذى لم يكن يفارق طباعها .. وأخيرا ، السيدة « دويان » ، أجمل الثلاث ، والوحيدة منهن التى لم يكن ثمة هوج يعلب عليها فى مسلكها ! .. وكانت جزاء كرم ضيافة السيد دويان ، إذ أن أمها منحته أياها ، مع منصب « الملتزم العام » (١) وثروة ضخمة ، عرفانا لحسن حفاظه بها فى إقليته !

وكانت — عندما رايتها لأول مرة — لا تزال من أجمل نساء باريس . وقد استقبلتنى فى غرفة زينتها ، وكانت ذراعاها عاريتين ، وشعرها مهوشا ، وثوبها مهدلا .. وكان مثل هذا الاستقبال الأول جديدا على ، فلم يحمله رأسى البائس ، واضطربت ، وارتبكت .. وموجز القول اتنى شفت هوى بدمام دويان !

ولم يلح أن اضطرابى قد أحدث أثرا سيئا ، إذ أنها لم تبد ما ينم عن أنها لاحظته . وفى استقبالها للكتاب ولؤلؤه ، راحت تحدثنى عن مشرومى حديث الملة به .. وغنت ، وصاحبت غنائها بالعزف ، واستبقتنى للغداء ، واجلستنى إلى جانبها حول المائدة . وما كان ثمة ما يدير رأسى أكثر من هذا ، فإذا بى أقدو مجنونا بها ! .. وسمحت لى بأن أتردد عليها ، فاستغللت — بل أسأت استغلال — هذا السماح ، إذ أصبحت

(١) الملتزم العام : هو الموكل بتحصيل الضرائب .

أذهب إلى دارها في كافة الايام تقريبا ، واتناول الغداء هناك مرتين أو ثلاثا في الاسبوع ، وكنت أموت شوقا إلى مصارحتها بحبى ، ولكننى لم أجسر على ذلك ، فقد ضاعفت من خطيئ الطبيعى عدة أسباب . . كان دخول أى بيت من بيوت الاثرياء المرفهين ، بمثابة باب مفتوح للحظ ، فلم اشأ - في موقفى إذ ذاك - أن أتعرض لإغلاق هذا الباب . ثم إن السيدة دوئلن كانت - برغم لطفها - رصينة وباردة ، فلم أجد في مسلكها شيئا مشجعا يثير جرأتى . وكانت دارها متألقة كاية دار اخرى في باريس ، في ذلك الحين ، وملتقى جماعات لم يكن ينقصها سوى أن يقل عددها بعض الشيء لكى تغدو نخبة من كل نوع من علية القوم . فلقد كانت السيدة تحب أن ترى جميع المتألقين : من عظماء ، وأدباء ، ونساء جميلات . . وما كان ليرى عندها سوى الدوقات ، والسفراء ، وخواى الاشرطة الزرقاء (١) . . ومن الممكن اعتبار السيدة الأميرة دى روهان ، والسيدة الكونتة دى فوركالكيه ، والسيدة دى ميربوا ، والسيدة دى برينوليه ، والليدى هيرفى ، بين صديقاتها . . كما أن السيد دى فونتنيل ، والراهب دى سان بيير ، والراهب سالييه ، والسيد دى فورمو ، والسيد دى بيرنى ، والسيد دى بوفون ، والسيد دى فولتير ، كانوا من أفراد ندوتها ومن رواد مائدتها . ولو أن مسلكها المتحفظ لم يجتذب إليها عددا كبيرا من الشباب ، لكانت الجماعة التى اعتادت الاجتماع فى

(١) لقب يطلق على مرسلان الطيعة المقدس . على أن من المحتمل أن يكون

روسو قد استعمله هنا بمعنى : المبرزين من القوم .

دارها ، صفوة مختارة ، وبالتالي أكثر وقارا . . . وما كان لجان
جاك البتس أن يزين لنفسه فكرة أن يتألق كثيرا وسط كل
هؤلاء . . . لذلك لمأتني لم أجسر على أن أغضى للسيدة بعواطفى ،
ولكنى لم أعد أطيق صمتا ، فجزوت على الكتابة . وقد احتفظت
بالخطاب يومين ، دون أن تذكر لى شيئا عنه . وفى اليوم
الثالث ، ردتته إلى مع بضع كلمات تاتيب ، قالتها بلهجة باردة
تجمد لها دى . . . وحاولت أن أتكلم ، ولكن الكلمات ماتت
على شفتى ، وخبا وجدى الفجائى مع أملى . وبعد هذا الإعلان
الكتابى لحبى ، واصلت العيش بقربها كذى قبل ، دون أن
أحدثها عن شيء من عواطفى ، ولو بنظرات عيني !

ولقد ظننت أن حماقتى أصبحت منسية ، ولكنى كنت
مخطئا . . . وكان السيد دى فرانكوى ، نجل السيد دوبان ،
وابن زوج السيدة دوبان (١) ، يقارب السيدة فى السن ،
ويقاربنى . وكان لامع الذكاء ، مليح الهيئة ، يحسن الظهور
بمظاهر العظمة . ويقال إنه كان مقربا إلى السيدة دوبان ،
لا لشيء إلا لأنها زوجته من امرأة شديدة الدماة ، ولكنها
ضالفة اللطف ، وعاشت معها فى وثام تام ، وكان السيد دى
فرانكوى يحب المواهب ويتكفل بمساعدة أصحابها ، ومن ثم
لمن الموسيقى — التى كان يلم بها إلماما عظيما — كانت وسيلة

(١) أى أنه كان ثمة زواج سابق للسيد دوبان . ويلاحظ أن « دى »

قبل الاسم ، معناه أن صاحبه يحمل لقباً ، وهذا يبرر عدم حمل « فرانكوى »

لأسم دوبان !

ورباطا بيننا . . ولهذا اعتدت أن القاه كثيرا ، فتعلقت به .
وقد أوعز إلى — نجاهة — بأن السيدة دويان أصبحت ترى أن
زياراتي أكثر مما كان ينبغي ، ورجائى أن اكف عنها . . . ولعل
هذه الإشارة كانت في محلها ، لو أنها صدرت عند ما اعادت
السيدة الخطاب إلى . أما وقد صدرت بعد ثمانية أيام — أو
عشرة — ودون أى سبب آخر ، فقد لاحظت لى غير ذات
موضوع . ومما زاد الموقف غرابة ، أن هذا لم يضعف الحفاوة —
التي كنت اتبادل بها في دار السيد والسيدة دى فرانكويى — عن
ذى قبل ! على أننى خلفت من ترددى عليهما ، وكنت موشكا
أن أقطع زيارتي تهما ، لولا أن السيدة دويان — مدفوعة
بنزوة لم اتبين إذ ذاك حقيقتها — سألتنى أن أعنى ، لثمانية
أيام أو عشرة ، بابتها الذى كلن إذ ذاك قد فقد مربيه السابق ،
وكان من المنتظر أن يبعى وحيدا ريثا يصل المربى الجديد .
ولقد قضيت هذه الأيام الثمانية في عذاب ، لم يكن ليجعله
محتملا سوى لذة إرضاء السيدة دويان! . . إذ كلن «شيفونسو»
المسكين (١) قد أصيب بخبل كاد أن يجر الخزى على الأسرة ،
وكلن سببا في موته بعد ذلك ، في جزيرة (بوريون) . ولقد
كنت — أثناء وجودى بجواره — أحول بينه وبين أن يؤذى
نفسه أو يؤذى غيره . وما كانت هذه المهمة بالسهلة ، كما أننى
لم اكن لأتولاها ثمانية أيام أخرى ، ولو منحتنى السيدة دويان
نفسها في مقابل ذلك !



(١) « شيفونسو » هو اسم ابن مدام دويلن .

وأولتى السيد دى فرانكويى صداقته ، فعملت معه ،
 وبدانا نطلق سويا منهجا فى الكيمياء لدى « رويل » . ولكى
 اكون على مقربة منه ، تركت نزلى - « سان كينتان » -
 وانتقلت للإقامة فى « ساحة التنس » بشارع (هرديليه) ،
 الذى كان يفضى إلى شارع (بلانير) ، حيث يقيم السيد
 دويلان . وهناك ، نشأ عن إصابتي ببرد أهملته ، أن وقعت
 فريسة التهاب رئوى كنت أموت منه . وكثيرا ما كنت أصاب فى
 شيبابى بتلك الأمراض الالتهابية : التهابات البلورة (ذات
 الجنب) ، والتهابات اللوزتين - التى كنت ضحية سهلة لها
 بوجه خاص - وغيرها ، مما لا أراى بحاجة إلى تسجيله هنا ،
 وكانت جميعا تدفعنى إلى حيث أرى الموت من كتب كاف لأن ألف
 شكله وسنح لى الوقت - أثناء نقاهتى - للتفكير فى حالى ،
 وللرثاء لجبنى ، وضعفى ، وكسلى الذى كان - برغم ما كنت
 اکتوى به من نار - يتركنى أنبل فى خمول ذهنى على أبواب
 العاقة !

وكنيت فى اليوم السابق لوقوعى فى المرض ، قد ذهبت
 لمشاهدة « أوبرا » لروبيه كانت تمثل إذ ذاك ، وقد غلب هنى
 اسمها . وبالرغم من أن تعنتى فى الحكم على مواهب سنواى
 جعلنى دائما لا أطمئن إلى مواهبى ، فأننى لم أستطع أن اكبح
 نفسى عن ملاحظة أن الموسيقى كانت باردة ، فاقدة الحرارة ،
 خلوا من الابتكار والتجديد . وكنيت أجرو - فى بعض الأحيان
 - على أن أقول لنفسى : « يخیل إلى أن بوسعى أن اصنع خيرا
 من هذا » . . بيد أن الفكرة - الباعثة على التهييب - التى

داخلتني من تلحين « الأوبرا » ، والأهمية التي كنت اسمع
 الإخصائيين يخلعونها على مثل هذا العمل ، ثبطت عزيمتي في
 الحال ، وجعلتني انضج خجلا لجرأتني على التفكير في ذلك! ..
 ثم ، أين لي بمن يرضى بأن يزودني بالاقوال اللازمة لآية «أوبرا» ،
 وأن يتجشم عناء تنسيقها ومقا لهواي ؟! . ولقد عاودتني
 هذه الأفكار عن الموسيقى والأوبرا ، أثناء مرضي ، فرحت أبان
 هذيانى أنظم الأغاني والثنائيات والأنشيد الجماعية . . وأوقن
 أنني نظمت قطعتين أو ثلاثا لفوري — وعفو الخاطر — ربما
 كانت جديرة بإعجاب الأساتذة ، لو أنهم سمعوها تؤدي . .
 ولو تسنى تسجيل أحلام امرئ محموم ، فآية أشياء جليلة
 وعظيمة قد يتيسر استخلاصها أحيانا من هذا الهذيان !

ولقد ظلت موضوعات الموسيقى والأوبرا هذه ، تشغلني
 أثناء نقاهتي ، ولكن في توارد أكثر هدوءا . وبدافع من التفكير
 في ذلك — بل وبالرغم من نفسي — اعتزمت أن أرضي نفسي ،
 وأن أحاول وضع « أوبرا » ، بكلامها وموسيقاها ، دون معونة
 من أحد . ولم تكن هذه أول محاولة لي ، إذ كنت قد ألقت في
 (سامبيري) أوبرا ومأساة —أوبرا تراجيدى — بعنوان «إيفيس
 وأنا كساريت » ، وكنت من حسن الإدراك بحيث رميت بها في
 النار! .. كما نظمت في (ليون) أخرى بعنوان « اكتشاف
 الدنيا الجديدة » ، لم ألث بعد أن قرأتها على السيد «بوردي» :
 والراهب دي « مبللى » ، والراهب « ترويليه » وغيرهم ، أن
 انتهيت بها إلى عين المصير ، بالرغم من أنني كنت قد كتبت

موسيقى المطلع والفصل الأول ، وعندما اطلع « دافيد » على الموسيقى ، أنبأني بأنها كانت تحتوى على مقاطع تليق ببيونوتشينى (١).

وفي هذه المرة ، اتحت لنفسي وقتا للتفكير فى مشروعى ، قبل ان امد يدي إلى العمل . ورسمت لفكرة مسرحية بطولية راقصة (باليه) ثلاثة موضوعات مختلفة ، فى ثلاثة فصول مستقلة ، لكل منها لون من الموسيقى مغاير لما للآخرين . ونسجت كل منها حول غراميات أحد الشعراء ، ثم اسميتها « عرائس الشعر اللطاف » (٢) . . وكان الفصل الأول يدور حول « تاس » (٣) ، وقد صيغت موسيقاه فى أسلوب قوى . أما الفصل الثانى ، فكان عن « أوفيد » ، وكانت موسيقاه رقيقة ، فى حين أطلقت على الفصل الثالث اسم « أنا كريون » ، وقد روعى فيه أن ينوح بأنفاس الاطراء والمديح ! . . وجريت براعتى - فى البداية - فى الفصل الأول ، فعكفت عليه بحماس

(١) اشتهر بهذا الاسم ثلاثة من الموسيقيين الايطاليين ، كانوا ابا وابنيه ، وقد اقام اصغر الابنين رحا فى انجلترا ، وكان اكثر الثلاثة شهرة .

Les Muses Galantes (٢)

(٣) تاس : هو الشاعر الايطالى توركانو تاسو ، ويعتبر من اعظم اصحاب ملاحم البطولة . وقد عاش فى القرن السادس عشر . ولهذا اختار « روسو » لطابع القوة للفصل الذى نسجه حوله . أما « أوفيد » ، فكان شاعرا لاتينيا ، اقترن اسمه بالحب والهوى ، برغم ما قاساه فى حياته من شجون ومقاعب ، حتى انه مات منديا . أما « أنا كريون » ، فكان شاعرا غنائيا تنوح اغانيه بتمجيد الله والطعام واللذة .

مكتنى — للمرة الاولى — من أن اتنوق لذائذ توفد القريحة في
الطحين ! .. وفي ذات مساء كنت أهم بدخول دار « الاوبرا » ،
وإذا بى اجدنى نهبا للأفكار ، وإذا بها تطغى على ، فرددت
نقودى إلى جيبى ، وأسرعت إلى غرفتى وأغلقتها على نفسى ،
وارتميت على السرير ، بعد أن أحكمت ستائر النافذة لأجول
دون تسرب ضوء النهار .. وهناك ، اسلمت نفسى تماما
للإلهامات الشعرية والموسيقية ، فوضعت بسرعة ، وفي سبع
ساعات أو ثمان ، أروع قسم من الفصل ! .. وبوسعى أن
اقول إن حبى للأميرة دى « ميرارى » — إذ اننى كنت « تاس »
إذ ذاك — ومشاعرى النبيلة المترفعة إزاء أخيها الظالم ، اتاحت
لى — الليلة واحدة — من المتع ما كان يفوق مائة مرة ، كل
ما كنت خليقا بأن أجده بين خراعى الأميرة نفسها (١) .. ولم
يبق فى راسى — فى الصباح — سوى قسط بسيط مما نظمته
ولحنته ، ولكن هذا الجزء — الذى شوهه الأجهل والنعاس
تقريبا — لم يخفق فى أن يكشف عن قوة المقطوعات التى تبقت
كالأطلال !

وفى هذه المرة ، لم امض بعيدا فى هذا المشروع كثيرا ، نظرا
لانتصافى إلى الشئون الأخرى . ولم تكن السيدة دى بوزينفال،
والسيدة دى بروجى — اللتين ظللت أزورهما من وقت لآخر
— قد نسيتهما تماما فى غمرة تعلقى بأسرة دوبان . فقد حدث
أن عين السيد الكونت دى مونتيجي — الذى كان ضابطا فى

(١) كتلت الأميرة أجمل نساء مصرها ، وقد تصور « روسو » أنه « تاس » ،

الذى تله فى هواها ، وثام على مظالم أخيها !

الحرس — سفيرا في (نمينا) . وكان مدينا بسفارته إلى « بارجاك » (١) الذي كان قد ثابر على مصابجه . كما أن أخاه — الشيفالييه دي مونتيجي — كان « فارس الكم » للسيد ولي العهد (٢) . وقد كان على معرفة بهاتين السيدتين (٣) ، وبالأهـب « الأري » — عضو المحفل الفرنسي — الذي كتبت أزوره ، في بعض الأحيان ، كذلك . وإذا علمت السيدة دي بروجلي بأن السفير كان يبحث عن سكرتير ، رشحتني لديه . وشرعنا نبحث الأمر ، فطلبت خمسين « لوى » كمرتب ، وهو مبلغ كان قليلا بالنسبة لمنصب يتطلب الخرص على المظهر . ولكنه لم يتأ أن يدفع سوى مائة « بيستول » (٤) كما كان على أن أتكل بنفقات سفرى ، وكان هذا اقتراحا يدعو للضحك ، ومن ثم فلم يقدر لنا أن نتفق ، ونماز السيد دي فرانكويى — الذى بذل قصارى وسعه ليحول بينى وبين الرحيل — بمأربه، فمكثت بينما رحل السيد دي « مونتيجي » مصطحبا معه سكرتيرا آخر يدعى السيد « فولو » ، كانت وزارة الخارجية هى التى رشحته له . ولكنها لم يكادا يبلغان (نمينا) ، حتى

(١) كان بلرجاك هو الخادم الخاص للكردينال دي غلورى ، الذى كان واسع الثقل لدى الملك .

(٢) هوسان الكم : طلائع من النبلاء كانوا يجمعون بين التدبير والبطولة ، وكتبوا يتولون رعاية الامراء الفرنسيين حتى يتجربوا تعلمهم .

(٣) السيدة دي بوزينيل وابنتها .

(٤) كان « اللوى » اذ ذاك ٢٤ فرنكا ، و « البيستول » ١٠ غلط .

اختلفنا واشتجرا . وإذا رأى « مولو » أنه سيضطر إلى العمل مع رجل مجنون ، هجره هناك ، ولم يعد لدى السيد دى مونتيجى سوى راهب شاب يدمى دى « بينى » ، كان كاتباً تحت إرشاد السكرتير ، ولم يكن فى مركز يؤهله لأن يملأ المنصب . ومن ثم اضطر السفير إلى أن يلجأ إلى مرة أخرى . وقد أفهمنى أخوه « الشيفالييه » — الذى كان موفور الذكاء — أن ثمة امتيازات معينة تتصل بمنصب السكرتير ، وبهذا افلح فى أن يغفرنى بقبول الألف فرنك (١) . . كما تسلمت عشرين « لوى » لنفقات رحلتى . . فبادرت إلى السفر !

من سنة ١٧٤٣ إلى سنة ١٧٤٤

وعند (ليون) ، تمنيت أن اتخذ طريق (مون سيني) ، لأزور « ماما » المسكينة ، زيارة ماهرة . بيد أننى انحدرت مع نهر (الرون) ، ثم انتقلت بالبحر إلى (طولون) . وكان ذلك بسبب الحرب ، وبداعى الاقتصاد ، وللحصول — كذلك — على جواز للسفر من السيد دى « ميربوا » ، الذى كان يشرف على الإقليم إذ ذاك ، والذى كنت موفدا إليه بتوصية . وإذا لم يكن بوسع السيد دى مونتيجى أن يستغنى عني ، فقد راح يكتب لى الرسائل تلو الرسائل ، متعجلاً سرى . ولكن حادثاً عاقبني .

كان الطامون يتفشى إذ ذاك فى (مسينا) . وكان الأسطول البريطانى يرسو هناك ، فزار المركب التى كنت عليها ، وقد

(١) يبدو أنه بمقدار ثمانية المراتب السنوى .

عرضنا ذلك عند وصولنا إلى (جنوا) - بعد رحلة طويلة شاقة - إلى أن نحتجز تحت المراقبة الصحية ثمانية وعشرين يوما . وترك لنا الخيار بين البقاء على سطح المركب ، أو في المعزل الصحى ، الذى انذرنا بأننا لن نجد فيه شيئا ، اللهم إلا الجدران الأربعة ، إذ لم يكن الوقت قد اتسع لتأنيته . واختار الجميع البقاء فى السفينة ، ولكن الحر المرهق ، وضيق المكان ، وتعذر التريض على القدمين ، والحشرات ، جعلتنى أفضل المعزل . فاقترعت إلى مبنى كبير ذى طابقين . وكان عاريا تماما ، فلم أعتريه على نافذة ، ولا منضدة ، ولا سرير ، ولا مقعد . . بل ولا كرسي منخفض بلا مسند لاجلس عليه ، ولا حزمة من القش أرقد عليها . . واحضروا إلى معطلى ، والحقيبة الصغيرة التى تضم ثياب النوم ، وحقيبتى الكبيرتين ، ثم أغلقت دونى أبواب ضخمة ، ذات أقفال هائلة . . وبقيت هناك ، حرا فى أن أتجول وفق هوائى ، من حجرة إلى أخرى ، ومن طابق إلى آخر ، دون أن ألقى فى كل مكان بغير العزلة والتجرد من الأثاث !

ولم يحملنى كل هذا على أن أندم لاختيارى المعزل دون المركب ، بل رحمت أكبر أمورى - كما لو كنت « روبنسن » (١) جديدا - للأيام الثمانية والعشرين ، وكأننى كنت مقبلا على الإقامة طيلة العمر ، وكنت أتسلى - فى البداية - باصطياد القمل الذى التقطته على المركب . لهما أصبحت نظيفان فى

النهاية ، بفضل تغير الثياب الداخلية والخارجية ، تحولت إلى
تأثير الحجر التي اخترتها ، نصنعت حشية بديعة من ستراتي
واقمصتي ، وملاءات من عدة مناشف خطت بعضها إلى بعض ،
وغطاء من إزارى المنزلى (الروب دى شامبر) ، ووسادة من
معطى الذى لفته ، واتخذت مقعدا من إحدى حقيبتى بعد
ان وضعتها على أحد جانبيها العريضين ، ومنضدة من الحقيبة
الأخرى بعد ان أقمتها على أحد جانبيها الضيقين ، وأخرجت
ورقا ومحبرة ، ونسقت حوالى اثنى عشر كتابا كنت املكها ،
لتكون مكتبة . وقصارى القول اننى هيات مقامى نهيئنا طيبا
حتى اننى كنت فى ذلك المعزل العارى انعم بلقمة تعدل اقلمتى
فى مسكنى بساحة التنس فى شارع (ديلا ميرديليه) ، فهما
عدا الستائر والنوافذ . . . وكانت وجباتى تقدم فى كثير من
مظاهر الابهة ، إذ كان يرافقتها جنديان شهرا حربتيهما فى طرفى
بندقيتيهما . وكان دهليز السلم بمثابة قاعة مائدتى ، كما
كانت عرصة السلم بمثابة مائدة ، فاذا ما أعد الغداء ، دق النخين
احضروه ناقوسا — أثناء انسحابهم — لتنبيهى إلى أنه قد لآن
لى ان اجلس إلى المائدة .

وعندما كنت انصرف عن القراءة او الكتابة ، او استكمال
تأثير حجرتى — بين الوجبات — كنت اتمشى فى مقبرة
البروتستاننت ، التى كانت بمثابة ساحة لمسكنى ، او اصعد
إلى برج يطل على الميناء ، حيث يتسنى لى رؤية السفن فى
دخولها وخروجها . وقضيت على هذا النسق أربعة عشر يوما ،
وكننت قميئا بأن اقضى الايام العشرين بأسرها دون ان أضجر



وانطلقت ملقدا من احدى حقيبتى بعد ان وضعتها على احد جانبيها
المريضين ومنسلة من الحقيبة الأخرى .

لحظة ، لولا السيد دى « جونففى » — المبعوث الفرنسى — الذى كنت قد تمكنت من أن أرسل إليه خطابا معبّقا بالخل ، ومعطرا ، وشبه محترق . . فقد انقضى مدة احتجازى ثمانية أيام ، قضيتها فى داره ، حيث اعترف بأننى وجدت من راحة المقام ما لم أجده فى معزلى . . وقد أبدى لى عطفا قويا ، كما أن سكرتيره « ديبون » كان شلّبا طيبا ، اصطحبنى إلى بيوت عديدة — سواء فى جنوا أو فى الريف — حيث كانت التسمية موفورة . وقد وثقت معه روابط المعرفة والقراسل ، التى ظللنا نرعاها رجحا طويلا من الزمن . وما لبثت أن استأنفت رحيلى — راضيا مرتاحا — مخترقا سهل (لمباردى) ، وزرت (ميلان) ، و (فيرونا) ، و (بريسيا) ، و (بادوا) ، ثم وصلت فى النهاية إلى (البندقية) ، حيث كان السفير فى انتظارى ، وهو نادم الصبر !



ووجدت أكدا ساسا من الرسائل — سواء من البلاط الملكى أو من السفراء الآخرين — لم يكن فى وسع السفير أن يقرأ ما كتب منها بالأسفرة ، برغم أنه كان يملك كافة مفاتيح الأسفرة اللازمة لذلك . ولما لم أكن قد عملت قط فى منصب من هذا النوع ، ولا رأيت فى حياتى أسفرة حكومية ، فقد خشيت — فى البداية — أن أرتبك ، ولكننى تبينت أنه لم يكن ثمة ما هو أسهل من ذلك . . وفى أقل من أسبوع ، كنت قد حللت رموز الرسائل جميعا ، إذ أنها لم تكن — فى الواقع — تستحق عناء . فمعد كانت السفارة القائمة فى البندقية قليلة العمل دائما ، فضلا عن أن مثل هذا الرجل — السيد دى مونتيجى — لم يكن ممن يهمل

إليهم بأية مفاوضات . ولقد كان في حيرة بالغة إلى أن وصلت ،
فما كان ليصرف كيف يملأ رسائله ، ولا كيف يكتب بخط
مقروء . ومن ثم فأتى كنت عظيم النفع له ، وقد شعر بذلك ،
فأحسن معاملتي . وكان ثمة باعث آخر حمله على ذلك ، فلقد
تولّى أعمال السفارة — بعد رحيل سلفه السيد دي فرولاي ،
الذي اختل عظه — القنصل الفرنسي ، الذي كان يدعى السيد
لوبلون ، ثم واصل إدارتها منذ وصول السيد دي مونتيجي
ريثما يدرجه على نظام العمل . ولقد جنح السيد دي مونتيجي
— في غيرته من أن سواه كان يؤدي عمله ، برغم أنه كان عاجزا
عن أدائه بنفسه — إلى تكراهية القنصل ، فما أن قدر لي أن
أصل ، حتى جرّده من مهام سكرتير السفارة ، ليكلها إلى .
ولما كانت هذه المهام غير منفصلة عن لقب « سكرتير السفارة » ،
فقد دعاني إلى أن أحمل هذا اللقب . وما أوفد — طيلة بقائي
بجه — أحدا سواي بهذه الصفة إلى مجلس الشيوخ أو إلى
مندوبيه (١) . والواقع أنه كان من الطبيعي أن يفضل أن يكون
في منصب سكرتير السفارة رجل تابع له ، من أن يكل هذا
المنصب إلى القنصل أو موظف كتابي معين بمعرفة البلاط .

ولقد أدى هذا إلى أن أصبح مركزي جد ملأئم ، ومنع أفراد

(١) كان من عادة مجلس شيوخ جمهورية البندقية — في ذلك الحين — أن
تجتمع مع سفراء الدول الأجنبية ، من طريق مندوبين يولدهم إليهم ،
وتجملون يولدهم السفراء اليه . وقد كان مجلس الشيوخ — في بعض نظم
الحكم — ذا سلطة تنفيذية . وهكذا كان في البندقية .

بطانته ، الذين كانوا من الإيطاليين — كما كان اتباعه ومعظم خدمه — من ان ينازعونى الأولوية فى داره . وقد استغللت بنجاح ما كان لهذا المركز من سلطان ، فى صون حقوقه الدبلوماسية ، وأعنى بذلك حصانة مقره ضد المحاولات التى بذلت مرارا عديدة لانتهاكها ، والتى كان موظفوه — من أبناء البندقية — لا يحفلون بمقاومتها . ومن ثم فأتى لم أسمح قط للخارجيين على القانون باللجوء إلى هذا المقر ، بالرغم من اننى كنت خليقا بأن أجنى من وراء ذلك نفعا كبيرا ، ما كان صاحب السعادة ليتورع عن مقاسمتى إياه ! .. بل إنه جرؤ على أن يستبيح لنفسه حقوق السكرتيرية التى يطلق عليها اسم « أعمال الديوان » . ومع أن الحرب كانت قائمة ، إلا أن هذا لم يعف من إصدار عدد لا بأس به من جوازات السفر ، وكان يدفع عن كل جواز منها ، « سيكان » (١) للسكرتير الذى ينجزه ويصدق عليه . وقد اعتاد كل من سبقونى أن يتقاضوا هذا السيكان من الفرنسيين ومن الأجانب على السواء . بيد اننى وجدت هذا الإجراء غير عادل ، ومع اننى لم أكن فرنسيا ، فأتى الغيبة بالنسبة للفرنسيين ، وإن رحت أتقاضى حقى — فى غير ما تساهل — من كل من عداهم . فلما أرسل لى المركيز سكوتى — شقيق الشخص الذى كانت له الحظوة لدى ملكة أسبانيا — يطلب يوما جوازا ، دون أن يرسل لى السيكان : « طلبته به ، وهو اجتراء لم ينس قط ذلك الإيطالى المفطور على الانتقام . ومنذ أن أصبح هذا الاصلاح الذى أدخلته على رسوم

(١) السيكان عملة تتراوح قيمتها بين ٩ و ١٢ فرنكا .

الجوازات معروفا ، لم يعد يتقدم للحصول على جوازات سوى جحافل من منتحلي الجنسية الفرنسية ، الذين كانوا يزعمون — في رطانة محتملة — أن هذا من اقليم (بروغانس) ، والآخر من (بيكار) ، والثالث من (بيرجندي) . ولما كنت قد أوتيت سمعا مرهفا ، فأننى لم أكن أخدع قط ، وما أظن أن إيطاليا واحدا استطاع أن يسلبنى «سيكانى» ، أو أن غرنسيا واحدا دفعه لى . وكنت من الغباء بحيث أنبأت السيد دى مونتيجى — الذى لم يكن يعلم شيئا عن أى شيء ! — بما فعلت . غاذا كلمة «سيكان» تجعله يفتح أذنيه ، وبدون أن يبدى لى رابا بصدد إلغاء الرسم للفرنسيين ، طلب أن أسوى معه الحساب بشأن الآخرين ، واعداد إياى بمنافع فى مقابل ذلك ! . . . ورفضت اقتراحه عن احتقار لضعفه أكثر منى عن تأثر من أجل مصلحتى ، والحق على ، لماذا بغضبى يحتدم ، وقلت فى حمس شديد : « لا ياسيدى . . أن لسعادتك أن تحتفظ بما هو حق لك ، ودع لى ما هو حقى ، فلن أنزل عن «سو» واحد منه ! » . وإذ رأى أنه لم يكسب شيئا بهذه الوسيلة : عمد إلى وسيلة أخرى ، ولم يخجل من أن يقول إننى ما دمت أحصل على مكاسب من أعمال ديوانه ، فمن العدل أن اتحمل نفقات هذا الديوان . ولم أشأ أن أجادل فى هذا الأمر ، ومن ذلك الحين أخذت ابتاع من مالى المداد ، والورق ، وشمع الاختلم ، وشمع الإضاءة ، والأشرطة ، وما إلى ذلك . . . حتى خاتم الدولة الذى أصلحته ، دون أن يدفع من نفقات إصلاحه شيئا ! . . ولم يحل هذا دون أن أعيين جزءا صغيرا من أيراد

عملية الجوازات للراهب دى بينى ، الذى كان ثـابـا طـيـبا .
والذى كان أبعد من أن يطلب لنفسه شيئا من هذا التبيل . وإذا
كان قد تطف نحوى ، فأننى لم أكن أقل كرما نحوه ، ومن ثم
فقد عشنا معا فى وئام على الدوام .



ولقد وجدت على — إذ مارسته — أقل إرهاقا مما توقعت
بالنسبة لرجل عديم الخبرة ، قدر له أن يعمل مع سفير لم يكن
يفوقه فى شيء ، بل إنه كان بجهله وعناده يعرقل — وكأنما كان
يسر بهذه العرقلة — كل ما كان يلمنيهِ الإدراك السليم وبعض
أضواء المعرفة لاتقن خدمته وخدمة الملك ! . . وكان أكثر أعماله
انطواء على ادراكى ، هو ارتباطه بالمركىز دى « مارى » ، سفير
أسبانيا ، الذى كان بارعا ، أرييا ، وكان بوسعه أن يقوده من
أنفه إلى حيث شاء ، لولا أنه — نظرا لارتباط مصالح التاجين —
كان يحضه عادة خير النصيح ، فكان الآخر يضيع نفع هذا
النصح ، إذ كان دائما يدس عليه بعض آرائه الخاصة عند
التنفيذ ! . . وكان الشيء الوحيد الذى اشتركا فى عمله ، هو
اغراء البندقيين بالالتزام الحياد . وكان هؤلاء لا يكونون عن ادعاء
الامانة فى صون الحياد ، مع أنهم كانوا يمدون الجنود النمساويين
— علانية — بالفخائر ، بل وبالمجندين الذين كانوا يزعمون أنهم
هاريون من قواتهم . . أما السيد دى مونتيجى — الذى اعتقد
أنه كان يبغى إرضاء الجمهورية (١) — فلم يكن يتوانى ، بالرغم

من بياناتى عن أن يحملنى على أن أؤكد فى كل رسائله أنها لم تكن تنتهك الحياد إطلاقاً . وكان عناد هذا الرجل المسكين وغباؤه يضطرائنى إلى أن أكتب وأرتكب — فى كل لحظة — سخافات كنت مجبراً على أن أكون الوسيط فيها ، ما دامت هذه رغبته ، ولكنها كانت — فى بعض الأحيان — تجعل أداء واجباتى أمراً لا يطاق .. بل أمراً غير ميسور عملياً ! .. مثال ذلك : أنه كان يصر أصراراً مطلقاً على أن يكون الشطر الأكبر من رسائله إلى الملك ورسائله إلى الوزير مكتوباً بالشفرة ، برغم أن أياً من هذه أو من تلك لم يكن يشتمل على شئ ما يجعل مثل هذه الحيلة لازمة ! .. ولقد أوضحت له أنه لم يكن ثمة وقت كاف بين يوم الجمعة — الذى كانت رسائل البلاط تصل فيه — ويوم السبت — الذى كانت رسائلنا تصدر فيه — لكتابة هذه بالشفرة ، ولكتابة الكمية الكبيرة من الرسائل التى كان على أن أعدها ليحملها البريد فى اليوم ذاته . فابتكر لذلك خطة بديعة ، تلك هى أن أعد — فى يوم الخميس — ردود الرسائل التى يكون مقدراً لها أن تصل فى اليوم التالى ! .. ولقد تراءت له هذه الفكرة موفقة — بالرغم مما وسعنى أن أقوله عن استحالة ، بل ومخف ، تنفيذها — حتى إنه حتم اتباعها ، فلم أكن أخفق قط ، طيلة المدة التى مكثتها معه بعد ذلك — فى أن أحمل إليه فى صباح يوم الخميس ، مسودة مصوغة من الكلمات القلائل التى كان يلقيها فى مناسبات عابرة خلال الأسبوع ، والتى كنت أسجلها فى مفكرتى ، ومن بعض البيانات والأخبار البسيطة التى كنت ألتقطها من هنا ومن هناك ، لاتزود بها فى هذه المهمة العجيبة ! .. أقول إننى لم أخفق قط

فى ان اقدم إليه فى صباح يوم الخميس مسودة للرسائل التى ينبغى تصديرها فى يوم السبت ، فيها عدا بعض إضافات أو تعديلات كنت أؤديها فى عجلة ، على ضوء الرسائل التى تصل فى يوم الجمعة ، والتى كانت رسائلىنا تعتبر ردا لها !

وكانت له نزوة أخرى ، غاية فى الطرافة ، أضفت على مراسلاته صبغة مضحكة لا سبيل إلى وصفها : تلك هى إرسال كل نبا إلى مصدره ، بدلا من تركه يأخذ مجراه العادى . . فكان يرسل الانباء الواردة عن البلاط إلى السيد اميلو (١) ، وتلك الواردة عن باريس إلى السيد دى موريا ، وتلك المتعلقة بالسويد إلى السيد داغرينكور ، وتلك الخاصة ببطرسبورج إلى السيد ديلاشياردى . . بل أنه كان يرسل إلى كل منهم أحيانا الانباء الواردة منه هو بالذات ، والتى كنت أجزى تعديلات طفيفة عليها ! . . ولما كان قد اعتاد أن يلقى نظرة على الرسائل الموجهة إلى البلاط وحدها — دون بقية ما كنت أحمله إليه ليوقعه — فانه كان يوقع الرسائل الموجهة إلى السفراء الآخرين دون أن يقرأها ، مما جعلنى أكثر مقدرة على أن أصوغ هذه الأخيرة وفقا لمزاجى ، أو — على الأقل — على أن أبذل من الانباء ، فلا أوجه لكل منهم عين الانباء التى سبق أن أرسلها ! . . بيد أنه كان من المستحيل على أن أصوغ الرسائل الهامة فى أسلوب معقول ، بل اننى كنت أعتبر نفسى سعيدا ، إذا لم يخطر بباله أن يدخل عليها بضعة أسطر متعجلة من وحي

(١) كان السيد اميلو وزيرا للخارجية ، وكان البلاط هو مقر منصبه .

افكاره . فقد كان هذا يضطرنى إلى العودة إلى نسخ الرسالة التى زانها بهذه السخافة الجديدة . . السخافة التى كان لابد من تكريمها بنسخها — بسرعة — بالشفرة ، إذ انه لم يكن يوقع الرسالة بدونها ! . ولقد راودنى الاغراء عشرين مرة — مراعاة لسمعته — بأن أنقل بالشفرة شيئا غير الذى قاله ، ولكنى كنت أدرك أن ليس ثمة ما يبيح لى إطلاقا بمثل هذا الانحراف عن الأمانة ، فكنت أدعه يهذى على مسئوليته ، قانعا بأن أنصاحه برأى ، وبأن أؤدى الواجب المفروض على نحوه !



وهذا ما حرصت على أن أفعله دائما بأمانة وجلد وحيية كانت تستحق جزاء غير ذاك الذى تلقيته فى النهاية . . كان قد حان لى أكون — ولو لمرة واحدة — كما هيأتنى السماء التى أنعمت على بغطرة طيبة ، وكما أهلتنى التربية التى تلقيتها على أيدي أفضل النساء وتلك التى أتحتها لنفسى . . وهذا ما حدث فعلا ! . فقد كنت وحيدا ، مهملًا ، أصدقاء ولا ناصحين ، وبلا تجربة ، فى بلد أجنبى ، وفى خدمة أمة أجنبية ، وفى وسط ثلة من الأتذال الذين كانوا يستحثوننى على أن أحذو حذوهم فى سبيل مصلحتهم ، ومن أجل التخلص من عار وجود بمثل صالح بينهم . . على أننى بدلا من أن أفعل أى شىء من هذا القبيل ، أخلصت الخدمة لفرنسا — التى لم أكن مدينا إليها بأى واجب — وكنت أكثر إخلاصا فى خدمة السفير فى كل ما كان موكولا إلى ، كما ينبغى أن يقال بحق ! . . وإذ لم يكن ثمة ما يؤخذ على فى منصب كهذا ، جد مكشوف للأنظار المتطلعة ، فقد استحققت

وظفرت بتقدير حكومة الجمهورية (١) ، وتقدير السفراء الذين كنا نتبادل معهم الرسائل ، وحب كل الفرنسيين المقيمين في البندقية . ولم يشذ عن ذلك القنصل الذى خلفته - للاسف - في المهام التى كنت ادرك انها من حقه ، والتى جلبت على من المتاعب اكثر مما جلبت من السرور !

واذ انصاع السيد دى مونتيجى دون تحفظ للمركز دى « مارى » - الذى لم يكن ليهتم بتفصيلات واجبات السفير الفرنسى - اهل هذه الواجبات إلى درجة أنه لم يكن من المحتمل ان يدرك الفرنسيون - الذين كانوا في البندقية - أن لفرنسا سفيرا مقيما في المدينة ، لولاي انا !.. ولما كانوا دائما يطردون دون ما استماع إلى شكواهم - كلما نشدوا حمايته - فانهم اصبحوا يزدرونه ، ولم ير واحد منهم قط في معيته أو على مائدته ، التى لم يكن - في الواقع - يدعوهم إليها اطلاقا . وكنت كثيرا ما آخذ على عاتقى اداء ما كان ينبغي على رئيسى أن يؤديه ، واؤدى للفرنسيين - الذين كانوا يلجئون إليه أو إلى انا - كل ما كان في طوقى من خدمات . ولقد كنت خليقا بأن أفعل فوق ما كنت أفعل ، لو اتفنى كنت في أى بلد آخر .. ولكننى لم أكن املك - بحكم منصبى - أن أقابل أى شخص من ذوى النفوذ ، فكنت كثيرا ما اضطر إلى أن ألجأ إلى القنصل .. وكان لدى القنصل من دواعى الحذر - نظرا لاستقراره - أسرته في البلد - ما كان يمنعه من أن يفعل كل ما كان يهوى

.. على انتى كنت اجسر احيانا - عندما اراه صامتا لا يجرؤ على الكلام - على الاقدام على تصرفات خطيرة ، قد رلى التوفيق فى كثير منها . ولى لأذكر مغامرة منها ، لا تزال نكراها تحملنى على الضحك وما أظنه يخطر ببال أخذ ، ان رواد المسرح بباريس مدينون لى بكورالين وأختها كايى، وإن لم يكن ثمة ما هو اصدق من هذا . فلتد تعاقد «فرونيز» - أبوها - على الاتضمام وابنتيه إلى الفرقة الإيطالية . وبعد أن تسلم الفى فرنك لنفقات الرحلة ، لم يسافر وإنما انضم ببساطة إلى مسرح « سان لوك »^(١) بالبندقية ، حيث اجتذبت كورالين - برغم انها كانت لا تزال طفلة - كثيرا من الناس . فكتب السيد الدوق دى جيفر - الأمين الاول للديوان الملكى - إلى السفير مطالبا بالاب وابنتيه ، وأسلمنى السيد دى مونتيجى الخطاب ، وكانت التعليمات التى زودنى بها ، هى : « انظر هذا الامر ! » . فذهبت إلى السيد لوبلون ، ورجوته أن يخاطب السيد الذى كان يمتلك مسرح « سان لوك » ، والذى كان من أعضاء مجلس الشيوخ - ويدعى ، على ما أظن ، « جستنيانى » - فيقنعه بأن يسرح فرونيز ، الذى كان متعاقدا لخدمة الملك . ولم يكن لوبلون متحمسا للمهمة ، فأساء أداءها ، وتعل « جستنيانى » بمخلف الحجج ، فلم يسرح فرونيز . واغتمت .. وكنا فى « الكرنفال » ، فاستقلت زورقا وقد تقنعت ، وذهبت إلى قصر « جستنيانى » . وبهت كل من رأتى فى جندولى

(١) أضاف روسو الى هذا قوله : « لست وانعا من انه لم يكن مسرح « سان صوبيل » ، فان الأسماء الصحيحة تغيب عن ذاكرتى تالما » .

وانا في ثيابي الرسمية ، إذ ان البندقية لم تر شبيبها لهذا العمل من قبل . ودخلت القصر ، واوحيت بأن يعلن السيد بمقدمي على اننى « السيدة ذات القناع » ، وما أن دخلت عليه ، حتى ازحت قناعي ، واعلنت اسمي ، فامتقع وجهه عضو الشيوخ ، وجمد مشدوها . وإذ ذاك قلت له في لهجة ابنساء البندقية : « سيدى ، يؤسفنى أن أزجج سعادتك بزيارتى ، ولكن في مسرح « سان لوك » - التابع لك - رجلا يدعى فيرونيز ، تعاقد على خدمة الملك ، وقد طولبت به دون جدوى . لذلك جئت اطلب به باسم صاحب الجلالة ! » . وحدث هذا القول - على إيجازه - اثرا . فلم اكد أنصرف ، حتى هرع صاحبنا إلى محققى الدولة القضائيين ، الذين أوضحوا له الموقف ، ففصل فيرونيز في اليوم ذاته . وكان أن أوفدت إلى هذا من اتذروه بأنه إذا لم يرحل في خلال اسبوع ، فسوف أعمل على إلقاء القبض عليه . . ومن ثم رحل !

وفي مناسبة اخرى ، انقذت ريان سفينة تجارية من مأزق ، بجهودى وحدها ، ودون معونة أى شخص تقريبا . وكان الريان من أبناء (مارسليا) ، ويدعى « أوليفيه » ، وقد نسيت اسم السفينة ، فقد اشتجر ملاحوه مع « الاسكلافونيين » (١) الذين كانوا في خدمة الجمهورية . وكان من جراء الشغب الذى ارتكب ، أن احتجزت السفينة

وفرضت عليها تحفظات بلغ من قسوتها ان احدا - سوى
الربان - لم يكن يملك ان يصعد إليها او ان يغادرها دون إذن .
ولجأ الربان إلى السفير ، الذى صرفه فى جفاء ، فلجأ إلى
القنصل ، ولكنه قال له إن مسألكه لم تكن مسألة تجارية ، وأنه
لا يملك التدخل . وإذ لم يدر الرجل ما يفعله بعد ذلك ، جاعنى
فاوضحت للسيد دى مونتيجى ان عليه ان يسمح لى بأن أرفع
مذكرة إلى مجلس الشيوخ . ولست أذكر ما إذا كان قد أفن لى ،
ولا ما إذا كنت قد قدمت المذكرة ، وإنما أذكر تهما ان المساعى
التي بذلتها لم تنته إلى شيء ، وظل التحفظ قائما ، فلجأت إلى
عمل حازم قدر له النجاح ، إذ أوردت بيانا عن هذه المسألة فى
رسالة إلى السيد دى « موريا » ، وإن لقيت عناء كبيراً فى إقناع
السيد دى مونتيجى بأن يجيز هذا البيان . وكنت أعرف ان
رسائلنا كانت تفتح فى البندقية - برغم انها لم تكن تستحق هذا
العناء - إذ كنت أملك الدليل على ذلك ، فمثلا فى الفقرات التي
اعتدت أن أجدها منقولة بالنص فى الصحيفة الرسمية . . وهو
لون من عدم الأمانة حاولت عبثاً أن أحمل السفير على ان يحتج
عليه . وكانت غايته من الحديث عن هذا الحادث المكدر فى
الرسالة ، هى أن استغل فضول سلطات البندقية ، لكى أرهبهم
وأحملهم على أن يطلتوا سراح السفينة . . فان الربان كان
مسوقاً إلى الاملاس قبل ان يصدر رد البلاط عن هذه المسألة ،
لو أنه اضطر لانتظار هذا الرد . . بل اننى أقدمت على إجراء
آخر ، إذ زرت السفينة لاستجواب الملاحين ، واصطحبت الراهب
« باتيزيل » - كاتم اسرار القنصل - الذى لم يأت إلا كارهها .

فقد كان هؤلاء المساكين جميعا يخشون أن يفقدوا مجلس الشيوخ . ولما لم يكن بوسعنا أن نحدد إلى سطح السفينة ، بسبب الحظر المفروض ، فقد بقيت في جنودولى ، وقمت بالتحقيق من هناك ، موجهة استلتي بصوت مرتفع . وإلى كل الملاحين تباعا ، وقد صفت هذه الأسئلة بحيث تستدعى إجابات في صالحهم . ولقد حاولت أن أحمل باتيزيل على أن يسألهم وأن يعد التقرير بنفسه ، وهو أمر كان من مهامه — في الواقع — أكثر مما كان من مهامى ، ولكنه لم يشأ أن يوافق على ذلك إطلاقا ، ولم ينبس بكلمة واحدة ، بل أنه كاد بأى أن يوقع التقرير بعد أن وقعته أنا . . على أن هذه الخطة — المنطوية على شيء من الجراءة — كانت موفقة للغاية ، فافرج عن السفينة قبل أن يصل جواب الوزير بوقت طويل . وأراد الريان أن يقدم لى هدية ، فقلت له وأنا أدق كتفه ، دون أن أبدى استياء : « كابتن أوليفيه ، أنظن أن رجلا لا يتقاضى الفرنسيين رسم الجوازات — وهو حق مقرر له — يرضى أن يتقاضاهم ثمن حماية الملك ؟ » . . ورغب الريان فى أن أتناول الغداء معه على سطح السفينة — على الأقل — فقبلت مصطحبا سكرتير السفارة الأسبانية ، المدعو « كاريو » — وكان رجلا ذكيا بالغ اللطف ، غدا بعد ذلك سكرتيرا للسفارة الأسبانية فى باريس ، وقتما بالأعمال فيها . . وقد كنت مرتبطا معه بروابط من الود ، تماثل تلك التى كانت بين سفيرينا !

ولقد كنت خليقا بأن أغدو سعيدا ، لو أئنى عرفت — إذ رحلت أفعل كل ما وسعنى من خير ، فى أتم تجرد من المصلحة

الذاتية — كيف ادخل قدرا كافيا من النظام والانتباه على كل هذه المسائل الدقيقة ، حتى لا اغدو مستغفلا ، فأخدم الغير على حساب مصالحى ! .. ولكن اتفه الأخطاء فى منصب — كذاك الذى كنت اشغله — لا تهر دون تبعات ، ومن ثم فقد كنت استنزف كل انتباهى فى الجهد لتفادى أية أخطاء مضادة لعملى .



ولقد كنت — فى كل ما يتعلق بواجبى الرئيسى منظما إلى أقصى درجات النظام ، ودقيقا إلى أقصى درجات الدقة . وفيها عدا بضعة أخطاء اضطررتى التعجل المفرط إلى ارتكابها فى صوغ الشفرة — وقد اشتكى منها معاونو السبىد اميلو ذات مرة — لم يأخذ على السفر ، أو أى امرئ سواه ، اهمالا فى أداء أى واجب من واجباتى ، وهو أمر كان جديرا بالملاحظة بالنسبة لرجل شديد الإهمال وشديد التهور مثلئ . . بيد أننى كنت اغفل واهمل فى تصرفى فى المسائل الخاصة التى كنت أخذها على عاتقى — أحيانا — فكان حب الانصاف يجعلنى اتحمل دائما اللوم من تلقاء نفسى ، قبل أن يفكر أى امرئ فى أن يشكو منه ! .. ولن أنكر — فى هذا المجال — سوى حادث واحد ، كان له أثر فى رحيلى عن البنديقية ، وقدر لى أن اشعر بأثاره — بعد ذلك — فى باريس !

ذلك أن طاهينا — وكان يدعى « روسيلو » — احضر من فرنسا سفدا قديما بمائتى فرنك ، كان أحد صناع الشعر المستعار — من أصحقاؤه — قد تسلمه من نبيل بنديقى يدعى « جانتيتو نائى » ، فى مقابل ثلثينسوات من الشعر المستعار .

وأحضر لى « روسيلو » هذا السند ، ورجائى أن أحاول عمل
 أى شىء بصدده ، بالإجراءات السليمة . وكنت أعرف — كما
 كان يعرف هو الآخر — أن العادة التى كانت متبعة لدى نبلاء
 البندقية ، هى ألا يدفعوا قط أية ديون تحملوها فى الخارج ،
 ما داموا قد عادوا إلى وطنهم . فإذا بذل أى سعى لقصرهم على
 الدفع ، أرهقوا الدائن التعس بالارجاء الطويل المتكرر ،
 وبالنفقات ، حتى تثبط عزيمته ، ولا يلبث أن يعدل — فى
 النهاية — عن المطالبة ، أو يقبل أية تسوية ضئيلة ! . ورجوت
 السيد لوبلون أن يتحدث إلى « جانيتو » فاعترف هذا بالورقة ،
 ولكنه أبى أن يدفع قيمتها . وبعد كفاح طويل ، وعده بأن يدفع
 ثلاثة « سيكانات » . فلما حمل إليه لوبلون السند ، لم تكن
 السيكانات الثلاثة حاضرة ، فلم يكن ثمة بد من الانتظار . . وفى
 خلال هذه المهلة ، دب الخلاف بينى وبين السفير ، فخرجت
 من خدمته . وقد تركت أوراق السفارة فى أتم نظام ، ولكن
 سند « روسيلو » لم يوجد بينها قط . وأكد لى السيد لوبلون
 أنه كان قد رده إلى ، وكنت أعرف أنه من النبل بحيث لا يرقى
 إليه الشك ، ولكننى عجزت عن تذكر ما جرى لهذا السند .
 ولما كان جانيتو قد أقر بالدين ، فقد رجوت السيد لوبلون أن
 يحاول الحصول منه على السيكانات الثلاثة فى مقابل إيصال ،
 أو أن يستدرجه إلى تجديد السند بنسخة أخرى منه ، ولكن
 « جانيتو » رفض الأمرين ، إذ علم بضيايع السند . . فعرضت
 على روسيلو السيكانات الثلاثة — من جيبي الخاص — كسداد
 للسند ، ولكنه أبى أن يأخذها ، وأخبرنى بأن أسوى الأمر مع
 الدائن الباريسى ، الذى أعطانى عنوانه . ولكن صانع الشعر

المستعار ، طالب بسفده أو بدينه كاملا ، إذ علم بما حدث .
 لها الذى كنت أضن به — فى سورة غيظى — فى مقابل العنور
 على هذا السند اللعين ؟! . . . ودفعت المائتى فرنك من مالى ،
 فى وقت كنت فيه فى أشد الضيق المالى . وهكذا كان ضياع
 الوثيقة سببا فى حصول الدائن على دينه كاملا ، فى حين أنه لو
 كان قد تسنى — لسوء حظه — العثور على السند ، لوجد عفاء
 فى انتزاع العشرة « ايكو » (١) الموعودة من صاحب السعادة
 جانيقو ناننى !

ولقد جعلتنى المقدره — التى استشعرتها فى نفسى — على
 أداء عملى ، مغفما بالميل إليه . . وفيها عدا صحبتى لصاديقى
 « كاريو » ، وللفاضل « القونا » — الذى لن البت أن اتحدث
 عنه — وفيها عدا بعض الوان الترويح البريئة — التى تمثلت فى
 التردد على ساحة سان مارك وعلى المسرح — وبعض زيارات
 كنا نقوم بها سويا فى اغلب الأحيان . . فيها عدا ذلك ، كانت
 واجباتى هى الأسباب الوحيدة للتسلية والمتعة . ومع أن
 عملى لم يكن شاقا أكثر مما ينبغى ، لا سيما ازاء العون الذى
 كنت ألقاه من الراهب دى « بينى » ، إلا أن مراسلاتنا كانت
 كثيرة جدا ، كما أننا فى فترة حرب ، ومن ثم فلم تكن تعوزنى
 الشواغل ، بل كنت أفضى شطرا كبيرا من النهار فى العمل
 — فى كافة الأيام — كما أننى كنت أعمل ، فى أيام البريد ، إلى
 منتصف الليل أحيانا . وكنت أكرس بقية الوقت لدراسة المهنة
 التى شرعت فى ممارستها ، والتى كنت — على ضوء البداية

(١) العشرة ايكو تعادل فى قيمتها السيكانات الثلاثة .

الناجحة — اعول كثيرا على ان ابلغ فيها منصبا طيبا فيما بعد . . والواقع انه لم تكن ثمة سوى فكرة واحدة عنى لدى الجميع ، ابتداء من السفير الذى كان راضيا عن خدمتى رضاء تاما : فلم يشك منها قط . . وما جاء كل الغضب — الذى فارغما بعد — إلا عن اننى حين الفيت شكاياتى لا تلقى اذنا سامعة ، طلبت إعفائى من العمل . وكان كل سفراء الملك ووزرائه — الذين كنا على تراسل معهم — يهنتونه على كفاءة سكرتيره ، وهو ما كان يجب أن يثير اعتزازه ، ولكنه أحدث اثرا عكسيا فى رأسه السيء التفكير . وكانت بين هذه التهانى، واحدة بالذات ، تلقاها فى ظرف حرج ، فلم يغتورها لى قط . وهى جديرة بأن أتكد عفاء فرحها .

وذلك أنه كان قليل المقدرة على مقاومة ما يضايقه ، حتى أنه فى يوم السبت ذاته — وهو يوم ارسال كل الرسائل تقريبا — لم يكن ليقوى على الصبر عن الخروج ريثما ينتهى العمل ، وإنما كان يستحبنى باستمرار متعجلا رسائل الملك والوزراء ، ليوقعها فى عجلة ، ثم يهرع إلى حيث لم أكن أدري ، تاركا معظم الرسائل الأخرى بدون توقيع ، مما كان يضطرنى — عندما لا تكون هناك سوى أخبار عادية — إلى أن أصوغها فى قالب نشرات الأخبار . . أما حين تكون هناك مسائل متعلقة بخدمة الملك ، فقد كانت الضرورة تدعو إلى توقيع الرسائل ، فكنيت أتولى توقيعها بنفسى . وقد فعلت ذلك بصدد رسالة هامة كنا قد تسلمناها من السيد « فانسان » ، الغنائم بأعمال الملك فى (فينا) . وكان ذلك فى الوقت الذى سار فيه الأمير لوكوفيتش، زاحفا على (نابولى) ، والذى قام فيه الكونت دى جاب

بتقهقره الذى لا ينسى ، والذى كان أروع عمل عسكري فى القرن كله ، وكان حديث أوربا . وكان النبأ الذى بلغنا ، هو أن رجلا — أرسل إلينا السيد فانسلان أوصافه — كان قد غادر (فيينا) ، معتزما المرور بالبندقية ، قاصدا — متخفيا — إلى (ابروتسى) ليعمل على إثارة الناس عند اقتراب التمسويين . ونظرا لغياب السيد دى مونتيجى — الذى لم يكن ليهتم بشئ — فأننى أرسلت إلى السيد المركز « ديلوبيتال » هذا النبأ الذى كان فى وقته المناسب ، حتى ليحتمل أن يكون آل « بوربون » مدينين إلى جان جاك المغبون بفضل الإبقاء على مملكة نابولى !

وإذ شكر المركز ديلوبيتال زميله — كما كان ينبغى — امتدح له سكرتيره (١) والخدمات التى أداها للقضية المشتركة فإذا الكونت دى مونتيجى — الذى كان جديرا بأن يلوم نفسه على إهماله فى هذه المسألة — يخال أنه يلوح لوما خلال هذه الدهشة ، فحدثنى عنها فى استياء . وكنت قد أقدمت على أن أفعل مع الكونت دى كاستيلان — السفير الفرنسى فى القسطنطينية — ما فعلته مع المركز ديلوبيتال ، وإن كان النبأ أقل أهمية . وإذا لم تكن ثمة وسيلة لإرسال البريد إلى القسطنطينية سوى الرسل الذين اعتاد مجلس الشيوخ أن يوفدهم من آن إلى آخر إلى « بايله » (٢) ، فقد كان السفير

(١) أى « جان جاك روسو » نفسه .

(٢) « البايلى » : لقب سفير البندقية فى القسطنطينية .

الفرنسى ينبأ بمواعيد رحيل هؤلاء الرسل ، ليتمكن من الكتابة إلى زميله إذا رأى داعياً لذلك . وكان هذا الاخطار يصدر قبل الرحيل بيوم أو اثنين ، ولكن السيد دى مونتيجى لم يكن يلقى اعتباراً كافياً ، ومن ثم فقد كانوا يكتفون باخطاره قبل رحيل البريد بساعة أو اثنين ، لمجرد مراعاة الشكليات ! .. وكان هذا يضطرنى — فى كثير من المرات — إلى أن أعد الرسالة فى غيباب السفر . وكان السيد دى كاستيلان يذكرنى — فى رده — بعبارة التكريم ، وكذلك كان السيد دى جونففى — فى جنوا — يفعل ، فكان كل تعبير عن حسن رأيهما فى شخصى ، سبباً لخلافات جديدة ..



وأعترف بأننى لم أحاول أن اتحاشى فرصة التعريف بنفسى ولكننى لم أكن أسمى إلى ذلك فى غير المناسبات اللائقة . وكان يبدو لى أن الانصاف يبيح لى — إذ أحسن الخدمة — أن أطمع فى الجزاء الطبيعى للخدمات الطيبة ، ألا وهو التقدير من أولئك الذين كانوا يملكون تقديرها ومنح الجزاء عنها . ولست أملك أن أقول ما إذا كانت حقى فى أداء مهامى كانت — فى نظر السفر — سبباً مشروعاً للشكوى والاحتجاج ، ولكن الذى أملك أن أقوله هو أن هذه الشكوى كانت هى الشكوى الوحيدة التى اعتاد أن يردها إلى يوم فراقتنا !

وكانت داره — التى لم يكن يحسن إدارتها اطلاقاً — مليئة بالسفلة : كان الفرنسيون يلقون هناك أسوأ معاملة ، بينما كانت للإيطاليين المكاة العليا .. وحتى فيها بين هؤلاء ، كان

المستخدمون الصالحون الذين الحقوا منذ وقت طويل بخدمة السفارة ، يطردون في غير ما إصناف ، وكان من هؤلاء المستشار الاول للسفير ، الذى شغل المركز نفسه في عهد سلفه الكونت دى نرولاي ، والذى كان يدعى — على ما اعتقد — الكونت « بياتى » ، أو ما يقرب من هذا الاسم . . أما المستشار الثانى — وكان السيد دى مونتيجى هو الذى اختاره بنفسه — فكان شقيا من (مانتوى) ، يدعى « دومينيك فيتالى » ، وقد عهد إليه السفير بشئون داره ، فاستطاع بالتعلق وبالشح الخسيس أن يكتسب ثقته ويفسد أثرا له ، مما اضر بمن كان قد ظل بالدار من امناء قلائل ، وبالسكرتير الذى كان على راسهم . . وعين الرجل الشريف امينه ، تثر دائما قلق اللثام . وقد كان هذا وحده كافيا لأن يجعل هذا الرجل يكرهنى ، ببذ أن كراهيته كانت ترجع — كذلك — إلى سبب آخر ضاعف منها إلى حد كبير . ولا بد لى من أن أبدى هذا السبب ، ولكم أن تدينونى إذا كنت مخطئا !

ذلك انه كان للسفير — وفقا لتقليد راسخ منذ امد طويل — مقصورة في كل من المسارح الخمسة . وكان يعين — على مائدة الغداء ، في كل يوم — المسرح الذى يعتزم الذهاب إليه ، فكننت انا الذى يليه في الاختيار، على أن ياخذ المستشارون المقصورات الاخرى . وكننت آخذ — عند انصرافى — مفتاح المقصورة التى

اخترتها . ففى ذات يوم ، لم يكن فيتالى — الذى كان يحتفظ بالمفاتيح — موجودا ، فعهدت إلى ساع كان فى خدمتى ، بأن يحضر لى مفتاحى فى دار عينتها له . ولكن فيتالى لم يرسل المفتاح ، بل قال إنه قد تصرف فى شأنه . ومما زاد من غيظى ، أن السامى أدلى بهذا النبأ أمام الملاء . فلما كان المساء ، حاول فيتالى أن يتقدم بوضع كلمات يعتذر بها ، ولكننى لم أنصت إليه ، بل قلت له : « تعال غدا أيها السيد ، فقلها فى نفس الساعة ، وفى نفس الدار التى تلقيت أنا الإهانة فيها ، وأمام الناس الذين شهدوها . . والا ، فسوف أطلب بعد غد — ومهما يكن ما يحدث — بأن يغادر أحدنا هذه السفارة ! » . وأفحمته لهجتى الحاسمة ، فجاء إلى الدار فى الساعة المحددة ، واعتذر علانية ، فى صفار يليق به ولكنه راح يرسم خطته على مهل . وبينما كان يبدى لى احتراما بالغا ، راح يعمل على شاكلة الإيطاليين (١) ومع أنه لم يستطع أن يحمل السفير على فصلى ، إلا أنه اضطررنى إلى أن أستقيل من تلقاء نفسى !

ومن المحقق أن مثل هذا الوغد لم يكن أهلا لأن يعرفنى ، ولكنه عرف عنى ما كان يخدم أغراضه . . عرف أننى كنت من الطيبة واللين بحيث أحتمل المظالم غير المقصودة ، وأننى من الكبرياء بحيث لا أحتمل الإهانات المتعمدة ، وأننى أحب

(١) يقصد الدس فى الخفاء ، والنبيمة وما اليهما من أساليب .

التواضع والوقار في المناسبات الملائمة ، واننى لم اكن اقل حرصا على ما ينبغي لى من تكريم ، منى على اداء ما هو واجب على منه للغير . . وهذا ما استغله ووفق بفضلته إلى مضايقتى . فقد قلب السفارة رأسا على عقب ، وازال منها ما كنت قد بذلته لصون الأصول ، وترتيب المراكز ، والدقة ، والنظام . والبيت إذا خلا من امرأة ، احتاج إلى قواعد للنظام أقسى بقليل مما يحتاج إليه سواء ، في سبيل التمكين للاحتشام من أن يسوده مقترنا بالكرامة والوقار . اما هذا الرجل ، فانه سرعان ما جعل من دارنا مباءة للخلاعة والفجور ، ووكرا للانذال والفاسقين . وخلع منصب المستشار الثانى (١) على قواد (٢) مثله ، كان يمتلك دارا للدعارة (٣) في (كروا دى مالت) — صليب مالطة — فكان هذان اللثيمان في وئام تام ، وعلى وقاحة تعادل فجورهما ! . فلم يعد في الدار ركن واحد يليق برجل شريف ، فيها عدا غرفة السفير وحدها . . بل إن هذه أيضا لم تكن كما ينبغي !

ولما كان صاحب السعادة قد اعتاد الا يتناول عشاء قط ، فقد كانت تهد لنا — المستشارين وأنا — مائدة خاصة في المساء ،

(١) اد انه خلك الكونت بياتى في منصب الامين الاول .

(٢) في الاصل الفرنسى . . . Maq

qui tenait b . . . public (٣)

يجلس إليها الراهب دى بينى والسعاة كذلك . وكان المرء حريا بأن يلتقى فى أحقر الحانات خدمة أكرم ، وادوات للمائدة انظف ، وطعاما أحسن مما كان يقدم إلينا إذ ذاك ! .. فما كنا لنحظى بغير شمعة واحدة صغيرة سوداء ، ومصحف من التصدير ، وشوكات من الحديد . ولقد كنت خليقا بأن اتحمل ما كان يدور فى السر ، لولا أنني حرمت من جندولى ، فأصبحت الوحيد — بين سكرتيرى السفراء — الذى يضطر إلى أن يستأجر جندولا أو أن يسير على قدميه . ولم يكن يرافقنى — إذا ما أومدت إلى مجلس الشيوخ — سوى خديم صاحب السعادة السفير (١) . وإلى جانب هذا ، كان كل ما يحدث فى السفارة لا يخفى على أهل المدينة ، فقد كان كل موظفى السفير يرفعون عقائرهم بتلك الأنباء . وكان « دومينيك » — السبب الأوحد فى كل هذا — هو أكثرهم إمعانا فى رفع صوته ! .. فقد كان يعلم أن المعاملة غير الكريمة التى كنا نلقاها ، إنما كانت تمسنى أكثر مما تمس سواى . وكنت الوحيد — من موظفى الدار — الذى يتورع عن الكلام خارجها ، ولكننى كنت أرفع صوتى بالشكوى للسفير .. لا مما كان يجرى فحسب ، بل منه هو نفسه كذلك إذ كان — بفضل التحريض الخفى من

(١) كان المألوف أن يرافق سكرتير السفارة إذا ما أوفد نائبا عن السفير ،

مستشاره الخبيث — يوجه إلى في كل يوم إهانة جديدة .
ولما كنت مضطرا إلى الاتفاق عن سعة لكى أظهر في مستوى
اقترائى ، وفي مظهر يليق بمنصبى ، فأتيتى لم استطع أن أدخر
« سو » واحدا من مخصصاتى ، وكنت إذا ما طلبت من السفير
نقودا ، راح يحدثنى عن تقديره وثقته ، وكان هذا كاف لأن
يملا جيبى ولأن يمدنى بكل حاجاتى !

***.

وانتهى هذان الشقيان (١) إلى أن عبثا برأس سيدهما
الذى لم يكن سليم التفكير أصلا ، فقاده إلى الإفلاس عن طريق
استدراجه باستمرار إلى شراء سلع زائفة كانوا يقنعانه بانها
تحف أثرية . كما حملاه على أن يستأجر قصرا — فى (بريتنا) —
بأجر يعادل ضعف قيمته ، واقتسما الفرق مع المالك . وكانت
الغرف مبطنة بالقيشانى ، ومزدانة بأعمدة وأركان من أجمل
أنواع الرخام ، وفقا للطراز الذى كان شائعا فى البلاد . ولقد
عمد السيد دى مونتيجى إلى تغطية كل هذه الزخارف ، بالواح
من خشب الصنوبر ، متعللا بحجة عجيبة ، هى أن هذا هو
الذى كان متبعها فى الدور الباريسية ! .. ولحجة أخرى كهذه ،
كان هو السفير الوحيد — فى البندقية — الذى جرد سعاة
سفارته من السيوف ، وخدمه الخصوصيين من العصي ..

(١) المستشاران الإيطاليان .

هكذا كان الرجل الذى راح يكرهنى ، لجرد اننى كنت اخذمه بامانة . ولعله كان صادرا فى ذلك عن تفكير مشابه لنفس التفكير الذى حمله على التصرفات السالفة الذكر !

ولقد كنت احتمل صابرا تصرفاته المهينة ، وقسوته ، وسوء معاملته ، طالما ظللت اراها صادرة عن الطباع التى جبل عليها ، دون ان احسبها صادرة عن كراهية . ولكنى لم اكـد اتبين ان الخطة كانت مرسومة لحرمانى من الاعتبار الذى كنت استحققه بفضل خدماتى الصائقة ، حتى عقدت العزم على ان استقيل من منصبى . وكان اول دليل تلقيته على سوء نيته ، هو ذاك الذى حدث بمناسبة مائدة كان عليه ان يقيمها للسيد الدوق دى مودينى واسرته ، عندما حلوا بالبنطقة . فقد انبأنى بأنه لن يكون لى محل فى تلك المائدة . فاجبته مستاء — ولكن فى غير غضب — باننى قد اعتدت ان احظى بشرف تناول الغداء على مائدة السفر يوميا ، فاذا ابدى السيد الدوق دى مودينى — عند مجيئه — اننى يجب ان اغيب عن المائدة ، فمن اللائق بكرامة صاحب السعادة (السفر) ، ومن الواجب على ، الا انصاع لهذه الرغبة . فقال فى حدة : « ماذا ؟! .. ايطالب سكرتيرى — وهو لم يبلغ مرتبة المستشار — ان يتناول الغداء مع عاهل ، فى حين ان مستشارى لن يحضرا المائدة ؟! » . فاجبت : « اجل ياسيدى ، فان المنصب الذى شرفتنى سعادتك به ، يرفع مقامى — طالما كنت اشغله —

إلى درجة تجعل لى الاولوية حتى على مستشاريك ، او اولئك الذين يقال عنهم انهم مستشاروك ، ومن ثم فان لى حق الحضور فى مناسبات ليس لهم ان يحضروها . وانت لا تجهل ان التقاليد الرسمية ، والعرف المتبع من زمن ابعد من ان يذكر ، تحتم على — فى اليوم الذى تحضر فيه التشريعات الرسمية — ان اتيك فى ثياب التشريفة ، وان احظى بحضور مآدب قصر « سان مارك » معك . ولست أدري كيف لا يجوز للشخص الذى يجلس فى مائدة عامة مع « الدوج » (١) ومجلس شيوخ البندقية ، ان يجلس مع السيد الدوق دى مودينى بالذات ، إلى مائدة واحدة؟! . ومع ان حجتى كانت فوق كل رد ، إلا ان السفير لم يسلم بها . غير اننا لم نجد فرصة لتجديد النزاع . إذ ان السيد الدوق دى مودينى لم يأت للغداء على مائدته قط !



ومنذ ذلك الحين لم يكف السفير عن مضايقتى ، وعن امتهان حقوقى ، مغتصبا الامتيازات البسيطة التى تتعلق بمنصبى ، فكان يجردنى منها ليخلعها على عزيزه فيتالى . وانى لو اتق من انه لو استطاع ان يجرؤ على إيفاده — بدلا منى — إلى مجلس الشيوخ ، لفعل . وكان يستخدم الراهب دى بينى عادة ، لكتابة خطاباته الخاصة فى حجرة مكتبه ، فعهد

(١) لقب كان يطلق على رئيس الدولة فى البندقية .

إليه بأن يكتب إلى السيد دى موريا تقريراً عن مسألة الريان اوليفيه ، لم يفكرنى فيه البتة ، مع اننى كنت الوحيد الذى تدخل فى المسألة . . بل انه انكر على شرف التحقيق الرسمى الذى قمت به - والذى ارسل إلى السيد دى موريا نسخة منه - وعزاه إلى باتيزيل ، الذى لم ينبس ببنت شفة . فلقد اراد أن يغيظنى وأن يرضى صاحب الحظوة لديه ، دون أن يستغنى عنى برغم ذلك ، إذ شعر بأنه لم يكن ليعثر على خليفة لى ، بنفس السهولة التى عثر بها على خليفة للسيد دى فولو - سلفى - الذى كان قد اشاع فى الخارج فكرة صحيحة عنه ! . . ولم يكن له غنى عن سكرتير يعرف اللغة الإيطالية، نظراً لمراسلاته مع مجلس الشيوخ . . لم يكن فى غنى عن سكرتير قادر على أن يكتب كل رسائله ، ويدير كل اموره ، دون تدخل منه . . سكرتير يجمع بين المقدرة على أن يخدمه بامانة ، والهوان الذى يجعله يروق للسيدىين المستشارين المحللين ! . . ومن ثم فقد اراد أن يستبقينى وأن يكبدنى فى آن واحد ، بأن يمسكنى بعيداً عن وطنى وعن وطنه ، دون ما نقود تمكّننى من العودة . ولعله كان جديراً بأن ينجح لو انه سعى إلى ذلك بمزيد من الحكمة . ولكن فيقالى كان يرى آراء أخرى ، وكان يبغى حملى على الرحيل ، وقد وفق فى غايته . لها أن تبين أنى كنت أبعد جهودى ، وأن السفسر كان ينظر إلى خدماتى وكأنها جرائم ، بدلاً من أن يحمدها لى . .

واننى لم يعد لى أن اطعم - طالما ظللت معه - فى غير المضايقات فى الداخل ، وعدم الانصاف فى الخارج . . وان الأذى الذى كان يحاول أن يلحقه بى قد يفوق فى الضرر ما قد أكسبه من رضائه إذا أنا بقيت فى خدمته ، نظرا لما كان قد اجتلبه على نفسه من سخط عام . . ما أن تبينت كل هذا ، حتى قررت أن استأفنه فى أن يعينى من العمل ، مفسحا له الوقت كى يحصل لنفسه على سكرتير . على أنه ظل سادرا فى مسلكه ، دون أن يجيب بنعم أو لا . فلما رأيت أن الأمور لم تتحسن ، وأنه لم يتجه إلى البحث عن سكرتير آخر ، كتبت إلى أخيه ، مفصلا كافة البواعث ، راجيا إياه أن يحمل أخاه على تسريحى ، مضيفا إلى ذلك أننى لن أمكث فى منصبى على أية حال ! . . وانتظرت طويلا ، دون أن ألقى جوابا . وكنت قد بدأت أشعر بحيرة بالغة ، عندما تسلم السفير - أخيرا - رسالة من أخيه . ولا بد أنها كانت شديدة اللهجة ، إذ أننى لم أره - برغم أنه كان عرضة لأعنف نوبات الغضب - فى مثل الهياج الذى رأيته فيه إذ ذاك . ويعد سيل من المسباب المقذع ، لم يعد يدرى ما يقول ، فاتهمنى بأننى بعث أسرار الشفرة . وأخذت أضحك ، ثم سألته فى لهجة ساخرة عما إذا كان يظن أن فى البندقية بأسرها مغفلا واحدا يرضى بأن يدفع « ايكو » واحدا من أجلها . وجعله هذا الجواب يستشيط حنقا ، فهم بأن يدعو إتياعه لكى يلتقوا بى من النافذة ، كما قال . وكنت حتى تلك اللحظة محتفظا بهدوئى ،

ولكنى إزاء هذا التهديد - وجدت أن الغضب والعزة قد تملكاني بدورى ، فاندفعت إلى الباب ، وبعد أن دفعت المزلاج الذى يوصده من الداخل ، عدت إليه وقتلت فى لهجة رهيبية : « لا يا سيدى الكونت ، لن يتدخل أتباعك فى هذه المسألة ، فتكرم بتسويتها فيما بيننا ! » . وهذا تصرفى ومظهرى من سوريته فى الحال ، وتجلت الدهشة والروع على أساريره . فلما رأيته قد تخلص من هياجه ، ودعته بكلمات موجزة ، ثم ذهبت - دون أن انتظر منه جوابا - ففتحت الباب ، وخرجت ، فاجتزت الحجرة الملحقة بمكتبه فى ثبات ، وسط أتباعه الذين نهضوا كعادتهم ، والذين اعتقد أنهم كانوا أكثر استعدادا لمناصرتى منهم لمناصرته . وبدون أن أعود إلى غرفتى ، هبطت السلم ، وغادرت القصر ، قلم ألجه بعد ذلك قط !



وذهبت لفورى إلى السيد لوبلون ، لاتبئنه بما حدث ، فلم يبد دهشه كثيرة ، إذ كان يعرف الرجل ، وإنما استبقانى للغداء . وكان هذا الغداء - برغم التعجل فى إعداده - بهيجا ، وقد حضره كل الفرنسيين ذوى المكانة ، الذين كانوا فى البندقية . ولم يكن بينهم فرد واحد فى صف السفير ، فقد روى القنصل حكايته على الجماعة ، وما أن الموا بها حتى صاحوا جميعا فى وقت واحد ، ولكن فى غير صالح صاحب السعادة . ولم يكن هذا قد سوى حسابى ، ولا أعطانى « سو » واحدا . ولما كانت كل مواردى لا تتجاوز بضع قطع من فئة « اللوى » ، فقد وجدتني

في حيرة من أمر سفرى . وإذا بكل الجيوب تنفتح لى ، فأخذت
عشرين « سيكان » من السيد لوبلون ، ومظها من السيد
دى سان سير ، الذى كنت وثيق الصلة به ، وكان بلى القنصل
فى المكانة من قلبى . ثم شكرت الباقيين ، وبقيت — إلى أن قدر
لى الرحيل — مقيما لدى رئيس ديوان القنصلية ، لكى أثبت
للراى العام أن الأمة لم تكن مشتركة فى مظالم السفر . ولقد
أهاج هذا أن رأتى موضع تكريم فى محنتى ، بينما كان هو
— برغم مركزه كسفير — منبوذا ، ففقد حجاه تماها ، وأخذ
يتصرف كالمخبول . وبلغ من غفلته أن قدم إلى مجلس الشيوخ
مذكرة لاعتقالى . فلما أنبأنى بذلك الراهب دى بينى ، قررت
أن أبقى أسبوعين آخرين، بدلا من أن أبادر إلى الرحيل فى اليوم
التالى ، كما كنت أعترم . وقد درس تصرفى فلتى أقرارا ، كما
غدوت موضع تقدير عام . ولم تتنازل الرئاسة حتى بالرد على
مذكرة السفير الرعناء ، كما أنبأتنى — عن طريق القنصل — بأن
لى أن أبقى فى البندقية ما شئت ، دون أن أزعج نفسى بتصرفات
رجل أحق ! . ومن ثم واصلت زياراتى لأصدقائى ، وذهبت
لأودع السفير الأسبائى — الذى أحسن استقبالى — والكونت
دى مينوكييتى ، وزير نابلى ، الذى لم أجده فكتبت إليه وإذا
به يرد بخطاب من الطف الخطابات . وما لبثت أن رحلت — فى
النهاية — غير مخلف ورائى أية ديون ، برغم ضائقتى ، سوى
القرضين اللذين ذكرتهما من قبل ، وسوى خمسين « ايكو »
كنت محينا بها لتاجر يدعى « موراندى » ، وقد تكفل « كاريو »
بدفعها إليه ، وإن لم أردّها إليه قط ، بالرغم من أننا تقابلنا

كثيرا بعد ذلك الحين . أما القرضان اللذان تحدثت عنهما ، فقد سددهما كاملين بمجرد أن تيسر لى ذلك .

* * *

ولا يجوز أن نترك البندقية دون كلمة عن ملاهى هذه المدينة الشهيرة ، أو — على الأقل — من القسط الضئيل منها ، الذى قدر لى أن أنعم به أثناء مقامى هناك . ولقد رويت كيف أننى — فى شبابى — كنت مقلا فى السعى إلى ملذات هذه المرحلة من السن ، أو — على الأقل — المتع التى توصف بأنها ملذات . ولم أغير من مسلكى هذا فى البندقية ، ولكن مشاغلى — التى كانت كثيلة بأن تمنعنى من أى تغير — جعلت اسباب التسلية البسيطة ، التى كنت أستبجحها ، أكثر امتاعا . وكانت أولى هذه الأسباب والطفها هى مصاحبة الاكفاء من الناس : السادة لوبلون ، ودى سان سير ، وكاريو ، والتونا ، وسيد فورلان^(١) نسيت — لشدة اسفى — اسمه ، ولكنى لا أستطيع أن أنكر لطفه دون أن تتأثر نفسى . ولقد أوتى — دون كل من عرفت من الرجال — أقرب القلوب شبيها بقلبى . ولقد ارتبطنا كذلك باثنين أو ثلاثة من الإنجليز ، واسعى الفكاه والمعرفة ، مشغوفين مثلنا بالموسيقى . وكانت لهؤلاء السادة جميعا زوجات ، أو صديقات ، أو عشيقات . وكن جميعا — تقريبا — نساء موهوبات ، تعزف الموسيقى ويدور الرقص فى بيوتهن . وكان

(١) الفورلان اسم يطلق على أبناء منطقة (لويول) ، التى يقع جزء منها الآن — فى النمسا ، وجزء آخر فى ايطاليا . وهناك رقصة باسم « لورلان » .

لعب الميسر يدور هناك أيضا ، ولكن في القليل النادر ، إذ أن ميولنا النزاجة ، ومواهبنا ، وشغفنا بالمسرح ، جعلت هذه التسلية — الميسر — عقيمة ، فالمقامرة ليست تسلية إلا لأولئك الذين يستبد بهم الضجر ! .. وكنت قد حملت معى من باريس ، التحامل الذى خلقه الشعور القومى ضد الموسيقى الإيطالية ، ولكنى كنت قد أوتيت من الطبيعة ذلك الإدراك المرفه الذى لا يمكن لمثل هذا التحامل أن يصمد أمامه . فسرعان ما سرى إلى نفسى ذلك الشغف الذى توحيه الموسيقى الإيطالية إلى أولئك الذين يملكون القدرة على الحكم الصحيح بصدها . وإذا سمعت « الباركارول » (١) تبينت أننى لم أسمع قبل ذلك غناء .. وسرعان ما أولعت بالأوبرا ولعا جنونيا ، حتى أننى كنت حين أضيق بالثرثرة والاكل واللعب فى المقصورات — فى الوقت الذى لم أكن أهو فيه إلا إلى الانصات — أتسلل فى كثير من الأحيان من رفاتى ، لأذهب إلى ناحية أخرى من الدار . وهناك كنت أجلس وحيدا فى مقصورة مغلقة ، وأسلم نفسى للذة الاستمتاع بالأداء ، برغم طوله ، دون أن يزعجنى شيء ، حتى نهاية السهرة . وفى ذات يوم ، استسلمت للنوم — فى مسرح سان كريزوستوم — فاستغرقت فيه بدرجة لم أنعم بها قط فى فراشى ، ولم تقو الألحان الصاخبة ، الرائعة ، على إيقاظى ، ولكن .. من لى بمن يصف الشعور العذب الذى أحدثه فى نفسى النغم الناعم والغناء الملائكى اللذان أيقظانى ! .. وأية بقطة ، وإى

(١) اغانى نوتية الجندول .

استغراق ، واية نشوة تلك التى استشعرتها حين فتحت اذنى وعينى فى آن واحد ! .. كانت اول فكرة وابتنى هى اننى كنت فى الفردوس ! .. كانت تلك المقطوعة الرائعة ، التى لا ازال اذكرها ، والتى لن انسها ما حييت ، تبدا هكذا :

« استحوذت على الجميلة .. التى اثارَت أعماقى » (١) .

ورغبت فى ان احصل على لحن هذه القطعة ، وقد ظفرت به ، واحتفظت به زمنا طويلا ، ولكنه لم يكن على الورق فى روعته التى كان بها فى ذاكرتى .. كانت الانغام واحدة ، ومع ذلك فإن اللحن لم يكن واحدا .. لم يكن من سبيل إلى أداء اللحن بالروعة السماوية التى كان يتردد بها فى راسى ، والتى كان يؤدى بها فى الواقع عندما ايقظنى !

اما الموسيقى التى تعتبر في رأى - أسبى من موسيقى الأوبرا ، والتى لا مثيل لها فى إيطاليا أو فى بقية العالم ، فهى موسيقى « الاسكوله » .. و « الاسكوله » بيوت خيرية انشئت لتعليم الفتيات الصغيرات اللاتى لا موارد لهن ، واللاتى تعدهن الجمهورية بعد ذلك ، إما للزواج ، وإما للالتحاق بالاديرة . وللموسيقى المكائة الاولى بين المواهب التى تنمى فى هؤلاء الفتيات الصغيرات . ففى يوم الاحد من كل اسبوع ، وفى كنيسة كل من هذه « الاسكولات » الاربع ، تؤدى خلال قداسات الغروب مقطوعات (١) يشترك فيها عدد كبير من المنشدات وعدد كبير من العازفات ، ويقوم بتأليفها وتلحينها وإدارة أدائها اكبر

الموسيقين الإيطاليين .. وهى تؤدى فى المقصورات ذات الحواجز المصنوعة من الخشب المتشابك (المعشق كجدران المناير) . ويقتصر أداؤها على الفتيات اللاتى لا تبلغ اكبر واحدة منهن العشرين من عمرها .. وليس بوسعى أن أتصور شيئا الذى وأعذب وأكثر تأثيرا فى النفس من هذه الموسيقى . فلن نسامة الفن ، وعذوبة الغناء ، وجمال الأصوات ودقة الاداء .. كل ما فى هذه الحفلات الموسيقية البهيجة ، يساهم فى خلق انطباع لا ينسب قطعاً إلى « جودة الأسلوب » ، ولكنى أرتاب فى أن ثمة قلباً بشرياً فى مناعة منه ! .. ولم يتخل كارىو وإيلى قط عن حضور هذه القداسات فى كنيسة « المنيكتانى » ، ولم تكن الوحيدتين فى ذلك ، فقد كانت الكنيسة دائماً تفس بالهواة .. بل أن ممثلى الأوبرا أنفسهم كانوا يذهبون لينموا نوتهم الغنائى مسترشدين بهذه النماذج الرائعة . وكان الشيء الذى يدفعنى إلى القنوط ، يتمثل فى تلك الجدران الخشبية اللعينة ، التى لم تكن تسمح بمرور شيء سوى الأصوات ، والتى كانت تحجب عنى الملائكة اللاتى قد أوتين — ولابد — جمالاً يليق بهذه الأصوات ! .. ولم يكن لى من حديث إلا عن هذا الموضوع ، وقد تحدثت فيه يوماً ، فى دار السيد لوبلون ، فقال : « إذا كنت شديد الشوق إلى أن ترى هؤلاء الفتيات الصغيرات ، فمن

(١) المقطوعات المقصودة « Motets » وهى مقطوعات موسيقية غنائية

دينية ، تنظم من التعاليم اللاتينية الخاصة بالطقوس الدينية .

السهل إرضاء شوقك . فإنتنى من المشرنين على المؤسسة ،
وكم أود أن أدموك إلى وجبة خفيفة (١) معهن ! » .

ولم اتركه يرتاح حتى بر بوعده . وإذ دخلت القاعة التى
ضمت هؤلاء الجميلات اللاتى طال شوقى إليهن ، استشعرت
رجفة عاشقة لم أعهدها من قبل . وقدم السيد لوبلون إلى
هؤلاء المغنيات الشهيرات ، اللاتى كانت أسماؤهن وأصواتهن
هى كل ما عرفته عنهن : « تعالى يا صوفى ! » .. انها بشعة
الخلقة ! .. « تعالى يا كاتينا ! » .. إنها ذات عين واحدة! ..
« تعالى يا بتينا ! » .. كلن الجدرى يشوه وجهها .. لم تكد
توجد بينهن واحدة تخلو من عيب ظاهر .. وضحك القاسى
من المفاجأة العنيفة التى صادفتنى .. على أنه كانت بينهن
اثنتان أو ثلاث يبدون مقبولات الشكل ! .. ولم يكن يتقن الغناء
إلا مجتمعات (فى كورس) ، فتولاتى الأسى . وفى أثناء الوجبة
الخفيفة ، رحنا ندأبهن لماذا المرح يغيب بهن ، وإذا الدماء
لا تخلو من بعض آيات البهاء التى تبينت وجودها فيهن .
فقلت لنفسى : ما كن ليقوين على مثل هذا الغناء الرائع ، ما لم
يكن قد اوتين ارواحا سامية .. وكن كذلك فعلا . وأخيرا ،
تغير رأى فيهن إلى درجة أننى انصرفت وأنا شبه متيم بهؤلاء
الدميمات ! .. وجروئت — فى مناء — على العودة إلى حضور
قداسهن ، وقد تبينت ما طماننى . وقد ظللت أجد غناءهن
محببا ، وأرى أن أصواتهن كانت تضى على وجوههن بهاء ،

(١) Gouter « تعبيرة ٣ أو وجبة خفيفة بين الغداء والعشاء .



وقدم السيد لوبلون الى هؤلاء المغنيات الشهيرات ، اللاتي كانت اسماءهن
واصولهن هي كل ما هزلته عنهن .

حتى أنني كنت أصر - ما دمت أسمع غناءهن - على أن
أصورهن جميلات ، بالرغم مما كانت تصر عليه ميناى !

والموسيقى - فى إيطاليا - لا تكاد تتكلف شيئا يذكر ، ومن
ثم فإن حرمان النفس منها - إذا كان لدى المرء ميل إليها -
لا يكاد يستحق العناء الذى يبذل فى سبيل ذلك . وقد استأجرت
معزفا ، وكنت فى مقابل « ايكو » واحد ، أستقدم إلى دارى
أربعة أو خمسة من عازفى الموسيقى الغنائية ، أتدرب معهم
- مرة فى الأسبوع - على عزف القطع التى تكون قد استأثرت
بأعظم قدر من اعجابى فى « الأوبرا » . وكنت أجرب كذلك
عزف بعض الألحان الغنائية التى ضمتها « عرائس الشعر
اللطاف » (١) ولقد سألنى استاذ الموسيقى الإيقاعية فى « سان
جان كريستوم » قطعتين منهما - أما لأنه أعجب بهما حقا ،
وأما لأنه أراد أن يملقنى - فسررنى أن أسمعها تؤدىان على
أيدى فرقته الرائعة ، وأن تؤدى رقصاتهما الصغيرة « بتينا »
.. وهى فتاة جميلة لطيفة ، كان يرعاها أسبائى من أصدقائها
يدعى « ماجواجا » ، كثيرا ما قضينا السهرات فى داره .

* * *

أما عن النساء ، فليس لرجل أن يعرض عنهن فى مدينة
كالبنديقية ! .. وقد يقال لى : « ليس لديك ما تعترف به فى
هذا الصدد ؟ » .. بلى ، فإن لدى ما يقال فعلا ، وإنى لمقدم
على هذا الاعتراف بنفس الصراحة التى اتبعتها فى كل

(١) « الأوبرا » التى كان « روسو » قد ألّفها فى باريس .

اعترافاتي الأخرى .. ولقد كنت دائما أنفر من البغايا ، بيد انه لم يكن لدى سواهين في البندقية ، إذ كان محرما على ولسوج معظم البيوت في المدينة ، من جراء منصبى . ولقد كانت فتيات السيد لوبلون جد لطيفات ، ولكن التقرب اليهن كان أمرا عسيرا ، كما أن احترامى لأبيهن وأمهن كان أعظم من أن يسول لى مجرد التفكير فى اشتهائهن !

ولقد كنت خليقا بأن أميل كل الميل إلى شابة تدمى الأنسة دى « كاتاليو » ، كانت ابنة مندوب ملك بروسيا . ولكن كارىو كان يهواها ، حتى أنه كان يسعى إلى الزواج منها .. ولقد كان ميسور الحال ، فى حين أننى لم أكن أملك شيئا .. كان مرتبه مائة « لوى » ، أما أنا فلم أكن اتقاضى سوى مائة « بيسنتول » . وبغض النظر عن أننى ما كنت لأستطيع أن أسطو على صيد صديقى ، فإني كنت أدرك أن ليس لرجل خالى الوفاض أن يقدم على التقرب إلى الحسان ، وإنما يكن .. ولو كان فى البندقية ! .. ولم أكن قد مكنت عادتى المشئومة ، وأعنى بها استبدال الحاجات التى أصبو إليها . ولما كنت جد مشغول إلى درجة لا تدع لى سبيلا إلى الشعور الملح بالحاجات التى يخلقها الجو المحيط بى ، فإني عشت فى هذه المدينة علما تقريبا ، وأنا محتفظ بما كان لى - فى باريس - من طهر وحكمة .. كما تركتها بعد ثمانية عشر شهرا دون أن أقرب الجنس اللطيف فيما عدا مرتين ، وبسبب المناسبتين غير العاديتين اللتين سأذكرهما فيما يلى :

ولقد اتاح لى اولاهما السيد الشريف فيتالى (١) ، بعد انقضاء فترة على الامتذار الذى أجبرته على أن يقدمه لى فى اكمل صيغة رسمية . فقد دار الحديث حول المائدة عن ملاهى البندقية ، فآخذ السادة يعتبرون على عدم اكتراثى بأشد هذه الملاهى حرارة ، ويطنبون فى إطراء رقة الغوانى البندقيات ، قائلين ان ليس فى العالم من يضارعهن . وقال دومينيك إننى خلىق بأن أتعرف إلى أبدعهن طرا ، وأنه يرجو أن يقدمنى إليها، وإننى سأطرب لمعرفتها . وانطلقت اضحك لهذا الاقتراح المحرج ، فإذا بالكونت يبانى — وكان كهلا وقورا — يقول فى صراحة لم أكن أتوقعها من إيطالى ، إنه يؤمن بأننى أعقل من أن ادع عدوى يقودنى إلى دار غانية . والواقع أننى لم أستشعر ميلا ، ولا تأثرت بإغراء ، ولكننى انتهيت بالرغم من ذلك — وبدافع من إحدى النزوات المتناقضة التى لم أكن أملك أن افهمها — إلى أن تركت عدوى يقودنى ، على النقيض من إملاء ميولى، وقلبى ، ومغلى ، بل وإرادتى . كنت منساقا له لمجرد الضعف والخجل من ابداء عدم الثقة به ، أو بلسان تلك البلاد :

Per non Parer Troppo Coglione (٢) ولقد كانت « البادوانا » (٣) التى ذهبوا إليها ذات وجه لا بأس بحسنه بل إنه كان جميلا ، ولكن جماله لم يكن من الطراز الذى يروق لى .

(١) واضح أن « روسو » ينسخ من « فيتالى » إذ يصنفه بأنه شريف .

(٢) عبارة ايطالية معناها : « لكى لا أبدو مغرط الغباء » .

(٣) الغانية ، أو المومس .

وتركتى دومينيك فى دارها ، فأرسلت فى طلب بعض المثلوجات (آيس كريم) ، وسألتها أن تغنى لى ، ثم تهيات — بعد نصف ساعة — للانصراف ، تاركا على المنضدة « دوكا » (١) ، ولكنها فى عزة نفس غريبة — أبنت إطلاقا أن تقبل المبلغ دون أن تكون قد أدت ما يقابله . . وفى غياب — لا يقل غرابة — أرضيت عزة نفسها ! . . وعدت إلى القصر وأنا موقن من أننى أصبت بمرض خبيث ، حتى أن أول ما فعلت هو أن أرسلت فى طلب طبيب لأطلب منه بعض الأدوية . وليس ثمة ما يعادل الغم الذى عاتبته طوال ثلاثة أشهر ، دون ما علة حقيقية ، ودون ظهور أية علامة تبرره . فما كنت لأتصور أن من الممكن مغادرة أحضان مومس دون ما ضرر ! . . بل إن الطبيب نفسه تجشم كل عناء يمكن تصوره ، لكى يطمئننى ، فلم يوفق إلا إلى اقناعى بأننى كنت مخلوقا على نمط خاص ، لا يجعلنى أصاب بالعدوى بسهولة . ومع أننى قد أكون أقل من أى رجل آخر تعرضا لهذا الخطر ، إلا أن عدم تأثر صحتى البتة من هذه الناحية بالذات ، يبدو لى دليلا على أن الطبيب كان مصيبا . . على أن هذا الراى لم يجعلنى متهورا قط ، وإذ كنت قد أوتيت لمعلا هذه الميزة الطبيعية ، فإن فى وسعى أن أقول أننى لم أسوء استفلالها !



أما مغامرتى الأخرى ، فمع أنها كانت مع غانية كذلك ، إلا أنها كانت من نوع جد مختلف ، سواء فى أصلها أو فى نتائجها .

(١) عملة ذهبية كانت قيمتها تتراوح بين ١٠ و ١٢ فرنكا »

فلقد ذكرت أن الكابتن أوليفيه - الريان - قد دعاني إلى الغداء على ظهر سفينة ، وأنتى اصطحبت سكرتير السفارة الإسبانية . وكنت أتوقع أن تحيينا المدافع ، فإذا البحارة يستقبلوننا مصطفين ، ولكن قطعة واحدة من الذخيرة لم تشعل ، مما غاظنى كثيرا ، بسبب كاريو ، الذى رأيتته مستاء . والواقع أن التحية بطلقات المدافع - على السفن التجارية - كانت تؤدي لأناس لا يعادلوننا مقاما بالتاكيد ، كما أنتى كنت أخالنى جديرا بشيء من التمييز من الريان . ولم أستطع أن أخفى ما كان بنفسى ، فقد كان ذلك أمرا مستحيلا دائما . ومع أن الغداء كان بديعا ، وقد أدار أوليفيه الانخاب فى إكرام رائع ، فاننى بدأت المسادبة وأنا منحرف المزاج ، ومن ثم فقد أكلت قليلا وتكلمت أقل !

وعند احتساء النخب الأول ، توقعت تصفيقا على الأقل ، ولكن شيئا من هذا لم يحدث . . وضحك كاريو - الذى قرأ ما فى خاطرى - إذ رأى اغمغم كالطفل . وفى ثلث الغداء ، رأيت جندولا يقترب ، وإذا الريان يقول لى : « لغمرى ! . خذ حفرك يا سيدى فهنا هو ذا العدو ! » لمسأله عما كان يعنى ، وإذا ذاك أجاب بدعابة . ورسا الجندول بجوار السفينة ، فرأيت فتاة باهرة الجمال ، بالغة الرشاقة ، فى ثياب مغرية ، تغادره . . وفى ثلاث قفزات كانت فى الغرمة . ورأيتها تستقر إلى جوارى ، قبل أن أعطن إلى أن ثمة مكانا قد أعد لها . . وكانت هاتئة بقدر ما كانت رشيقة . . سمراء فى العشرين من عمرها ، على الأكثر ! . . ولم تكن تتكلم بغير اللغة الإيطالية ، وكانت

لهجتها وحدها كافية لأن تدبر رأسي . وفيما كانت تاكل وتتكلم ، أخذت ترمقني ، ثم تترست في لحظة ، وما لبثت أن صاحت : « يا للمعزاة الطيبة ! .. آه ! ما أطول الوقت الذي انقضى يا عزيزي بريمون دون أن أراك ! » .. وارتمت في أحضاني ، والصقت فمها بفمي ، واحتضنتني حتى كادت تزهرق أنفاسي ! .. وراحت ميناها الواسعتان السوداوان — على غرار العيون الشرقية — ترميان قلبي بشواظ من لهب . ومع أن المفاجأة أحدثت شيئا من الاضطراب في البداية ، إلا أن غريزتي الشهوية سرعان ما تملكنتني — بالرغم من الحضور — إلى درجة أن الفائتة نفسها اضطرت إلى أن تكبح جماحي ، إذ أنني لم ألت ، أو بالأحرى جننت ! .. فلما رأنتي قد بلغت الدرجة التي كانت ترجوها ، خفت من عناقها ، ولكنها لم تخف من غورة عواطفها .. حتى إذا راق لها أن تبدي لنا السبب الحقيقي أو الزائف لهذا النزق قالت لنا أنني كنت أشبه السيد دي بريمون ، مدير جهرك توسكاني ، إلى درجة يصعب معها التمييز بيننا .. وأنها كانت — ولا تزال — متيبة بهذا السيد دي بريمون ، وأنها كانت قد هجرته لحماقتها .. وأنها قد اختارتني بديلا عنه ، فشاعت أن تهواني ، لأن هذا كان يروق لها ، وأن من الواجب — للسبب ذاته ! — أن أحبها ، طالما ظل هذا يلائمها ، لماذا ما هجرتني فجأة ، وجب أن أحتملها صابرا ، كما كان يفعل عزيزها بريمون ! .. واستولت على كها لو أنني كنت ملك يمينها ، فعمدت إلى بقغازيها ، ومروحتها ، وحزامها ، وقلنسوتها .. وراحت تأمرني بأن أذهب إلى هنا أو هناك ، وأن أفعل هذا أو ذاك ، وأنا أطيعها ! .. وقالت لي

أن أذهب لمأصرف جندولها ، لأنها كانت راغبة في استخدام جندولى ، فصدمت ! .. وأمرتنى بأن أغادر مكانى ، وإن أرجو « كاريو » بأن يحل فيه محلى ، لأنها كانت تريد أن تتحدث إليه ، ففعلت ! . . وتحدثنا طويلا ، فى صوت جد خفيض ، فتركتهما بفعلان ، . . ونادتنى ، فمخلفت إليهما ، فقالت لى : « أسمع يا جانيتو . . لست أريد البتة أن أكون محبوبة على الطريقة الفرنسية ، إذ ليس من ورائها طائل فى الواقع . . غنى أول لحظة تشعر فيها بالضجر ، لك أن تمضى عنى . ولكن ، لا تمكث بين بين . . إئننى أفنرك ! » .

وذهبنا بعد الغداء لمشاهدة مصنع الزجاج فى (مورانو) ، فابتاعت كثيرا من التحف الصغيرة ، التى تركتنا ندفع ثمنها فى غير كلفة . . ولكنها كانت — فى كل مكان — تجود بها يفوق بكثير كل ما أنفقنا . وكان من الواضح — من الاستخفاف الذى كانت تبعثر به نقودها ، وتحملنا على أن نبعثر نقودنا — أنها لم تكن تقيم للمال وزنا . . واعتقد أنها عندما كانت تطلب أجرا لنفسها ، لم تكن تصدر فى طلبها عن جشع بقدر ما كانت تصدر عن زهو . فقد كانت تطرب للآجر الذى يدفع فى مقابل المتع التى تجود بها ! وفى المساء ، ذهبنا إلى دارها . وفيما كنا نتحدث ، لمحت مسدسين على منضدة الزينة ، فمطت لها وأنا أتناول أحدهما : « آه ! آه ! .. هاكم مصيدة للذباب من نوع جديد . . هل من سبيل إلى معرفة نعيم تستخدم ؟ .. إئننى أعرف أن لديك أسلحة أخرى ، أقوى فتكا من هذا ! » . . وبعد بضع مداعبات من هذا القبيل ، قالت لنا فى غرور أرعن ، زادا غتنة : « عندما أتكرم على أولئك الذين لا أحبهم ، فائنى انتعاضهم لمن الضجر

الذى يسببونه لى ، وليس هناك ما هو أعدل من هذا ! .. على
أئننى وإن احتملت عقابهم ، فليست أحب إطلاقا أن أحتمل
إهاناتهم .. ولن أخطيء إصابة أول رجل ينقص من شأنى !» .

وعند انصرافى ، اتفقنا على الموعد الذى أوافيها فيه ، فى اليوم
التالى .. ولم أدمعها تنتظر ، ووجدتها فى « ثوب الخلوة » (١)
.. وهو ثوب مكشوف ، أكثر من أن يوصف بأنه خليع ، غير
معروف إلا فى الدول الجنوبية ، ولن أمتع نفسى بوصفه ،
برغم أننى أذكره تهما ! .. كل ما سأقوله هو أن كميته ومفتحة
عنته كانت مطرزة بخيط حريرى ، مزدان بكرات صغيرة فى
لون الورد . وقد بدا لى أن هذا كان يضاعف من تورد بشرتها
الرائحة الجمال . وقد تبينت فيما بعد أن هذا الزى كان من
المستحدثات الرائجة فى (البندقية) ، وأنه كان ذا تأثير جد
ماتن ، حتى أننى لأعجب من أنه لم ينتقل قط إلى فرنسا . ولم
تكن لدى أدنى فكرة من الغواية التى كانت فى انتظارى ..
لقد تحدثت من مدام دى « لارناج » ، وأنا فى تلك النشوات
التي تنقلنى إليها ذكراها فى بعض الأحيان ، ولكن .. لشدة
ما كانت عجوزا ، ودمية ، وباردة الحس ، إذا قيست بحبيبتى
« جوليتا » ! .. ولا حاولوا أن تتصوروا مفاتن ومحاسن هذه
الفتاة الساحرة ، فليسوف تظلون بعيدين كل البعد عن
الحقيقة ! .. إن عذارى الأديرة أقل نضرة ، وحسان الحريم
أقل حيوية ، وحوريات الجنة أقل جاذبية ! .. أبدا ما حظى قلب

وحواس إنسان مان بمثل تلك المتعة الحلوة !.. آه ! ليتنى عرفت كيف أتذوقها فى أتم كمالها للحظة واحدة ، على الأقل !.. لقد تذوقتها حقا ، ولكن دون ما امتنان ، إذ اننى أفسدت كل اللذات .. قتلها وأنا غير حافل ، كما ينبغى أن يقال . لا ، ان الطبيعة لم تخلقنى قط للاستمتاع ، وإنما بثت فى رأسى الفاسد سم هذه السعادة التى لا سبيل إلى وصفها ، والتى غرست فى قلبى شهوة الشوق إليها !



وإذا كان فى حياتى ظرف واحد يعبر تمام التعبير عن فطرتى ، فهو هذا الذى أوشك أن أرويه . ان القوة التى أذكر بها - فى هذه اللحظة - الغاية المنشودة من كتابى ، لتجعلنى أطرح عنى الحياء الكاذب الذى يمنعنى من أن أحققها . فعليك أيها الراغب فى معرفة دخيلة قلب إنسان - أيا كنت أنت - أن تتجدد إذ تقرأ الصفحتين أو الثلاث التالية ، فسوف تعرف فيها جان جاك روسو معرفة تامة !

لقد كنت ألج غرفة الغشائية ، وكاننى ألج معبدا للحب والجمال .. وكنت أخال اننى أبصر القداسة فى شخصها ، فما كنت لأعتقد أن بوسعى أن أحظى بالانفعالات التى الهمتنيها ما لم أحترمها وأقدرها . ولم أكد أعرف - خلال محاولات التقارب والتألف الأولى - نعم مفاتها وعناقها ، حتى تولانى الخوف من أن أفقد ثمارها مقدما ، ومن ثم فقد تفت إلى التعجيل باقتطافها . وفجأة ، أحسست - بدلا من النيران التى كانت تكوينى - ببرودة قاتلة تسرى فى عروقى ، وخزلتنى ساقاى ،

فجلست وأنا أرى نفسى موثكا على الاغماء ، ورحت أبكى كالطفل !

ترى منذ الذى يستطيع ان يحدث سبب دموعى وما كان يجرى فى راسى فى هذه اللحظة ؟ .. كنت أقول لنفسى : « إن هذه الحسناء التى أجدها فى متناولى هى أروع نتاج الطبيعة والحب .. فالروح والجسد فى أكمل آياتهما .. وإتها لطيفة وكريمة كما أنها جميلة وبديعة .. وخليق بالعظماء والأمراء ان يكونوا عبيدا لها ، كما يجدر بصولجانات الملك ان تكون عند قدميها .. ومع ذلك ، لها هى ذى تعسة ، تجوب الطرقات ، فى خدمة كل إنسان .. لقد نفض احد ربابنة السفن التجارية يديه منها ، فجاست والقت بنفسها على راسى .. على أنا الذى كانت تعرف أنه لا يملك شيئا .. أنا الذى لم يكن بوسعها ان تعرف فضائله ، ولا كانت هذه الفضائل شيئا يذكر فى نظرها ! .. ان ثمة شيئا يجل عن الادراك ، فى هذا . فما ان قلبى يخدمنى ويزيغ حواسى ويجعلنى مطية مومس لا قيمة لها ، وإما ان ثمة عيبا خبيثا لا أدريه ، يهزم مفعول مفاتها ، ويحيلها تميمة فى نظر أولئك الذين كانوا خليقين — لولا ذلك — بان يتناحروا فى سبيل الظفر بها » .. وشرعت أبحث عن هذا العيب فى استغراق عجيب ، دون ان يخطر لى البتة ان للفسق والمهر نصيبا فى ذلك . لمهن نضرة بشرتها ، وإشراق محياها ، وأسنانها التى كان بياضها يبهى البشر ، وحلاوة أنفاسها ، والجو العام المحيط بشخصها والموحى بالنظافة .. كل هذا محا هذه الفكرة تماما من ذهنى . وإذا كنت لا أزال فى شك من حالى —

منذ زيارتي لببيت البغى « البادوانا » - فقد وسوست لنفسى بالخوف من اننى لم اكن فى صحة تجعلنى اهلا لها ، واقتنعت كل الاقتناع بأن يقينى من هذا لم يكن زائفا !

ولقد اهاجتنى هذه الخواطر - التى جاءت فى حينها المناسب - إلى الدرجة التى ابكتنى . أما « جوليينا » - التى كان هذا المنظر جديدا عليها ولا ريب ، فى مثل تلك الظروف - فقد بهتت لحظة ، ولكنها بعد أن تمشت فى أرجاء الحجرة ، ومرت أمام مرآتها ، أدركت الحقيقة ، كما أكدت لها عينائى أن هذا الأسى التهوسى لم يكن من النفور فى شيء . ولم يكن مسيرا عليها أن تبرئنى منه ، وأن تمحو الحياء الطفيف . ولكننى إذ هممت بأن انطرح متهاكما على هذا النحر الذى بدا وكأنه كان يسمح - للمرة الأولى - ليد رجل ومنه بأن يمساها ، لمحت أنها لم تؤت سوى حلمة ثدى واحدة . وضربت جبهتى برأحتى ، وتدرست ، فخيل إلى اننى أرى أن هذه الحلمة لم تكن على غرار الأخرى فى الشكل . وإذا بى انقلب فى ذهنى عن تعليل لوجود حلمة شوهاء ، ولما رحت أقلب الفكر ، اقتنعت بأن لهذه الظاهرة علاقة بعيب طبيعى واضح . . وتجلى لى - كوضع النهار - اننى لم اكن احتضن بين ذراعى أجمل حسناء كل يومسعى أن أتصورها ، وإنما كنت أضمر نوعا من المسخ . كنت أضمر نفاية الطبيعة ، والرجال ، والحب . وذهبت فى غبائى إلى حد أن أحدثها من هذا العيب ، فطلقت الأمر - فى البداية - على محمل الدعابة ، وقالت فى مرحها ومعلت أشياء كانت كتيلا بأن تميتنى هيأما ، ولكنها حين رأت بقية من قلق لم أقو على

إخلائها ، إذ بها تتخرج خجلا — فى النهاية — فتعتدل ، وتسوى
 ثيابها . . ثم سارت — دون أن تنبس بكلمة واحدة — فجلست
 لدى نافذة مخدمها . ورغبت فى أن اجلس إلى جوارها ،
 فغادرت مكانها وجلست على أريكة ، ثم نهضت بعد لحظة
 وتمشت فى الحجرة وهى تزغر ، وقالت فى لهجة قاسية ، مهينة:
 « جانيئو » . . دع النساء ، وادرس العلوم الرياضية !

وقبل أن أبرحها ، سألتها موعدا آخر كى القاهها فى اليوم
 التالى ، فأرجأته إلى اليوم الثالث ، وأردفت — وهى تبسم
 ابتسامة ساخرة — أننى ولا بد بحاجة إلى الاستجمام . وقضيت
 هذا الوقت متوكم المزاج ، ملء القلب بمفانئها وحسنها ،
 شاعرا بحماقتى ، لائما نفسى ، متحسرا على اللحظات التى
 أسأت استغلالها — والتى كان فى يدي ، أنا وحدى ، أن أجعلها
 أعذب لحظات حياتى — مترقبا بأشد الوان نفاد الصبر اللحظات
 التى أستطيع فيها أن أهوض ما غائنى . . ولكننى ظلت — مع
 ذلك — قلقا بالرغم من نفسى ، لا أدرى كيف أوفق بين مفانئ
 هذه الفتاة الرائعة ، وبين محشئ حالها . . وهرمت ، بل طرت
 إلى دارها فى الموعد المحدد . ولست أدرى أكانت هذه الزيارة
 خليقة بأن تضاعف من إرضاء طباعها الحادة . . كان غرورها
 — على الأمل — قميئا بأن يجد فى الزيارة عملا يتملكه ، ومن ثم
 رحت أستمع — سلفا — بغبطة ما كنت أعترمه من أن أريها ،
 بكل الوسائل ، أننى كنت أعرف كيف أصلح أخطائى . ولكنها
 أعفتنى من هذا العناء . فان نوتى الجندول — الذى أوفدته إلى
 دارها ، عندما رسونا — عاد إلى بنبا رحيلها فى اليوم السابق

إلى (ملورنسا) . وإذا كنت لم أشعر بمدى حبي لها عندها كانت بين ذراعى ، فقد شعرت به فى قسوة إذ فقدتها . . ولم يفارقنى قط نهمى المهتاج . . ولقد استطعت أن اتعزى عن فقدتها — وهى التى كانت موفورة اللطف وموفورة الفتنة فى ميني — ولكنى أمتدح بأننى لم أستطع البتة أن أهون على نفسى الفكرة التى راودتنى من أنها لم تحمل معها عنى سوى ذكرى مهينة زرية !



هاتان هما قصتاي الوحيدتان ، فان الشهور الثمانية عشر التى قضيتها فى البندقية لم تخلف لى مزيدا أرويه ، اللهم إلا غراما لم يتجاوز أن يكون مجرد . . مشروع ! فلقد كان «كاريو» مشغوعا بالنساء ، وقد سئم الذهاب دائما إلى دور فتيات كن على علاقات بسواه ، فساورته نزوة أن تكون له بدوره عشيقة . ولما كنا لا نفرق ، فقد اقترح على مشروعا لم يكن نادر المثال فى البندقية : أن نقتنى فيما بيننا عشيقة ! . . ولقد وافقت على ذلك ، وبقي أن يجد لغانية نطمئن إليها . . وبحث كثيرا ، حتى اهتدى إلى فتاة صغيرة ، فيها بين الحادية عشرة والثانية عشرة من العمر ، كانت أمها الخسيسة تسعى لكى تبيعها . وشاهدناها معها ، فاهتز قلبى إلهاما إذ رأيت تلك الطفلة . . كانت شقراء ، وادمة كالجمل ، لا يظن من يراها أنها إيطالية . وكانت نفقات المعيشة فى (البندقية) زهيدة ، فأعطينا الأم بعض المال ، وتكفلنا بأن نعول الفتاة . وكان لها صوت رخيم ، فوهبناها معزفا صغيرا ، واستأجرنا لها مدرسا ليلقنها الغناء ، كى نهيب .

لها وسيلة للعيش وكان كل هذا لا يكاد يكلف كلا منا قطعتين من
قشة « السيكان » في الشهر ، وقد كان كفيلا بأن يوفر علينا
نفقات أخرى . ولكنه كان بمثابة البذر الذي لن يؤون حصاده
إلا بعد أمد طويل ، إذ لم يكن ثمة بد من أن ننتظر حتى تنضج
الفتاة . . . على أننا كنا قانعين بأن نتردد على الدار (١) ،
منقضى أمسياتنا في لعب وثرثرة بريئين مع هذه الصبية ، فننعم
بلهو قد يكون أنسب وأفضل مما كنا نحظى به لو أننا نلنا منها
وطرا . . . وكم هو صحيح أن أشد ما يجذبنا إلى النساء لا يمت
إلى الفسق بقدر ما يمت إلى لون خاص من المذعة يستمد من
الإقامة بالقرب منهن . . . ولقد تعلق قلبي بالصغيرة « انجوليتا »
في شغف جنوني ، ولكن هذا الميل كان أبويا . . . ولم يكن
لشهوأتي أثر يذكر في ذلك ، فبقدر ما أخذ حبي ينمو ، راح
احتمال السماح لهذه الشهوات بأن تكون ذات سلطان عليه
يتضائل . . . وكنت أشعر بأنني خالق بأن أستبشع أن أمس هذه
الفتاة — إذا ما أدركت سن البلوغ — كما لو أن هذا العمل كان
فاحشة مرنولة . . . وكنت أرى مشاعر كاريو الطيب تتخذ عين
الاتجاه ، دون أن يظن . . . كنا قد دبرنا لأنفسنا — دون أن نتكبد
عناء التفكير في الأمر — متعا لا تقل مذوبة عن تلك التي كنا
قد فكرنا فيها من قبل ، وإن اختلفت عنها . واني لواقف من أننا
كنا زاعمين بأن نظل حاميين للفتاة ، لا مفسدين لها ، مهما كان
يحتمل أن يصير إليه جمالها إذا ما كبرت . على أن نكتبتي (٢)

(١) كانت الصبية تقيم مع أمها ، ويتكلم روسو وصديقه بنداها .

(٢) يقصد خلاله مع السطر وتجارته البلدية .:

وقعت بعد ذلك بقليل ، فلم تدعنى اساهم فى هذا العمل الطيب ، ولم يعد لى من نصيب فى هذه المسألة اللهم إلا ميول قلبى . . فلنعد الآن إلى رحلتى :

كان أول ما فكرت فيه بعد مغادرتى دار السيد دى مونتيجى ، هو أن أعود إلى (جنيف) ، أملا فى أن تؤدى بعض الظروف السعيدة إلى إزاحة العقبات وتمكينى من الانضمام إلى « لما » المسكينة (١) . ولكن الضجة التى أحدثها شجارى مع السفير ، وحماقته التى حملته على الكتابة من ذلك إلى البلاط ، جعلتانى أقرر الذهاب إلى البلاط بنفسى لأقدم حساسبا عن مسلكى ، ولأرفع شكواى ضد هذا الرجل المجنون . وكتبت إلى السيد دى « تيل » — القائم بالثئون الخارجية مؤقتا ، عقب وفاة السيد « اميلو » — عن قراره ، ثم بارحت البنديقية فى اعقاب رسالتى مباشرة ، فأتخذت طريقى مارا ببرجامى ، و (كوى) ، و (دوسولو) — وعبرت ممر (سيمبلون) . وفى (سيون) ، أبدى لى السيد دى « شينيون » — القائم بأعمال فرنسا — ألف مظهر من مظاهر الود . وكذلك فعل السيد ديلا كلوزير ، فى (جنيف) . وهناك ، جددت التعارف مع السيد دى جوفكور ، الذى اضطررت لأن أتقبل منه بعض المال . واجتزت (نيون) دون أن أرى أبى ، ولم يكن هذا العمل ليعطينى من الم قاس اخطج به فؤادى ، ولكنى لم اكن املك أن أحمل نفسى على أن أظهر أمام زوجة أبى ، بعد ما أصابنى من سوء الطالع ، إذ كنت

موقنا من أنها سلتقى الخنب على دون أن تسمع قولى . ولقد
 لامننى «دوفيار» الكتبى - وكان صديقا حميما لأبى - على هذا
 الخطا لوما شديدا ، ففكرت له السبب . ولكى نصلح الخطأ ،
 استأجرت محلة ورطنا معا إلى (نيون) ، لمهبطنا فى فندق .
 وانطلق «دوفيار» بحثا عن أبى ، الذى لم يلبث أن جاء مهرعا
 فاحتضننى . . وتناولنا العشاء معا . وبعد أن قضينا سهرة
 كانت جد ممتعة لفؤادى ، عدت فى صباح اليوم التالى إلى
 (جنيف) مع دوفيار ، الذى ظللت دائما أذكر له بالعرفان ،
 ما بذله من فضل فى هذه المناسبة !



ولم يكن طريق (ليون) هو اقصر الطرق لغايتى ، ولكننى
 رغبته فى أن أمر بالمدينة ، لآتحرى من حيلة خسيصة من حيل
 السيد دى مونتيجى . إذ أئننى كنت قد اجتلبت من باريس
 صندوقا صغيرا ضم صديرية وشيت حوامها بالذهب ، وبضعة
 أزواج من أساور الاقمصة المزركشة، وستة أزواج من الجوارب
 الحريرية البيضاء ، ولا شئ أكثر من ذلك . واستجابة لاقتراح
 عرضه على السيد دى مونتيجى نفسه ، ضمنت هذا الصندوق
 - أو بالأحرى ، هذه العلبة - إلى متاعه . ولكنه فى كشف
 حساب الصيدلى - الذى أراد حملى على قبوله فى مقابل مرتبى ،
 والذى كتبه هو بيده - ذكر أن هذه العلبة ، التى أسماها
 «طرادا» ، كانت وزن أحد عشر قنطارا ، وتقاضانى لذلك من
 نظها أجرا هائلا . واستطعت التحقق - بفضل السيد
 بوى ديلا تورا ، الذى أوصاه بى السيد روجان خاله - من سجلات

جمارك ليون ومارسيليا ، أن «الطرد» المزموم لم يكن يزن سوى خمسة وأربعين رطلا ، وأن أجر النقل لم يدفع إلا من هذا الوزن . وقد أضفت هذا البيان الرسمي إلى ذكريات السيد دى مونتيجى . وعدت إلى باريس مزودا بهذه الوثائق وبكثير من أمثالها ، وأنا متلهف على استغلالها . ولقد صادفت - خلال هذه الطريق الطويلة - مغامرات صغيرة فى (كومى) ، باقليم (فاليه) ، وفى بقاع أخرى . ولقد رأيت - فيما رأيت - جزر (بوروميه) التى كانت جديرة بأن توصف . ولكن الوقت كان يمر سراما ، وكان الجواسيس يضيّقون على النطاق ، ومن ثم فقد كنت مضطرا إلى أن أنجز - فى سرعة وبأسوأ حال - رحلة كانت تتطلب ساعة من الوقت والطمانينة ، الأمر الذى كان يعوزنى . وإذا قدر للعناية أن ترمانى وأن تتيج لى - أخيرا - أياما أكثر سكونا وطمانينة ، فلسوف أخصص هذه الأيام لإعادة صوغ هذا المؤلف - إن استطعت - أو لأضيف إليه جزءا مكملًا ، أشعر بأنه محتاج إليه كل الاحتياج (١) .

وكان ضجيج قصتى قد سبقنى ، فما أن وصلت إلى باريس حتى ألفيت كل امرئ - سواء من الرسميين أو من العامة - قد استنكر حماقات السفر . وبالرغم من هذا ، وبالرغم من صيحة الراى العلم فى البنّائية ، وبالرغم من الأدلة غير المدحوضة التى قدمتها ، فأننى لم أستطع أن أظفر بالانصاف . . . بل إن الأمر لم يقتصر على أننى لم أفر بلرضاء ولا بتعويض،

(١) عقب «مؤتسو» على ذلك بقوله «ولقد عدلت الآن من هذا المشروع».

وإنها تركت — فوق هذا — تحت رحمة السفير ، فيما يتعلق
بمرتبي ، وذلك لمجرد اننى لم أكن فرنسيا ، فلم يكن لى الحق
فى أن أستجير بالدولة ، ومن ثم فقد كانت المسألة شخصية ،
لا تخص سوانا نحن الاثنين ! .. كان كل امرئ يقرنى على
اننى أهنت وأوذيت ونكبت ، وعلى أن السفير كان معتوها ،
فاسيا ، ظالما ، وأن المسألة كلها كانت عارا باقيا له . ولكن ،
ماذا بعد كل هذا ؟ .. لقد كان هو السفير ، أما أنا فلم أكن
سوى السكرتير .. وكان النظام الصالح — أو ما يطلق عليه
هذا الاسم — يقتضى ألا أنال أى انصاف ، فلم أتل شيئا
منه ! .. ولقد خيل إلى اننى بالشكايات المستمرة ، وبإظهار
هذا الاحق أمام الملاء بما كان يستحق أن يظهر به ، قد أستطيع
أن اضطرهم إلى أن يطلبوا إلى أن أعقل لسانى ، وهو عين
ما كنت أرتقبه ، إذ اننى كنت قد صممت على ألا أطيع حتى أغفر
بالانصاف . بيد أنه لم يكن ثمة وزير للخارجية إذ ذاك . ولقد
تركت أصرخ ، بل اننى لقيت تشجيعا على ذلك ، ووجدت من
ردد صراخى ، ولكن القضية ظلت دائما عند هذا الحد ، حتى
سئمت — فى النهاية — أن أظل دواما على حق دون أن أنال
إنصافا ، فثبطت عزيمتى ، وبقيت على حالى !

وكان الشخص الوحيد الذى أساء استقبالى ، والذى كان
أقل الناس إصغاء لشكايتى ، هى السيدة دى بولينفال . فقد
كانت لفرط امتزازها بالامتيازات المترتبة على الجاه وسمو
المكانة ، لا تملك أن تفهم أن من الممكن لسفير أن يسئ
إلى سكرتيره . وقد كان مسلكها فى استقبالى مطابقا لهذه

النعرة الباطلة . ولقد غاظنى هذا ، حتى أننى كتبت إليها — بعد
 مبارحتى دارها — خطابا لعله اشد واعنف خطاب كتبته فى
 حياتى ، ولم اذهب إلى دارها بعد ذلك قط ! .. ولقد اكرم الاب
 كاشيل وفادتى ، ولكننى لمحت — خلال تملقه الجزوينى —
 انه كان يتبع فى أمانة مبدأ من أعظم مبادئ المجتمع .. ذلك هو:
 التضحية دائما بالاضعف من أجل خاطر الأقوى ! .. ولكن
 شعورى المتأجج بعدالة قضيتى ، وكبريائى الفطرية ، لم يدعانى
 أطيق هذا التحيز صابرا . فكللت عن زيارة الأب كاستيل ،
 وبالتالى زيارة الجيزويتين الذين لم أكن أعرف من بينهم
 سواه ! .. وإلى جانب هذا ، فان روح الجور والفساد لدى
 زملائه ، كانت تختلف من صلاح الأب هيبه الطيب ، مما جعلنى
 أشعر بنفور من اجتماعهم ، حتى أننى — منذ ذلك الحين — لم
 أر أحدا منهم ، اللهم إلا الأب بيرتييه ، الذى قابلته مرتين أو
 ثلاثا لدى السيد دوبان ، إذ كان يعمل معه بكل ما فى وسعه
 على تنفيذ آراء مونتسكيو !

فلنختتم — إلى غير رجعة — ما بقى لدى من قول من السيد
 دى مونتيجى ! .. لقد كنت أقول له — فى منازعاتنا — إنه
 لا يلقى به أن يستخدم سكرتيرا ، وإنما الأليق به أن يستخدم
 أحد كتبة المحامين . ولقد أخذ برأى هذا ، واستخدم —
 كخليفة لى — كاتب محام حقا ، فلم يلبث أن سرق منه ، فى أقل
 من عام ، عشرين ألف أو ثلاثين ألف ليبرة . ولقد فصله وزج به
 فى السجن ، وفصل مستشاريه فى عاصفة من الفضيحة
 والتشهير ، وتشاجر فى كل مكان ، وتلقى من الاهانات ما كان

الخادم يربأ بنفسه أن يتلقاه ، وانتهى - بفضل حماقاته - إلى أن استدعى ، وفصل من منصبه وأقصى إلى الريف ! .. وكان من الواضح أن مسألتى لم تكن منسية بين المسائل التى وجه إليه اللوم بشأنها فى البلاط . وعلى أية حال ، لقد أولد إلى - بعد قليل من اعتزاله العمل - وكيل أعماله كى يسوى حسابى ويدفع لى نقودى ، التى كنت فى حاجة ماسة إليها ، إذ كانت ديونى فى (البندقية) ، ديون شرف - إذا جاز أن نسميها كذلك يوما - وكانت تثقل قلبى بالهم . فانتهزت الفرصة لتسديدها ، بها فى ذلك سند « جانيتو ناننى » . ومن ثم أخذت ما قدم لى ، ودفعت كل ديونى . ومع أن هذا خلفنى معدما - كما كنت من قبل - إلا أننى تخففت من عبء كان قد أصبح أثقل من أن أحمله . ومنذ ذلك الحين لم أسمع كلمة عن السيد دى مونتيجى حتى موته ، الذى علمت به من صوت الشعب (١) .. فليرحم الله هذا الرجل المسكين ! .. لقد كان فى صلاحيته لمهنة السفر لا يفضلى فى صلاحيتى - فى صباى - لمهنة المحاماة (٢) . على أنه كان فى يده - هو وحده - أن يسلك مسلكا شريفا فى الاستعانة بى ، وأن يكلل سرمة ارتقائى إلى المنصب الذى كان الكونت دى جوفون قد رسم لى الطريق إليه - فى صباى - والذى استطعت بالاعتماد على نفسى فقط أن أصل إليه فى سن متقدمة !

(١) يقصد الصحافة .

(٢) ذكر روسو فى الكراسة الاولى من اعترافاته ان اباءه كان يريدون

أن يكون محاميا ، ولكنه لم يطلع فى فترة التعريب ..

ولقد خلفت عدالة شكاياتي ، وعدم جدواها ، بنور السخط في نفسي على نظمنا المدنية الحمقاء ، التي تضحي بفضائلها المصلحة العامة والعدالة الحقّة ، لغير ما مصلحة واضحة أعرفها . بل إنها لتهدم فعلا كل نظام ومصلحة ، ولا تؤدي إلا إلى أن تخلع شرعية السلطة العامة على ما ينال الضعيف من ظلم ، وما يبيده القوى من جور . . . ولم يمنع هذه البنور من أن تنمو إذ ذاك — كما تعرّعت ليها بعد — سوى أمرين : أولهما أن المسألة كانت شخصية لا تتعلق بسواي ، والمصلحة الشخصية — التي لم تؤدي قط إلى أي شيء عظيم أو نبيل — لا يمكن أن تنزع من قلبي قط تلك الخفيات القدسية التي لا يمكن لغير أنقي حب للعدالة والجمال أن يثيرها فيه . . أما الثاني فهو سحر الصداقة الذي سكب على غضبي شعورا ناميا خفف من حدته وهدأ من سوريته . إذ كنت قد تعرّعت في البندقية على شخص من أبناء منطقة خليج (بسكاي) ، كان صديقا لصديقي كاريو ، وكان جديرا بصداقة كل رجل شريف . وكان هذا الشاب اللطيف — الذي أوتي كل المواهب وكافة الفضائل — قد شرع في جولة في ربوع إيطاليا ، لينمي في نفسه الميل إلى الفنون الجميلة . وإذ خيل إليه أنه لم يعد ثمة مزيد يحصله ، هم بالعودة إلى وطنه مباشرة ، فأخبرته بأن الفنون ليست سوى مجرد تسلية لعبثي مثله خلق لكي ينمي العلوم . وأشرت عليه بأن يرحل إلى باريس ، فيقضي فيها ستة أشهر في سبيل ذلك .

وقد صدقني وأخذ بنصيحتي ، ومن ثم فانه رحل إلى باريس . . وكان في انتظارى عندما عدت إليها . . وكان

ممكنه أكثر اتساعاً من حاجته ، فعرض على أن أساطره إياه ، وقبلت . وقد وجدته مليئاً بالتحمس لفروع المعرفة العليا . ولم يكن من شيء يسمو على قوى إدراكه ، فكان يستوعب ويهضم كل شيء بسرعة تدعو إلى العجب . ولكم شكر لى أن هديته إلى هذا الغذاء لعقله الذى كان يتحرق ظهاً إلى المعرفة ، دون أن يدري كنه هذا الظلم وبعثه . . . أية كنوز غنية بالأتوار والفضائل وجدت في هذه النفس القوية ! . . لقد شعرت بأنه الصديق الذى كنت أصبو إليه ، فغدونا وثيقى الصلة . ولم تكن مشاربنا واحدة ، فكنا دائئاً في جدال . . ولم نكن نتفق قط على أمر واحد ، إذ كان كل منا عنيداً . ومع ذلك فقد كنا لا نطبق نراقاً . ومع أننا كنا نتعارض دون انقطاع . إلا أن كلا منا لم يكن يعنى أن يكون الآخر غير الذى كانه !

كان « ايناسيو ايمانيويل دى القونا » من أولئك الأفراد النادرين ، الذين لا تنجهم سوى أسبانيا ، وكلما تستأثر بهم من أجل مجدها الخاص . ولم تكن له تلك النعرات القومية العنيفة ، المألوفة لدى قومه ، كما أن فكرة الثأر كانت من البعد عن ذهنه بمثل ما كانت الرغبة فيه بعيدة من قلبه . وكان أسى نفسه من أن يحقد ، وكثيراً ما سمعته يقول في هدوء مفرط ، إنه ليس في وسع الإنسان الفانى أن ينال منه . وكان ميالاً إلى النساء في غير لين أو ضعف ، فكان يلاعب النساء وكانهن أطفال صغار . . وكان يلهو مع عشيقاته أصدقائه ، ولكنى لم أر له يوماً عشيقة قط ، ولا عرفته يشتغل أن تكون له واحدة . كانت نيران الفضيلة المتأججة في قلبه لا تدع مجالاً لتطاولها الشهوة !

ولقد تزوج هذا الشاب عقب أسفاره ، ومات في ريعان الشباب ، مخلصا أطفالا . وانى لأومن — ايمانى بوجودى — بأن زوجته كانت المرأة الأولى ، والوحيدة ، التى أذاقته ملاذ الحب ! .. ولقد كان فى ظاهره تقيا كائى أنسانى آخر ، أما فى باطنه فكانت تقواه كتقوى الملائكة . وفيما عداى ، كان هو الشخص المتسامح الوحيد الذى رأيته فى حياتى ، فما سأل امرأ من آرائه الدينية ، وما كان ليعنيه كثيرا أن يكون صديقه يهوديا ، أو بروتستانتيا ، أو تركيا (١) ، أو متعبدا ، أو زنديقا ، ما دام هذا الصديق امينا شريفا . ويقدّر ما كان عنيدا ، جامد الرأس إزاء آراء ضئيلة الأهمية ، فانه كان يتراجع بمجرد أن يتحول الجدل إلى الدين ، أو حتى إلى الأخلاق ، وكان يمسك لسانه ، أو يكتفى بأن يقول : « لست مسئولا إلا عن نفسى ! » . ومن الأمور التى تجل عن التصديق ، أن يقسنى الجمع بين سمو روحى كهذا وعقل يعنى بأدق التفاصيل . فقد كان يقسم يومه بالساعات ويحدد — مقدما — استخدام كل ساعة ، بل كل ربع ساعة وكل دقيقة ، ويتبع هذا التقسيم بدقة بالغة ، إلى درجة أنه كان — إذا دقت الساعة وهو فى منتصف إحدى العبارات — يفلق الكتاب دون أن يتم العبارة ! .. وكان بين كل هذه الأقسام — التى اعتاد أن يقسم إليها يومه — ما هو مخصص للدرس ، وما هو للتأمل ، وما هو للحديث ، وما هو للعبادة ، وما هو لقراءة مؤلفات « لوك » ، وما هو لتلاوة التسابيح ، وما هو للزيارات ، وما هو للموسيقى ،

(١) يستعمل « روتسو » لفظ « تركى » كمرادف لمسلم .

وما هو للرسم .. ولم يكن لاي لهو ، او اى اغراء ، او اية مجاملة مجال للتدخل فى هذا النظام ، اللهم إلا إذا كان واجبا لا بد من أدائه .. وعندما أعطانى بيان تقسيمه الوقت - عسى أن اتبعه - ظفقت أضحك ، حتى انتهيت بدموع الامعاب .. ولم يكن يثقل على الغير اطلاقا ، ولا يحتمل أن يثقل عليه الغير ، وكان حازما مع أولئك الذين كانوا يحاولون مضايقته فى أدب . وكان حار المزاج ، ولكن فى غير عبوس . فكثيرا ما رأيته منفعلا ، ولكنى لم أره قط مغضبا . ولم يكن ثمة ما يغوق مرجه وبشاشته ، وكان ينصت إلى الفكاهة ويحب أن ينفكه ، وكان فى ذلك لامع البديهة ، أوتى موهبة فى قصائد الهجاء . فإذا ما استثاره أحد ، انقلب صارخا صاخبا ، حتى ليسمع صوته على بعد .. ولكن الابتسامة كانت تبرى على أساريره ، أثناء صياحه ، وكان - فى غمرة انفعاله - يطلق بعض الملح فيحمل الجميع على الضحك . ولم يكن بدين الجسم ، كما أنه لم يؤت سيماء الاسبانيين .. كانت بشرته بيضاء ، وخداه ممتلئين ، وشعره بنيا فاتحا ، يكاد يقرب من الصلرة ، وكذلك كان طويل القوام ، متين البنيان ، ذا جسد جدير بأن يأوى روحه !

هذا الشخص الذى أوتى قلبا يشبه رأسه حكمة وعقلا ، كان على بصيرة بالناس ، وقد كان صديقا لى .. وهذا كل ما أقول لمن هو ليس من أصدقائى . ولقد توثقت صلتنا ، حتى لقد فكرنا فى أن نقضى عمرنا معا ، فإذهب - بعد سنوات - إلى (أسكويشيا) لأعيش معه فى ضيعته . ولقد دبرت جميع

اجزاء هذا المشروع - فيما بيننا - في اليوم السابق على رحيله . ولم يعد ينقصنا سوى ذلك الذي لا يملكه الإنسان لنفسه في مشروعاته ، مهما يحسن تدبيرها . . فلقد قدر للأحداث بعد ذلك - وأعني مصائبى ، وزواجه ، وموته في النهاية - أن تفرق بيننا إلى الأبد ! . . وما أجدر المرء بأن يقول إنه لا نجاح إلا للخطط السوداء التى يدبرها اللئام . . أما المشروعات البريئة التى يدبرها الطيبون ، فانها لا تكاد تتحقق قط !



ولما كنت قد تنوقت متاعب العمل في خدمة الغير ، فقد عقدت العزم على ألا أعرض نفسى لذلك مرة أخرى . ذلك اننى رأيت أن خططى الطموحة التى أغرقتى الظروف بتدبيرها كانت تنقلب رأسا على عقب بمجرد مولدها ، وثبطت رغبتى في العودة إلى مهنة بدأتها بمثل هذا النجاح ، ولكننى - رغم ذلك - طرقت منها . . ومن ثم فقد آليت على نفسى ألا ألحق ثانية بخيبة أحد ، وأن أظل مستقلا ، فأستغل مواهبى التى كنت قد بدأت - أخيرا - أقدر مداها ، والتى كنت - حتى ذلك الحين - لا أنظر إليها إلا في تواضع . لذلك استأنفت العمل في « الأويرا » التى كنت قد انصرفت عنها نظرا لرحيلى إلى (البنديقية) . ولكى أفرغ إليها في أقصى هدوء ممكن - عقب رحيل « التونا » ، فقد عدت إلى الإقامة في فندقى القديم - « سان كينتان » - الذى كان يقع في حى منعزل ، يبعد قليلا عن (لوكسمبورج) ، فكان لذلك أكثر ملاءمة - لتمكينى من العمل في هدوء - من المسكن القائم في شوارع

(سانت أنوريه) الصاخب . وهناك وجدت في انتظاري السلوى الحقيقة التى أذاقتهى السماء فى شقوتى ، والتى كان لها وحدها فضل تمكينى من أن أحمل تلك الشقوة . ولم تكن هذه السلوى معرفة عابرة ، ومن ثم فلا بد لى من الإقدام على بعض الاسهاب فى بيان الطريقة التى نشأت بفضلها .

فلقد أوتينا فى الفندق مضيضة جديدة من (أورليان) ، اختارت للعناية بالغسيل فتاة من بلدها ، فيما بين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين من عمرها ، كانت تتناول الطعام معنا ، شأنها فى ذلك شأن المضيضة . وكانت هذه الفتاة - المسماة تيريز لافاسير - من أسرة طيبة ، فقد كان والدها مراقب العملة فى أورليان ، وكانت أمها تاجرة . وكان الأبوان كثيرى العيال . ولما كنت دارسك النقود - فى أورليان - من العمل ، وجد الأب نفسه على قارعة الطريق ، بلا عمل . . فى حين أن الأم أفلست ، وتخبطت فى أعمالها ، وانتهت إلى التخلّى من تجارتها ، فجاءت إلى باريس مع زوجها وابنتها التى أخذت تعمل ثلاثتهم من عملها !

وعندما رأيت هذه الفتاة على المائدة للمرة الأولى ، أخفت بمسلكتها المحتشم . وزادتنى دهشة نظراتها الوثابة اللطيفة ، التى بدت لعينى - إذ ذاك - نادرة المثال . وكانت الطلة التى تجتمع حول المائدة تضم - إلى جانب السيد دى بونفون - عدة من القساوسة الأيرلنديين والجسكونيين ، وبعض أفراد آخرين على شاكلتهم . وكانت مضيفتنا نفسها زعيمة الفوضى فى حياتنا ، فى حين أننى كنت الوحيد الذى اعتاد أن يتكلم وأن

يتصرف في وقار واحتشام . ولقد عاكسوا الفتاة المسكينة ، فتوليت الدفاع عنها ، فإذا بالساحرين ينقلبون على . ولو أنني لم أحس بميل طبيعي نحو الفتاة المسكينة ، لكان الشعور بالاشفاق ، بل والمعارضة ، كفيلا بأن يخلق هذا الميل ، فقد كنت أعجب بالاحتشام في الأقوال والأفعال ، لا سيما لدى الجنس الآخر . ومن ثم غدوت جهارا نصير الفتاة . ورأيت أنها قد تأثرت بعطفى ، وأن نظراتها أخذت تطفح بعمرمان لم تكن تجرؤ على البوح به ، مما كان يزيدنى لباقة وطلاقة لسان!

ولقد كانت شديدة الخجل ، وكذلك كنت أنا . وسرعان ما نمت الرابطة التى لاح أن هذا التشابه في الطباع كان خليقا بأن يعوقها ! .. واهاج ذلك مضيعة الفندق — إذ لاحظته — فإذا به يسلكها الفظ يزيد من تطور علاقائى مع الصغيرة التى لم يكن لها سوى نصير في الدار ، ومن ثم ماتها كانت ترمقنى فى أسى إذا خرجت ، وتتنهد فى ارتياح إذا ما عاد حاميا ! .. وما لبثت تجاوب قلبينا وتشابه طباعنا أن أحدثا أثرهما المعتاد ! .. فقد خيل للفتاة أنها رأت فى شخصى رجلا شريفا ، ولم تكن مخطئة فى ذلك ! .. ولقد خيل إلى أننى أرى فيها فتاة مرهفة الحس ، بسيطة ، خالية من الخلاعة ، ولم أكن — بدورى — مخطئا فى ذلك ! .. ولقد أنبأتها — منذ البداية — بأننى لن أهجرها قط ، ولن أتزوجها إطلاقا ! .. وكان الحب ، والاحترام ، والاخلاص الصادق هم رسل فوزى ، وذلك لأن قلبها كان رقيقا ، أمينا ، مما جعلنى سعيدا دون ما حاجة إلى أن أكون جريئا !

ولقد أدى خوفها من أن استاء إذا لم أجدها لديها ما كانت

تعتقد أنني أنشده ، إلى تأخير هنائي أكثر من أي شيء آخر .
ورأيت أنها كانت مضطربة مرتبكة قبل أن تسلمني نفسها ،
مشوقة إلى أن تمكنني من أفهمها ، دون أن تجرؤ على الإيضاح
بنفسها . وإذا كنت بعيدا عن أن أحسس السبب الحقيقي
لحرجها ، فأنني مزوته إلى سبب جـد خاطيء ، وجد مهين
لشخصها وأخلاقتها . لقد اعتقدت أنها كانت ترمي إلى أن
تشبهني إلى أن صحتي قد تتعرض للأخطار ، وأوقعني هذا في
كثير من الحيرة ، التي لم تصدني عنها ، ولكنها سميت هنائي
أياما عديدة . وإذا عز على كل منا أن يفهم الآخر ، فإن أحاديثنا
في هذا الصدد كانت الغازا وأحاجي تدعو إلى أكثر من الضحك ،
حتى لقد كانت الفتاة موشكة أن تظنني معتوها ، كما أنني كنت
لا أكاد أعرف لنفسى رأيا فيها . وأخيرا تصارحنا . واعترفت
لي — وهي باكية — بـزلة وحيدة تعرضت لها وهي تغادر مرحلة
الطفولة ، وكانت ثمرة جهلها ودهاء الشخص الذي اغواها .
وما أن فهمتها حتى صحت في اغتباط : « البكرة ! .. جميل أن
ترتجى في باريس ، وفي سن العشرين ! .. آه ! يا تيريزي ، أنني
لجد سعيد بأن أحظى بك حكيمة سليمة ، ولا أجـد نيك ما لم
أكن أنشده ! » .



ولم أكن أسعى في البداية لغير العبث ، ولكنني ما لبثت أن
تبينت أنني وجدت أكثر من ذلك ، وأنني أوتيت زميلة ! .. فنان
قليل من الألفة مع هذه الفتاة الرائعة ، وقليل من التأمل في
موقفى ، جعلاني أشعر أنني — في الوقت الذي لم أكن أكرمه

في غير ملذاتى — قد خطوت خطوات كثيرة في تدعيم هنائى .
 كان لا بد لى من عاطفة محتدمة تحتل محل طموحى الخابى ،
 فتملأ فؤادى . وقصارى القول أننى كنت بحاجة إلى خليفة
 لما . . ولما كنت مضطرا إلى الا اعاود العيش معها قط ،
 فقد بات من المحتوم ان ابحث عن تعيش مع تلميذها ، وعن
 اجد لديها من البساطة ورقة القلب ما كانت تجده لدى . وكان
 لا بد لى من نعيم الحياة الخاصة والفة المعاشرة ، لنعوضنى عن
 المهنة اللامعة التى كنت قد نبذتها . . كنت إذا ما خلوت بنفسى
 وحيدا ، أشعر بقلبى خاويا ، لا يمكن أن يملأه سوى مخلوق
 آخر . . وكان القدر قد حرمنى من تلك التى خلقتنى الطبيعة من
 أجلها ، أو اقصأتى عنها على الأمل . ومن ذلك الحين ظلت
 وحيدا ، إذ أننى لم أعرف فى حياتى قط وسطا بين كل شيء أو
 لا شيء (١) . ولقد وجدت فى تميز العوض الذى كنت بحاجة
 إليه ، فعشت بفضلها سعيدا بقدر ما سمحت تطورات
 الأحداث !

ورغبت — فى البداية — فى أن أشكل ذهنها ، فهددت فى ذلك
 جهودى ، إذ ظل ذهنها كما صاغته الطبيعة ، ولم يكن للثقافة
 والتعليم تأثير عليه . ولست أخجل إطلاقا من أن أعترف بأنها
 لم تتعلم البتة كيف تجيد القراءة ، وإن لم يكن ثمة بأس بكتابتها .
 وعندما انتقلت للسكنى فى شارع (نيف ديه بيتى شاب) ؛

(١) يريد أن يقول أنه أحزن أن يقل كل شيء ، أو ألا يقل شيئا على



ورغبت - في البداية - أن اشكل لهنها ، فبدأت في ذلك جهودي الذ قل
لهنها كما صالته الطبيعة ، ولم يكن للثقافة والتعلم تأثير عليه .

كانت هناك — أمام نوافذى فى فندق بونشارتران — ساعة اضطرت إلى أن اقضى أكثر من شهر فى تدريب تميز على تعرف الوقت عليها . ومع ذلك فإنها لا تكاد — حتى الآن — تحقق ذلك . ولم تستطع يوما أن تذكر أشهر السنة الاثنى عشر بترتيبها الطبيعى ، كما أنها لم تعرف رقما واحدا ، برغم كل العناية الذى تجشمته كى أعلمها الأرقام . نهى لا تستطيع أن تعد النقود ، أو أن تحسب ثمن أى شيء . . أما الكلمات التى تستخدمها فى الكلام ، فكثيرا ما تكون نقائص ما تريد قوله بالذات ! . . ولقد أعددت مرة قاموسا لتلك العبارات ، كى أسرى من مدام « لوكسمبورج » ، فإذا أخطأها تذيع فى المجتمع الذى كنت أعيش فيه . بيد أن هذه الفتاة كانت مستشارا رائعا فى المناسبات العصبية ، برغم ضيق عقلها إلى هذا الحد، أو برغم غيابها إن شئتم . . وكثيرا ما كانت ترى فى المحن التى كنت أجدنى فيها — فى سويسرا أو إنجلترا أو فرنسا — ما لم أكن أراه أنا نفسى ، فكانت تحضنى من النصيح خير ما ينبغى أن أتبع ، وكانت تنتزعنى من أخطار كنت أندفع إليها كالأعمى . . وفى حضور أرقى السيدات ، وفى محضر العظماء والأمراء ، كانت مشامرها وأراؤها الجيدة وإجاباتها ومسلكتها تنتزع لها التقدير العام ، وتجلب من التهتة — لطيف خصالها — ما كنت أشعر بصدقتها !

والعاطفة — فى قرب المحبوب — تغذى العقل كما تغذى الفؤاد ، فلا يعود لبنة داع للبحث عن الأمكار فى أى مكان آخر ! . . ولقد عشت مع تميز فى خير ما كنت خليقا بأن أعيش آخر ! (٧٢ - اعترافات - ج ٢)

فيه مع أجمل عبقرية في الكون . ولقد حاولت أمها — التي كانت تلغز بأنها تربت في الماضي مع المركيزة دى مونبليو — أن تدمى رجاحة العقل ، ورغبت في أن تتكلم بتوجيه عقل ابنتها ، فأفسدت بحيلها بساطة تعاشرنا . ودفعنى الغيظ من هذه المضايقة إلى أن اتغلب — بعض الشيء — على الحياء الأحق الذى لم أكن أجرو معه على الظهور مع تيريز أمام الملاء ، فأصبحنا نقوم معا بنزهات قصيرة في الريف ، حيث كنا نتناول وجبات بسيطة كانت تلذ لى . ولقد تبينت أنها كانت صادقة في حبها لىاي ، مضاعف هذا من حنانى . ولقد عوضنى هذه الألفة الناعمة من كل شيء ، ولم يعد المستقبل يشغلنى ، أو بالأحرى أنه أصبح لا يشغلنى إلا كامتداد للحاضر ، إذ أننى لم أعمد اشتى سوى أن أطمئن إلى بقاء هذا الحاضر !

وأتت هذه العلاقة إلى أن أصبحت كل الملاحى الأخرى نفايات عقيمة ، فلم أعد أغادر مسكنى إلا لأذهب إلى تيريز ، وبات مسكنها مقرى تقريبا . ولقد صارت هذه الحياة المنعزلة عظيمة النفع لعملى ، حتى أن « الأوبرا » التى كنت عاكفا على تأليفها ، اكتملت — كلاما وموسيقى — في أقل من ثلاثة أشهر . ولم تبق سوى بعض الحان تكميلية وبعض الحان لتصحب المناظر . وقد ضايقتنى هذا كثيرا ، فعرضت على « فيليدور » أن يتولاه في مقابل نصيب من الريح ، نجاء مرتين ، وأضاف بعض الحشو إلى الفصل الخاص بالشاعر « أوفيد » ، ولكنه لم يستطع أن ينصرف إلى هذا العمل — الذى كان يتطلب مثابرة — في مقابل ربح بعيد وغير مضمون . ومن ثم لمئه لم يعد ، واكملت عملى بنفسى .

وإذ اكتملت « أوبراى » ، آن لى أن أحصل من ورائها بعض الدخل، وكان هذا — فى حد ذاته — « أوبرا » أخرى ، أشد عناء . . . فليس من سبيل إلى بلوغ غاية فى باريس ، إذا كان المرء يعيش فى عزلة . ولقد فكرت فى أن أستعين بالسيد ديلابولينيير ، الذى قدمنى إليه جوفكور فى داره ، عند عودتى من جنيف . وكان السيد ديلابولينيير هو نصير^(١) رامو ، إذ كانت السيدة ديلا بولينيير تلميذة هذا المتواضعة ، المتأنية فى الطاعة ، ومن ثم فقد كان « رامو » هو المطر والصحو^(٢) فى هذا المنزل ، كما ينبغى أن يقال ! . . . ولقد ظننت أنه قد يغتبط بأن يساند عملا من ابتكار أحد تلاميذه ، فرغبت فى أن أريه مؤلفى ، ولكنه أبى أن يراه ، قائلا إنه لم يكن يستطيع أن يقرأ مقطوعات ، إذ أن هذا كان يتعبه كل التعب . وعقب لابولينيير على ذلك بأن فى الوسع حمله على الإصفاء ، وعرض أن يجمع موسيقيين لأداء بعض القطع ، ولم أكن أرجو أفضل من هذا . . . ووافق « رامو » وهو يزمجر ، ودون أن يكف عن أن يردد أن الألحان التى يضعها رجل لم ينشأ فى جو موسيقى ، وإنما تعلم الموسيقى بنفسه دون ما عون ، لأبد وأن تكون شيئا بديعا ! . . . وأسرعت أنسخ أودار خمس أو ست من أحسن المقطوعات ،

(١) النصير المقصود هنا ، هو الرجل ذو الجاه والمال ، الذى يرمى أدبيا

أو ملثما ويبلل له يد المون .

(٢) تعبير لمرسى معناه أن يكون الشخص ذا حظوة ومكانة ، بحيث يفتب

أهل البيت لغضبه ويسرون لسروره . ويقابله فى التعبير الدارج متدنا ما يقال من أن شخصا هو « الكل فى الكل » .

وتهياً لى اثنا عشر من العازمين ، بينما تولى الغناء البرت ، وبرا ، والآنسة بوردونيه . وما أن بدأ لحن الافتتاح ، حتى رمى « رامو » — بإطنابه فى المديح — إلى الإيحاء بأن اللحن ما كان ليتمكن أن يكون من تأليفى . ولم يدع مقطوعة تمر دون أن يبدى إمارات البرم ونفاد الصبر . ولكنه لم يلبث أن عجز عن تمالك نفسه عند سماع أغنية بصوت « كونترتينور » — كان أداؤها قويا محكما ، والموسيقى المصاحبة لها رائعة — فخطبني فى خشونة ذهل لها الجميع مستنكرين ، وأعلن أن جزءا مما سمع كان من عمل رجل أفنى فى الفن عمره ، فى حين أن الباقي من عمل جاهل لم يكن على إلمام بالموسيقى ذاتها ! .. ومن الصحيح أن مؤلفى كان غير متناسق وعلى غير قاعدة ، ومن ثم فقد كان رفيع القيمة فى بعض أجزائه ، وعقيبا فى بعض آخر ، شأن العمل الذى يقوم به كل امرئ لا يرقى بنفسه إلا بمعونة بعض ومضات من العبقرية ، دون ما سند من العلم . وزعم « رامو » أنه لم يكن يرى فى شخصى سوى سارق صغير ، لم يؤت أية موهبة ولا أى ذوق ! .. ولكن العازمين ، ورب الدار — بوجه خاص — لم يشاركوه رأيه . ولقد سمع السيد دى « رشيلىو » — الذى كان يكثر إذ ذاك من زيارة رب الدار ، والسيدة دى بوبلينير ، كما هو معروف — بحديث مؤلفى ، فرغب فى أن يسمع « الأوبرا » بأكملها ، معتزما أن يعمل على عرضها فى البلاط إذا راقته له . ومن ثم مثلت « الأوبرا » — بكامل ما كانت تتطلب من مغنيين وموسيقين — على نفقة الملك ، فى دار السيد بونيفال ، الموكل بالحفلات الملكية . وقام « فرانكير » بالإخراج .. ولقد كانت النتيجة مدهشة ، حتى أن السيد الدوق دى

« ريشيليو » لم يكف عن الصباح والتصفيق . وفي نهاية اغنية جماعية — في الفصل الخاص بتاس — نهض وجاعنى فصالحنى قائلا : « هذا هو اللحن الذى يشجى ، يا سيد روسو ! .. ما سمعت قط أجمل منه ، وإنى لأود أن أقدم هذه التحفة فى فرساي ! » . ولم تنبس السيدة دى بولينبير — التى كانت حاضرة — بكلمة واحدة . أما « رامو » ، فبالرغم من أنه دعى ، إلا أنه لم يثأ أن يحضر .

وفي اليوم التالى ، استقبلتنى مدام بولينبير — فى غرفة زينتها — استقبالا شديدا الجفوة ، وتعمدت أن تحط أمانى من شأن مؤلفى ، وقالت لى إنه بالرغم من أن بعض الوهبى الزائف قد بهر السيد دى « ريشيليو » ، إلا أنه قد ثاب إلى نفسه ، ونصحتنى بالآ أعول كثيرا على أوبراى ! .. وأقبل السيد الدوق بعد قليل ، متحدث إلى بلهجة تخالف ذلك تماما ، إذ أطرى مواهبى ، وبدأ مصرا على أن يعمل على عرض مؤلفى على مشهد من الملك . وقال : « ليس هناك ما لا يمكن أجازته فى البلاط ، سوى الفصل الخاص بتاس ، فعليك أن تكتب فصلا غيره ! » . وكانت هذه العبارة وحدها حافزا دفعنى إلى أن أذهب إلى دارى ، فاحتبس نفسى . وفى غضون ثلاثة أسابيع ، استطعت أن أضع فصلا يحل محل فصل « تاس » ، ويكن موضوعه « هيسود (١) يتلقى الإلهام من إحدى عرائس خياله » .

(١) هيسود : كان شامرا اغريقيا تناول الحياة بالبحث والتحليل ، محاولا أن يضع دستوراً أخلاقياً بكل الحب والسلام . وقد قدم « كتابى » — فى المجلد ٥٥ — سيرته وملخصاً لأعظم رسائله : « الأيام والأعمال » .

واهتديت إلى طريقة خفية مكنتني من ان أدرس في هذا الفصل قسطا من تاريخ مواهبى وقصة الغيرة التى راق لرامو أن يكرم بها هذه المواهب . ولقد كان في هذا الفصل الجديد سمو اقل جبروتا واكثر تمسكا وإحكاما مما كان في الفصل الذى كان يدور حول « تاس » . وكذلك كانت الموسيقى أروع وأرقى ، ولو ان الفصلين الآخرين كانا معادلين لهذا ، لقدر للأوبرا ان تعرض بنجاح . بيد أن مشروعا آخر عرض لى — فيما كنت اقوم بصقل الفصل وتنقيحه — فأرجأت أداء هذه المسرحية !

من سنة ١٧٤٥ إلى سنة ١٧٤٧

أقيمت في (فرساي) — في الشتاء الذى أعقب معركة دى فونتينو — حفلات كثيرة ، كان بينها عدة أوبرات عرضت في مسرح ال « بيتيت ايكورى » . وكان بين هذه مسرحية مولير ، التى كانت تحمل اسم « أميرة نافار » ، والتى نظم رامو موسيقاها . وقد عدلت وبذل اسمها إلى « أعياد رامير » . وقد تطلب تغيير الموضوع عدة تحويرات في الاغاني والرقصات التى كانت في « الدراما » السابقة ، سواء من حيث التركيب الشعري أو التركيب الموسيقى . واستدعى هذا البحث عن شخص يؤدى هذه الغاية المزوجة ، إذ ان مولير كان — إذ ذاك — في (اللورين) ، وكذلك كان رامو . وكنا منهيكين معا في أوبرا « معبد المجد » (١) ، فلم يكن في وسعهما ان يعنيا بالتحويرات المنشودة . ومن ثم فلن السيد دى ريشيليو تفكرنى ، وعرض

على أن أقوم بالمهمة .. ولكى أحسن تبين ما ينبغى عمله ، أرسل إلى كلا من الشعر والموسيقى على حدة . ولم أئثأ — قبل كل شيء — أن أمس الفاظ المسرحية دون موافقة المؤلف ، فكتب إليه فى هذا الصدد ، رسالة جد أمينة ومحترمة — فى الوقت ذاته — وفقا لما كان يتطلبه الظرف . وها هو ذا رده ، الذى يوجد الأصل الخطى له ، فى ملف الأوراق « ١ » ، رقم (١) :

« ١٥ ديسمبر سنة ١٧٤٥ .

« إنك لتجمع يا سيدى بين موهبتين كانتا — حتى اليوم — منفصلتين دائما . وهما سبيلان كافيان لحلى على أن أقدرك وأن أسعى إلى أن أحبك . وإننى لفى هم من أجلك ، إذ تستخدم هاتين الموهبتين فى عمل غير جدير بهما كل الجدارة . فمبذ بضعة أشهر ، طلب إلى السيد الدوق دى ريشيليو — طلبا جازما — أن أعد ، فى لمح البصر ، مسودة صغيرة غير دقيقة ، لبضعة مناظر نافهة وناقصة ، تتمشى مع أغنان ورقصات لا ثلاثها إطلاقا . وقد صدعت برغبته بخذايرها ، ورحت أعمل فى سرعة فائقة ، ودون ما إجادة . ثم أرسلت هذه المسودة التعسة إلى السيد الدوق دى ريشيليو ، وأنا موقن من أنه لن يستخدمها ، ومن أننى لن أضطر إلى تصحيحها . ولحسن الحظ أنها بين يديك ، فلك أن تفعل بها كل ما تشاء ، إذ أننى قد أقصيتها تماما عن ذهنى . ولست أرتاب فى أنك ستفتح كل الأخطاء التى لا بد من أن تكون قد أفلتت منى فى تعجل تأليف التصميم البسيط ، نأئك قد ملأت كل نقص !

« وإننى لا أنكر أن من السهوات التى تنم عن طيش ، أننى نسيت أن أوضح فى هذه المناظر — التى تربط بين الأغاني والرقصات — كيف تنتقل الأميرة نجاة من سجن إلى حديقة أو قصر . وإذا لم يكن الشخص الذى أقام الحفلات لتكريمها ساحرا ، وإنما كان سيذا إسبانيا ، لذلك يبدو لى أنه لا ينبغي أن ندع للسحر مجالا . فأرجو أن تتكرم يا سيدى بإعادة النظر فى هذا الجزء الذى لا أحتفظ له بأكثر من فكرة مهتزة . وانظر ما إذا كان من الضرورى أن تفتح أبواب السجن ، وأن تنقل أمرتنا من هذا السجن إلى قصر جميل مذهب ومصقول ، يعد من أجلها . . . إننى لأعرف تمام المعرفة أن الأمر كله زرى للغاية ، وأنه ليس مما يليق بأى كائن مفكر أن يحمل هذه التفاهات على محل الجد ، ولكن . . . بما أن علينا ألا نسبب من الأشياء إلا أقل ما يستطيع ، فمن الواجب أن نبذل من العقل قدر المستطاع ولو كان ذلك فى أوبرا غنائية راقصة رديئة .

« إننى أدع لك وللسيد بالوكل شيء ، واعتقد أننى لن ألبث أن أتشرف بأن أقدم لك آيات شكرى عنها قريب ، وبأن أؤكد لك يا سيدى ، إلى أى مدى يشرفنى أن أكون . . . الخ » .

ولا يعجبني المرء لما فى هذا الخطاب من أدب جم — إذا قيس بخطابات فولتر نصف المهذبة التى كتبها لى بعد ذلك الحين — فقد كان يظننى ذا حظوة كبيرة لدى السيد دى ريشيليو ، محمله الرئاء المرن على أن يبدي كثيرا من الاعتبار للوفاة الجديد على البلاط ، ريثما يزداد معرفة بمدى مكانته !

وإذ حصلت من السيد دى مولتير هذا السلطان ، وأعفيت من كل اعتبار لرامو — الذى لم يكن له من هدف سوى الإساءة إلى — فأننى جكفت على العمل — ولم ينقض شهران حتى كانت مهمتى قد أنجزت . ولم يكن الشعر سوى مهمة بسيطة ، إذ كان همى الأوحده هو أن اتفادى أن يكون تباین الأسلوب ملحوظا ، ومن حقى أن أعتقد أننى قد وفقت . أما مهمتى — فى الناحية الموسيقية — فقد تطلبت مزيدا من الوقت والجهد ، فضلا من أننى اضطررت إلى أن أؤلف عدة قطع للمقدمات ، منها اللحن الافتتاحى ، وكل الحان الإلقاء الغنائى^(١) التى تكلفت بها فوجدتها بالغة الصعوبة ، إذ كنت مضطرا إلى أن أربط نغمات سيمفونية وصوتية متباينة الطبقات ، بقليل من السطور — فى كثير من الأحيان — وبوساطة أنغام سريعة جدا . ذلك لأننى عهدت عزمى على ألا أغير أو أهدل لحننا واحدا ، حتى لا يتهمنى رامو بإفساد الحانه الأصلية . ولقد وفقت فى هذا الإلقاء الغنائى . فكانت النبرات واضحة ، مليئة بالقوة ، رائعة فى تناسق نغماتها ، بوجه خاص . ولقد أدى التفكير فى هذين العظيمين اللذين حظيت بشرف الاشتراك معهما — على هذا النحو — إلى رفع روحى المعنوية ، وبوسعى أن أقول إننى فى هذا العمل الذى لم يكن لى من ورائه حمد ولا مجد ، والذى لم يكن مقدورا للرأى العام ذاته أن يعلم بفضلى فيه — حافظت دائما على مثلى ومستواى !

(١) المبهمات التى طغى بالغناء ، دون أن تكون شعرا موزونا .

ولقد أجريت التجارب على المسرحية — بالشكل الذى نقحتها إليه — فى مسرح « الأوبرا » الكبير . ووجدتني الوحيد الحاضر من المؤلفين الثلاثة . فقد كان فولتير متغيبا ، فى حين أن رامو لم يحضر ، أو لعله تعمد أن يتوارى . وكانت كلمات المناجاة (١) الأولى ملمعة بالأسى وهذا مطلعها :

« ألا أيها الموت تعال ، فاختم نعاسات حياتي ! » .

وكنت مضطرا إلى أن أضع موسيقى تتماشى معها ، ومع ذلك فإن هذه الفاتحة هى التى خصتها السيدة ديلا بوبلينير بنقدها، إذ اتهمتني — فى تحامل — بأننى وضعت لحنًا جنائزيا . وبدأ السيد دى ريشيليو بأن يسأل — فى إنصاف — عن كتب كلمات المناجاة، فاطلعت على المخطوط الذى كان قد أرسله إلى، والذى أثبت أنها من وضع فولتير . فقال : « ان المخطيء — فى هذه الحال — هو فولتير وحده » . وظل كل ما فعلت معرضا — خلال التجربة — لاستهجان السيدة ديلا بوبلينير ، ولانصاف السيد دى ريشيليو . على أننى ما لبثت أن تبينت أن التحامل كان شديد الوطأة ، فقد أشير على بتنقيح عدة أشياء فى مؤلفى ، كن لا بد من استشارة السيد رامو بشأنها . وأكرمنى أن تكون هذه هى النتيجة ، بدلا من الاطراء الذى كنت أرتقبه ، والذى كنت جديرا به يقينا . فعدت إلى بيتى بقلب مثقل . . وسقطت مريضا ، وقد هدنى الإعياء ، وراح الأسى ينهشنى . . وظللت ستة أسابيع لا أقوى على الخروج !

(١) المونولوج : وهو الحديث الفردى الذى يلقيه المرء لنفسه .

وأرسل رامو — الذى وكلت إليه التعديلات التى أشارت إليها السيدة ديلا بوبلينيرا — يطلب إلى المفتاحية « أوبراى » الكبرى ، ليضعها فى مكان تلك التى وضعتها . ومطفت — لحسن الحظ — إلى الحيلة ، فرفضت . ولم يكن قد بقى على موعد تقديم المسرحية الأخرى أكثر من خمسة أيام أو ستة ، فلم يكن لديه وقت لتأليف افتتاحية ، واضطر إلى أن يترك تلك التى كنت قد وضعتها من قبل . . وكانت على النسق الإيطالى ، ومن نوع كان جديدا تمام الجدة على فرنسا ، فى ذلك الوقت . ومع ذلك فإنه لقى استساغة ، وسمعت من السيد دى « المالىيت » — رئيس ديوان الملك ، وزوج ابنة السيد موسار ، وكان قريبا وصديقا لى — أن هواة الفن أبدوا كل الرضى من مؤلفى ، وأن الراى العام لم يستطع أن يفرق بينه وبين إنتاج رامو . غير أن هذا اتخذ من الإجراءات — بالتواطؤ مع السيدة ديلا بوبلينير — ما يحول دون معرفته أننى قد ساهمت فى تلك القطعة . فعلى المكتب (١) التى توزع على النظارة ، والتى تثبت فيها دائما أسماء

(١) يقصد الكتاب الذى يشتمل على برنامج الحفلة وموجز التمثيلية . وما يذكر أن هذا الكتاب لم يحمل اسم مؤلف الحوار ، ولا مؤلف الموسيقى . وإنما أورد فقط اسم « لامل » مؤلف « المبالية » . وقد عرضت التمثيلية فى (موساى) فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٧٢٥ ، أى بعد سبعة أيام فقط من اليوم الذى كتب فيه « مولير » رسالته . وقد ذكر « روسو » — فى الفترة السابقة — أن « رامو » طلب افتتاحية « عرائس أحلام الشراء » قبل هذا انعرض بخمسة أيام ، فكانه أنجز التعديلات فى حوالى يومين^١

المؤلفين ، لم يذكر سوى اسم فولتير . وآثر رامو إغفال اسمه على أن يرى اسمي مقترنا به !

وما أن تمكنت من مغادرة دارى ، حتى رغبت فى زيارة السيد دى ريشيليو . ولكن الفرصة كانت قد فاتتني ، إذ أنه كان قد رحل إلى (دنكرك) ، حيث كان عليه أن يشرف على رحيل الحملة التى كانت موجهة إلى ايقوسيا (اسكتلندا) . ولما عاد، قلت لنفسى — لأبرر كسلى — إن المناسبة قد انقضت . وبما أننى لم أجد أراه منذ ذلك الحين ، فقد أضعت على نفسى التكريم الذى كان مؤلفى يستحقه . . التكريم الذى كان جديرا بأن يدره على . ومن ثم لم أن وقتى ، وعملى ، وحزنى ، ومرضى والنقود التى كلفنيها . . كل هذا تكبدته دون أن يعود على بـ « سو » واحد ، بل ودون أى تعويض . ومع ذلك فقد اعتدت دائما أن أرى أن السيد دى ريشيليو كان ميالا بطبعه نحوى ، وكان يحسن الظن بمواهبى ، ولكن نحسى والسيدة ديلا بوبلينير حالا دون كل نتيجة لحسن طويته !

وما استطعت قط أن أنهم سر كراهية هذه المرأة التى كنت أغضب نفسى على إرضائها ، والتى اعتدت أن أثابر على أن أبدى لها مجاملتى . ولقد شرح لى « جوفكور » الأسباب ، فقال : « هناك — أولا — صداقتها لرامو ، الذى كان يحظى علنا برعايتها ، والذى لم يكن يحتمل أية منافسة . . ولموق ذلك ، كان ثمة ذنب جوهرى يصمك فى نظرها ، ولن تغتفره لك أبدا . . ذلك هو أنك جنينى ! » . . وهنا بين لى أن الراهب « هوير » — الذى وقد هو الآخر من (جنيف) ، والذى كان

صديقا صدوقا للسيد ديلا بوبلينير — كان قد بذل قصارى وسعه ليصده عن الزواج من هذه المرأة التى كان يعرفها تمام المعرفة ، والتى حرصت — بعد الزواج — على أن تولى كل جنينى كراهية لا سبيل إلى مغالبتها . وأردف جوفكور قائلا : « ومع أن لابوبلينير يكن لك ودا — أنا موثق منه — إلا أنه ليس لك أن تعتمد على مؤازرته ، فهو مدله فى هوى زوجته ، وهى تكرهك .. وأنها لخبثة ، ملكرة .. ولن يكون لك شأن فى هذا المنزل » . وأدركت ما كان يرمى إليه !



ولقد أدى لى جوفكور هذا خدمة أخرى — حوالى ذلك الوقت — كنت فى حاجة ماسة إليها . فلقد فقدت أبى الفاضل ، وقد ناهز الستين من عمره . ولم أشعر بقسوة هذا المصاب كما كنت خليقا بأن أحس بها فى الماضى ، عندما لم تكن الضائقات تشغل بالى بمثل ما كانت تشغله فى هذه الآونة . إذ أننى لم أحاول قط — خلال حياته — أن أطلب ببقية تركة أمى التى كان يحصل دخلها البسيط . أما بعد موته ، فلم يداخلى تردد بهذا الشأن ، ولكن عدم توفر دليل قضائى على وفاة أخى كان مقبة أخذ جوفكور على عاتقه عبء إزاحتها ، وقد أزاحها فعلا بفضل مساعى الحامى « دى لولم » . ولما كنت فى حاجة ملحة إلى هذا المورد الضئيل ، وكأنت المسألة محوطة بالريب ، فقد رحت أنتظر نبأ حاسنها فى صبر نلقد وظهف . وفى ذات مساء ، وجدت ، إذ أبت إلى مسكنى — الرسالة التى كان منتظرا أن تشتمل على هذا النبأ ، فتناولتها لأنضها ، وأنا

ارتجف في لهفة خجلت منها في سريرتي ، وقلت لنفسى في ازدياء :
« ويعد ؟ ! .. أينساق جان جاك لسلطان المصلحة الخاصة
والفضول إلى هذه الدرجة ؟ » .. ووضعت لغورى الرسالة
على رف المدفأة ، ثم خلعت ثيابى ، وأويت إلى فراشى في هدوء ،
محظيت بنوم يفوق ما اعتدت .. ثم صحت في اليوم التالى
متأخرا ، دون أن أعود إلى التفكير في الرسالة . وفيما كنت
أرتدى ثيابى ، لمحتها مفضضتها في غير تعجل ، ووجدت فيها
حوالة مالية . وساورتنى كثير من الأفكار السارة - في آن
واحد - ولكن بوسعى أن أقسم أن أقواها جميعا كانت تلك التى
نبهتنى إلى انتصارى على نفسى . واستطيع أن أذكر عشرين
من أمثال هذه المناسبة في حياتى ، ولكنى لا أجد وقتا لى
أروى كل شيء . ولقد أرسلت قسطا بسيطا من هذه النقود
إلى « ماما » وأنا أبكى حسرة على الأوقات السعيدة ، التى كنت
فيها على استعداد لأن ألقى بكل شيء عند قدميها ! .. كانت كل
رسائلها توحى بضيقها . ولقد أرسلت لى أكواما من الوصفات
والأسرار التى كانت تزعم أن بوسعى أن أجمع بها ثروة لى ولها .
ولقد كان مجرد التفكير في فاقتها يعصر قلبى ويضيق أفق عطفى .
وكان القليل - الذى اعتدت أن أرسله إليها - يقع في أيدى
الأثقال الذين كانوا يحيطون بها ، دون أن تنتفع بشيء منه .
فجعلنى هذا أكره أن أشرك هؤلاء التعساء فيها كانت تمس إليه
حاجتى ، لا سيما بعد المحاولات غير المجدية التى بذلتها لانتزاع
« ماما » من قبضاتهم ، مما سird ذكره فيها بعد .
وانساب الوقت ، وانسابت النقود معه . وكنا اثنين ، بل
أربعة .. بل اثنا كذا سبعة أو ثمانية ، كما يحسن أن يقال .

ذلك لأنه بالرغم من أن « تيريز » كانت زاهدة في أية مصلحة شخصية ، إلى درجة لا يكاد يكون لها مثيل ، إلا أن أمها لم تكن على شاكلتها . فما أن رأت أحوالها تتحسن قليلا — بفضل رعايتي — حتى استدعت كل أسرتها لتشاطرها الغنية . فإذا بالأخوات ، والأبناء ، والبنات ، والأحفاد يمدون جميعا ، ما عدا ابنتها الكبرى ، التي كانت متزوجة من مدير عربات النقل في (انجير) . . وأصبح كل ما أفعله من أجل تيريز ، يتحول بفضل أمها إلى هؤلاء النهمين . ولما لم أكن جشعا ، ولا كنت مستذلا لشهوة مستعرة ، فأننى لم أرتكب أية حماقات . بل إننى في اغتباطى بأن أعول تيريز — في حياة لا بأس بها ، خالية من الترف ، ولكنها في وئام من الحاجة — أقررتها على أن تسلم أمها كل ما كان بوسعها أن تكسبه من عملها . ولم أكن أقتصر على ذلك . . ولكننى استسلمت للقدر الذى كان يتعقبنى . . ففى الوقت الذى كانت فيه « ماما » ضحية لأئذالها ، كانت تيريز ضحية لأسرتها ، ولم يكن بوسعى أن أقدم أى عون يعود بالنفع على تلك التى كنت أقصد نفعها فى الحالين . ولقد كان من العجيب أن صغرى بنات السيدة لوفاسير — وهى الوحيدة التى لم تحظ بصداق من أهلها — هى الوحيدة التى راحت تعول أباهما وأمها . . وأن هذه المسكينة — بعد أن ظلت طويلا تنطق الصفعات من إخوتها وأخواتها ، بل ومن أبناء هؤلاء — أصبحت فريسة لنهبهم ، دون أن تملك لسرقاتهم دفعا يدوق ما كانت تملك من مقاومة لصفعاتهم من قبل . ولم يكن بين أبناء أخوتها سوى واحدة فقط ، تدعى « جوتون ليدوك » ، كانت على قدر من اللطف ورقة الطبع ، برغم ما كان يفسدها من قذوة الآخرين ودروسهم .

ولما كنت كثيراً ما أراهم مجتمعين ، فقد أصبحت أطلق عليهم ما يطلقه بعضهم على بعض من القاب ، فأنا أنادى ابنة الأخ بـ « ابنة أختي » ، والعمة بـ « عملى » . وأصبح الفريقان يناديانى بـ « بيا عمى » . ومن هنا نشأ اسم « العمة » الذى أنادى به تميز باستمرار ، والذى يردده أصدقائى فى بعض الأحيان ، على سبيل المداعبة !



ومن المعلوم أننى لم اضيع لحظة واحدة — فى مثل هذا الموقف — دون أن أحاول أن انتزع نفسى منه ، وإذا حدثت أن السيد دى ريشيليو قد نسينى ، ولم أعد آمل فى شيء من ناحية البلاط ، بذلت بضع محاولات لقبول تقديم أوبراى فى باريس . ولكننى صادفت عقبات كان تذليلها يتطلب وقتاً ، فى حين أن حاجتى كانت تزداد شدة يوماً بعد يوم . ولقد أثير على بأن أقدم تمثيلينى الهزلية الصغيرة « فارسيس » على مسرح الإيطاليين « اوزيتاليان » . فقبلت التمثيلية ، وظفرت بالتردد على المسرح دون مقابل ، مما سرنى كثيراً . ولكن هذا كان غاية ما فى الأمر إذ أننى لم أوفق قط إلى أن أحملهم على إخراج المسرحية . حتى إذا ضقت بمداينة الممثلين الفكاهيين، انصرفت عنهم . ولجأت فى النهاية إلى الحيلة الأخيرة التى بقيت لى ، والتى كان يجب أن تكون الوحيدة الجديرة بأن تتبع . ففهما كنت أتردد على دار السيد ديلا بونلينيير ، ظلمت بعيداً عن دار السيد دوبان . ومع أن ربتى الدارين كانتا على بعض صلاتى القربى ، إلا أنهما لم تكونا على وئام ، ولم تتزاورا قط .

بل لم تكن بين الدارين أية صلة ، وإنما كان « ثيريو » هو الوحيد الذى اعتاد أن يتردد على هذه وتلك . وقد وكل إليه امر السعى إلى حملى على العودة إلى دار السيد دوبان .

وكان السيد مرانكوى ماضيا — فى تلك الأثناء — فى دراسة التاريخ الطبيعى والكيمياء ، وقد أعد لنفسه غرفة للدراسة . واطنه كان يطمح فى عضوية محفل العلوم ، وكان يرغب — فى سبيل ذلك — فى أن يضع كتابا ، وقد خطر له أننى أستطيع أن أكون ذا نفع فى هذا الصدد . وكان للسيدة دوبان — من ناحيتها — رأى مشابه فى شخصى ، كما أنها كانت تفكر فى أن تؤلف كتابا . ومن ثم فقد ودا أن يستأجرانى لأكون أئسبه بسكرتير يتقاسمائه . وكان هذا هو الهدف من مساعى ثيريو . فطلبت — كمربون — أن يستخدم السيد دى مرانكوى نفوذه ونفوذ « جيليو » من أجل تجربة إخراج تمثيلتى فى الأوبرا ، فوافق . وأجريت عدة تجارب لإخراج « عرائس الشعر اللطاف » فى « المخزن » (١) فى بادىء الأمر ، ثم انتقلت التجارب إلى المسرح الكبير . وحضر التجربة الكبرى كثير من الناس ، وحظيت كثير من المقطوعات بتصفيق شديد . على أننى شعرت أثناء الأداء الموسيقى — الذى أساء « ريبيل » الإشراف عليه — بأن هذه التمثيلية لن تلقى قبولا ، بل إنها لن تكون معدة للعرض دون تعديلات كبيرة . وعلى هذا فأننى سحبتها دون ما إيضاح ، ودون أن أمرض نفسى لسماع رفضها . ولكننى رأيت بجلاء ،

(١) العسم الذى كانت تحتفظ به المناظر المسرحية وقيل التمثيل .

ومن عدة بواذر ، أن التمثيلية ما كانت ستجاز ، ولو كانت في اكمل حال . ذلك لأن السيد دى فرانكويى كان قد وعد حقا بأن يهيئ السبيل لتجربتها ، ولكنه لم يعد بأن يضمن قبولها . وقد بر بوعده تماما . ولقد كان يخيل إلى دائما — في هذه المناسبة وفي كثير غيرها — بأنه ومدام دوبان لم يكونا حريصين على أن يدعائى اكتسب شهرة محققة في المجتمع . ولعل ذلك كان راجعا إلى خوفهما من أن يظن — عندما تظهر مؤلفاتهما — أنهما قد شحذا مواهبهما على محك مواهى . ومع ذلك ، فإن السيدة دوبان كانت دائما مقتصدة في رأيها عن كفايتى ، ومن ثم فليتها لم تستخدمنى قط إلا لاكتب ما كانت تليه على ، أو لأقوم لها بأبحاث علمية بحقة ، ومن ثم فإن هذا الظن — فيما يتعلق بها — قد يكون جائرا !

من سنة ١٧٤٧ إلى سنة ١٧٤٩

أدى هذا الفشل الأخير إلى تثبيط عزيمتى تماما ، فهجرت كل أمل في الرقى والمجد ، ولم أعد أفكر في مواهى الحقيقية أو الموهومة ، التى لم تعد على بطائل ، بل كرست وقتى وجهدى لكسب قوتى وقوت تيريزى ، بالشكل الذى راق لذائك اللذين تكفلا بتمكينى من ذلك . ومن ثم فأننى تفرغت تماما للسيدة دوبان والسيد دى فرانكويى . ولم يدفعنى هذا إلى سعة من العيش موهورة .. فإن المرتب الذى تقاضيته في العامين الاولين — وكان ثمانمائة أو تسعمائة فرنك سنويا — كان لا يكاد يوفر لى حاجاتى الاولى . إذ اننى كنت مضطرا إلى الإقامة على مقربة منها ، في حجرة مؤثثة ، بحى من الاحياء التى تتطلب نفقات

كثيرة ، كما كنت أدنع إيجار مسكن آخر ، في الطرف الأقصى لباريس ، عند نهاية شارع (سان جاك) ، حيث كنت أذهب لتناول العشاء في كل مساء تقريبا ، مهما تكن حال الطقس . وسرعان ما ألقت عملى الجديد ، بل إننى بدأت أميل إليه لماهيتت بالكيمياء ، وتلقيت دروسا عدة مع السيد دى مرانكوى ، لدى السيد رويل . ورحنا نسود أكدا سا من الورق بما كنا نكتبه في هذا العلم ، سواء عن صواب أو عن خطأ ، ورغم أننا لم نكد نلم بمبادئه الأولية . ولقد ذهبنا — في سنة ١٧٤٧ — لقضاء الخريف في (تورين) ، في « شاتو دى شينونسو » ، القصر الملكى القائم على نهر الشير ، والذي شيده هنرى الثانى من أجل ديانا دى بواتير . . التى لا تزال الحروف الأولى من اسمها ترى منقوشة هناك . وكان هذا القصر قد آل إلى السيد دوبان ، بوصفه المشرف العام على الاراضى الزراعية للملك . ولقد استمتعنا كثيرا بالاقامة في هذا المكان البديع ، وازدنا سمنة ، حتى أننى أصبحت بدينا كالرهبان ! . . ونعمنا بقدر كبير من الموسيقى ، كما أننى ألقت عدة ثلاثيات غنائية (١) ، زاخرة بالقوة وبالتناسق النغمى ، وسوف أتحدث عنها في « الملحق » إذا قدر لى أن أكتبه . كذلك كنا نقوم بتمثيل بعض المسرحيات الفكاهية ، واستطعت — في خمسة عشر يوما — أن أولف واحدة ، من ثلاثة فصول ، أسميتها « الخطبة المتهورة » (٢) ،

(١) قطع غنائية يشترك في أدائها ثلاثة أشخاص .

وهى موجودة بين أوراقى ، ولا تمتاز بغير مرحها المفرط .
ووضعت هناك بعض مؤلفات صغيرة أخرى ، منها قصيدة
بعتوان « درب سيلفيا » (١) ، عن درب فى المتنزه الذى كان
يمتد على ضفاف نهر (اللشير) . على أن هذا لم يصرفنى عن
دراساتى الكيمياوية ، ولا عن العمل الذى كنت أؤديه للسيدة
دوبان .

وبينما كنت ازداد سمنة فى شينونسو ، كانت تميزى
المسكينة لتضخم فى باريس بشكل آخر ، حتى إذا عدت ،
وجدت « المؤلف » الذى كنت بدائه ، قد تقدم بدرجة لم أكن
أتصورها (٢) . وقد دفع بى هذا — نظرا لموقفى — إلى حيرة
بالغة ، لولا أن زملاء المائدة أمدونى بالحيلة الوحيدة التى كان
يوسعها أن تخرجنى من المأزق . وهى من البيانات الدقيقة
التى لا أملك أن أبوح بها فى بساطة ، لأنى قد اضطر — إذا
أقدمت على أى إيضاح — إلى أن ألتبس لنفسى المعانير ، أو
إلى أن أدين نفسى ، وما أراى راغبا فى أن أعمل هذا أو ذاك !

ففى أثناء إقامة « التونا » فى باريس ، اعتدنا أن نتناول
وجباتنا على مقربة من مسكننا ، بدلا من أن نأكل فى أحد
المطاعم . فكنا نتردد على السيدة لاسيل ، بالتقرب من مر
« الأوبرا » . . وكانت زوجة حلقك ، تقدم أطعمة غير شهية ،

(١) لم يلبث العمر أن آل إلى مالك هم هذا الحرب الذى أذاع روسو
شهوته ، والدئ كان يجلب زوار فرنسا من الأجانب .

(٢) من المعلوم أنه يعنى أن سلالته بغير انبؤت جنينا .

ولكن مائدتها كانت قبلة الطامعين ، نظرا لمن كانوا يجتمعون حولها من رفاق طيبين موثوق بهم . فما كان لاي مجهول أن يلج المكان ، بل كان لا بد من أن يقدمه واحد من اعتادوا تناول الطعام هناك . وكان « الكوماندور دى جراميل » من استقروا هناك . وهو شيخ ماجن ، موفور الظرف والذكاء ، ولكنه بذىء اللسان . . وقد اجتذب حوله ثلة من الشباب الطائش الذكى ، تألفت من ضباط من فرق الحرس والفرسان . . وكان « الكوماندور دى تونان » حامى كل فتيات الاوبرا ، وقد اعتاد أن يحمل إلى المكان — فى كل يوم — كافة أبناء هذا الوسط العايب . . أما السيدان « دوبليسى » — وكان « بكبلىشى » محالا على الاستيداع ، وشيخا طيبا حكيما — و « انسيليه » (١) — وكان من ضباط الفرسان — فقد فرضا قدرا من النظام على

(١) عقب « روسو » على هذا بقوله : « الى هذا الانسياح اهديت تميلية فكحة صغيرة من تألبى ، بعنوان « اسرى الحرب » ، وضعتها بعد النكبات التى نزلت بالفرنسيين فى بافاريا وبوهيميا ، ولم أجرؤ اطلاقا على أن اعترف بها ، أو أن اقرها . وكان ذلك لسبب واحد ، هو أن الملك ، وفرنسا ، والفرنسيين ، لم يحفظوا — فيما أحسب — بأفضل ولا أصدق من الاطراء الذى اشتملت عليه هذه التمثيلية . ولما كتبت جمهوريا وناقدا مريحا للحكومة ، فأتى لم أجبر على أن اعترف باننى مادح امة كانت كل مبادئها متعارضة مع مبادئى . واذ كتبت أشد أسى لصائب فرنسا من الفرنسيين أنفسهم ، فقد خشيت أن تؤخذ على محمل اللق والجبن ، امارات الحب الصادق ، الذى ذكرت — فى الجزء الاول من اعترافى — عهد وسببه ، والذى كتبت استعجى من ابتدائه ! »

(وقد تود لكم ذلك فى الكرامنة الخامسة) .

هؤلاء الشبان . كذلك كان يتردد على المكان تجار ، وماليون ، ومتعهدون بتوريد الأغذية . . ولكنهم كانوا مؤدبين ، أمناء ، من المبرزين في حرمهم ومهنهم . وكان السيد دى بيس والسيد دى موركاد بين هؤلاء الذين نسيت أسماءهم . وقصارى القول إن المرء كان يرى هناك أناسا محترمين من جميع الأنواع فيما عدا الرهبان وذوى الأوشحة^(١) الذين لم يقع عليهم بصرى هناك إطلاقا ، فقد كان ثمة اتفاق على عدم تقديم أحد منهم . وكانت هذه المائدة ، على ازدحامها ، جد مريحة في غير صخب ، كثيرة الثروة في غير بذاءات . لما كان القائد (الكوماندور) الشيخ لينسى البتة — بكل قصصه الماجنة — الأدب الذى ألفه في البلاط ، فلم تكن تخرج من فمه إطلاقا أية كلمة بذيئة لا تغتفرها له النساء . وكانت لهجته دستورا للمائدة كلها ، فكان كل أولئك الشبان يروون مغامراتهم الغرامية في كثير من التحرر والكياسة . ولم تكن قصص الغانيات لتغيب عن المائدة ، إذ كان ثمة مورد لها جد قريب ، فقد كان الممر الذى يقضى إلى دار السيدة لاسيل ، يؤدى كذلك إلى حانوت السيدة دوشات ، وهى تاجرة أزياء ذائعة الصيت ، كانت تستخدم — إذ ذاك — ممتيات ومفورات الجمال ، اعتاد السادة أصحابنا أن يسعوا إلى مجانبتهن الحديث ، بعد الغداء . وكان بوسعى أن اتسلى كما كان يفعل الآخرون ، لو أنني كنت أكثر جراءة مما أنا . إذ أنني لم أكن بحاجة إلى أكثر من أن ألج الحانوت ، كما كانوا يفعلون ، ولكننى لم أجسر . أما السيدة لاسيل ، فقد ظللت

اذهب لتناول الطعام لديها في كثير من الأحيان ، عقب رحيل « التونا » . وهناك ، سمعت أيضا من الحكايات المسلبة — كما اقتبست تدريجيا المبادئ التي أليتها مستتبة هناك — دون المقاييس الخلقية ، والحمد للسماء ! .. فمن أشراف أوخوا ، إلى أزواج خدعوا ، إلى نساء استخلفتهم الفواية ، إلى أطفال ولدوا في الخفاء .. كل هذه كانت موضوعات عادية مألوفة هناك . وكان ذلك الذي يساهم أكثر من سواه ، في زيادة عدد سكان ملجأ اللقطاء ، هو أكثر الناس نصيبا من الإعجاب . ولقد أصابتنى عدوى هذا كله ، فصنفت طريقة تفكيري على نسق تلك التي رايتها سائدة بين قوم ظرفاء ، ومفرطى الأدب بوجه عام ! .. وقلت لنفسى : « مادام هذا هو العرف السائد في البلاد ، فللمرء أن يتبعه إذا ما أقم فيها » . وهذه هي الحيلة التي كنت أنشدها . فاعتزمت — في اغتباط — أن انتهجها ، دون أية هواجس من ناحيتي أو تردد .. وكل ما كان على أن تغلب عليه ، هو مخاوف تيريز ، التي كابدت في حملها على انتهاج الوسيلة الوحيدة لاتقاذ ثمرها ، كل ما في الدنيا من عناء ! .. ولقد انضمت لى أمها التي كانت تخشى التورط في طفل جديد . وانصاعت تيريز في النهاية ، فاختيرت مولدة (داية) حكيمة ، مأمونة ، تدعى الأنسة « جوان » — كانت تقيم عند (رأس سلان أوستاش) — لنعهد إليها بهذه الوديعة . فلما أن الأوان ، نقلت تيريز — بمعرفة أمها — إلى دار الأنسة جوان ، لتضع حملها ، وذهبت إلى هناك عدة مرات لأزورها ، وحملت إليها رمزا مزوجا نقش على بطاقتين ، لتوضع إحداها في ثياب الطفل ، على أن



وحملت اليها رمزا مزدوجا نقش على بطاقتين ، لتوضع احدهما في
نياب الطفل ، على ان تودعه القابلة (الداية) ادارة ملجأ اللقطاء .

تودعه القابلة (الداية) إدارة ملجأ اللقطاء ، بالطريقة المعهودة .. وفى العام التالى ، تكررت المضايقة ، وتكرر العلاج ، فيما عدا الرمز الذى أغفل ! .. ولم يعد ثمة تفكير فى الأمر — من ناحيتى — لا ولم يكن ثمة انصياح يفوق انصياح الأم ، التى أطاعت وهى تتنهد . ولسوف تبدو تباعا كل التغييرات التى أدت هذه الطريقة إلى فرضها على أسلوبى فى التفكير ، وعلى مصيرى كذلك . أما الآن ، فلنلزم هذه المرحلة الاولى ، إذ أن معقباتها — التى كانت من القسوة بقدر ما كانت متوارية غير ظاهرة — لن تلبث أن تضطرنى إلى العودة إليها كثيرا .



ولسوف أذكر هنا واقعة أول تعارف بينى وبين السيدة « ديبيناي » ، التى كثيرا ما سيتردد اسمها فى هذه المذكرات . كان اسمها الأنسة ديسكلافيل ، ثم تزوجت من السيد « ديبيناي » ، نجل السيد « دى لاليف دى بيلجراد » ، الذى كان مديرا علما للأراضى الزراعية . ولقد كان الزوج موسيقيا ، على شاكله السيد دى فرانكوى . كذلك كانت هى الأخرى موسيقية ، وقد خلق الولع بهذا الفن ودا عظيما بين هؤلاء الأشخاص الثلاثة . وقدمنى السيد دى فرانكوى إلى السيدة ديبيناي ، فكننت اتناول العشاء معها فى بعض الأحيان . وكانت لطيفة ، ذكية ، موهوبة ، خليقة بأن ينشد المرء ودها حقا . على أنها أوتيت حديقة — تدمى الأنسة « ديت » — كانت تعتبر خبيثة ، وكانت تعاشر الشيفالييه دى فالورى ، الذى

لم يكن حسن السمعة ، وأعتقد أن صحبة هذين الشخصين قد أساءت إلى السيدة ديبيناي ، التي خبثها الطبيعة بسجية غالبة ، وصفات رائعة تخلف من ، أن تتوازن مع نزواتها . ولقد أوحى إليها السيد دي فرانكويي قسطا من الود الذي كان يكرمه نحوي ، وصارحنى بصلاته بها ، ولهذا السبب فانتى ما كنت لأتحدث عن هذه الصلات هنا ، لولا أنها أصبحت معروفة إلى درجة أنها لم تعد خافية على السيد ديبيناي !.. كذلك أترنى السيد دي فرانكويي باعترافات عجيبة من هذه السيدة ، لم تذكرها لى بنفسها إطلاقا ، ولم يخطر ببالها البتة أننى كنت على علم بها . فانتى لم أفتح فمى — ولن أفتحه — بالحديث فى هذا الموضوع ، إليها أو إلى أى امرئ آخر (١) . ولقد أدت كل هذه الاعترافات — من كل من الطرفين — إلى الزج بى فى موقف جد حرج ، لا سيما إزاء السيدة دي فرانكويي، التى كانت تعرفنى خير معرفة ، فلم تغد ثققتها بى بالرغم من تولى صلاتى بغريمتها . ولقد عمدت — بقدر ما كان بوسعى — إلى مواساة هذه السيدة البائسة، التى لم يبادلها زوجها — دون ما شك — ما كانت توليه من حب . وكنت أصغى إلى هؤلاء الثلاثة ، كل على حدة ، وأصون أسرارهم بأقصى وفاء ، دون أن يقدر قط لآى من ثلاثتهم أن ينتزع منى شيئا من أسرار الاثنين الآخرين ، ودون أن أخفى عن كل من المراتين ودى لغريمتها!..

(١) لم تعد اعترافى السيد دي فرانكويي لروسو سرا خاليا على أحد . فإن المذكرات التى نشرت باسم ديبيناي تبين لنا أنها أصبحت بعدوى مرض خبيث، من زوجها .. وأنها نقلت هذا المرض إلى عشيقها ، الذى قدر له أن يموت بها!

ولقد حاولت السيدة دى فرانكويى ان تفيد منى فى امور كثيرة ،
فقبولت برفض بات . . كما ان السيدة ديبيناي ارادته ان
تحملنى - ذات مرة - رسالة إلى فرانكويى ، فلم تقابل برفض
مشابه محسوب ، بل إننى صارحتها كذلك بجلاء تام ، بأنها لم
تكن بحاجة إلى أكثر من أن تعرض على مثل هذا الامر - مرة
ثانية - إذا شاعت أن تفصينى عن دارها إلى الابد ! . . ومن
الواجب أن أنصف السيدة ديبيناي ، فإنها كانت أبعد من أن
تبدي استياء من مسلكى ، بل إنها تحدثت عنه إلى فرانكويى
بأبلغ تقدير ، ولم يقل ترحيبها بى بعده ، عما اعتادت أن
تستقبلنى به قبله . وهكذا استطعت أن أمضى موفقا وسط
العلاقات العاصفة بين هؤلاء الأشخاص الثلاثة الذين كنت
اعتمد عليهم فى معاشى - إلى حد ما - والذين كنت أكن لهم
صادق الميل . . واستطعت أن احتفظ - إلى النهاية - بودهم ،
وتقديرهم ، وثقتهم ، إذ رحت اتصرف فى رفق ومجاملة ،
يرافقهما - دائما - استقامة وحزم . وبالرغم من غيائى
وحماقتى ، فإن السيدة ديبيناي كانت تميل إلى أن تصطحبنى
إلى الحفلات اللاهية التى كانت تقام فى (لاشيفريت) ، فى قصر
على نهر (سان دنيس) ، من أملاك السيد دى بيلجراد . وكان
ثمة مسرح هناك ، كثيرا ما أخرجت عليه مسرحيات . وقد عهد
إلى بأحد الأدوار ، فظلمت استنكره ستة أشهر - دون
انقطاع - ومع ذلك فأتنى لم استغن عن راح يهمس إلى
بعبراته من البداية إلى النهاية ، أثناء التمثيل ! . . وبعد هذه
التجربة ، لم يعرض على أى دور !

وفى تعرفى بالسيدة ديبيناي ، حظيت كذلك بمعرفة الانسة دى بيلجراد ، التى لم تلبث ان اصبحت كونتة هودينو . وكانت اول مرة رايتها فيها ، فى اليوم السابق على زواجها . وقد حدثنى طويلا (١) ، بتلك الالفة الساحرة التى فطرت عليها . والفتيتها مفرطة فى اللطف ، ولكننى كنت أبعد من أن أرى أنه كان مقدرًا لهذه الشابة أن تشكل هدف حياتى يوما ، وإن تجرنى — عن براءة ودون إدراك أو قصد — إلى الحضيض الذى أعيش فيه اليوم !

ومع أننى لم أتحدث عن « ديدرو » منذ عودتى من البندقية ، ولا عن صديقى السيد « روجان » ، إلا أننى لم أهمل أيا منهما ، بل أن روابط الود اخفت تزداد توثقا بينى وبين الأول — بوجه خاص — يوما بعد يوم . وكما أننى أوتيت « تيريز » ، فقد أوتى هو « نانيت » ، وكانت هذه ناحية أخرى من نواحي التقارب بيننا . ولكن الفارق كان فى أن تيريزى ، وإن ماثلت نانيتة فى حسن الشكل ، إلا أنها كانت أرق مزاجا والطف شخصية منها ، وقد خلقت لترتبط برجل محترم . . أما فتاته فكانت سليطة ، « زمرة » اللسان ، لا تبدى أمام أنظار الغير ما يخفى سوء التربية . ولقد تزوجها — مع ذلك — وكان هذا عملا طيبا منه ،

(١). استعمل « روسو » هنا تعبيرا غير شائع فى الفرنسية ، لذلك

استعملنا فى الترجمة « حدثنى » بدلا من « تحدثت الى او معى » !

إذا كان قد وعدنا بالزواج . أما أنا ، فلم أكن بحاجة إلى أن
أخذو حذوه ، إذ أنني لم أبذل مثل هذا الوعد إطلاقاً !

ولقد اتصلت كذلك بالراهب دى « كونديللاك » ، الذى لم
يكن أفضل منى حالاً فى الأدب ، ولكنه كان مهيناً لأن يصير إلى
ما أصبح اليوم عليه . ولعلنى كنت أول من أبصر كناعته ،
وقدره حق قدره . ولاح أنه كذلك ارتاح إلى ، وعندما احتبست
نفسى فى غرمتى بشارع (جان سان نيس) — على مقربة من
«الأوبرا» — لأضع الفصل الذى ضمنته أوبراى عن «هيسود» ،
اعتاد أن يفد فى بعض الأحيان ، فيتناول الغداء معى ، وحيدين ،
وكنا نقاسم النفقات . ولقد كان يعمل — إذ ذاك — فى كتابه :
« رسالة فى أصل المعرفة البشرية » ، الذى كان أول مؤلفاته .
فلما مرغ منه ، تمطت الحيرة فى العثور على كتيبى يتكلم بنشره .
إذ أن أصحاب المكتبات الباريسية يعاملون كل مبتدىء فى صلف
وجفاء . وكان علم ما وراء الطبيعة غير شائع — إذ ذاك — ومن
ثم لم يقه لم يكن مورداً لموضوع جذاب . ولقد تحدثت إلى
« ديدرو » عن « كونديللاك » ومؤلفه ، وحملته على أن يتعرف
إليه . ولقد خلقا لى يتواقفا ، مسرعان ما تألفا . وأغرى
« ديدرو » الكتيبى «دوران» على أن يقبل مخطوط الراهب ،
فتمسلم هذا العالم الكبير بما وراء الطبيعة ، فى مقابل كتابه
الأول ، مائة «ايكو» ، وكان فى هذا إيثار له وتكريم ما كان من

المحتمل أن يلتاقها لولاي ! .. ولما كنا نحن الثلاثة (١) نقيم في أحياء متباعدة جدا ، فلقنا كنا نجتمع مرة في الأسبوع ، في (الباليه رويال) ، فنذهب لتناول الغداء معا في فندق (البانييه فلورى) . ولا بد أن هذه المأدبة الصغيرة الأسبوعية كانت محببة إلى ديدرو كثيرا ، إذ أنه لم يتخلف عنها قط ، وهو الذى كان يخفق دائما في أن يذكر مواعيده الأخرى . ولقد رسمت - في تلك اللقاءات - خطة نشرة دورية تسمى « الساخر » (٢) ، على أن نكتبها بالتعاقب ، ديدرو وأنا . ولقد وضعت الخطوط الأولى للمعد الأول ، فادى هذا إلى أن أتعرف إلى «داليمبير» ، الذى حدثه ديدرو من النشرة . غير أن أحداثا - لم تكن منظورة - اعترضت طريقنا ، فظل المشروع عند هذا الحد .

وكان هذان المؤلفان (٣) قد اضطلعا بوضع «قاموس محيط» ، قصد به - في البداية - أن يكون نظيرا مترجما لموسوعة « تشابيرز » ، وقريب الشبه من « قاموس جيمس الطبى » الذى كان ديدرو قد فرغ من ترجمته . ولقد رغب ديدرو في أن يشركنى في بعض أجزاء مشروعه الثانى ، فاقترح على أن اضطلع بالقسم الموسيقى . وقد قبلت ، وأديت مهمتى في عجلة ،

(١) الراهب وديدرو وروسو .

Le Persi Fleur (٢)

(٣) ديدرو وداليمبير .

وفى غير إجابة ، خلال الأشهر الثلاثة التى حدها لى ، كما حددها لكامة المؤلفين الذين قدر لهم أن يشتركوا فى هذا المشروع . على أننى كنت الوحيد الذى كان قد أكمل عمله فى الموعد المعين ، فسلمته مخطوطى ، الذى كنت قد عهدت بنسخه إلى أحد وصفاء السيد دى لورانكوى ، ويدعى ديبون ، فكتبه بخط حسن ، ودفعت له فى مقابل ذلك — من جيبى الخاص — عشر قطع من فئة «الايكو» ، لم يقدر لى قط أن استردها . إذ أن يدرو كان قد وعدنى — باسم الناشرين — بقسط من الأرباح ، لم يعد إلى محادثتى بشأنه مرة أخرى ، ولا فاتحته أنا بصده !

ولقد تعطل مشروع « الموسوعة » هذا بسبب سجنه . واجتلب عليه كتابه « أفكار فلسفية » بعض مضايقات لم تؤد إلى نتيجة ما . ولكن الأمر اختلف بالنسبة إلى كتابه « رسالة عن العميان » ، الذى لم يشتمل على ما يستحق النقد فيما عدا بعض مسائل شخصية رأت السيدة « دوبريه دى سان ملرو » والسيد « ريومير » أن فيها ما يمسها ، ومن ثم فقد سجن يدرو — من أجلها — فى سجن (فانسين) . ولن يصف شيء مدى التبايح التى أحدثتها فى نفسى محنة صديقى . فلذا بخيالى المكتئب — الذى اعتاد دائما أن يضخم المحن — يجمع فى انزعاجه ، إذ خيل إلى أن يدرو قد يمكث هناك طيلة عمره ، فكنت أجن لذلك ، وكتبت إلى السيدة دى بومبادور، أناشدها

إطلاق سراحه ، أو العمل على أن أحبس معه . ولم اطلق ردا
ما من خطابي ، إذ أنه كان جد بعيد عن المعقول ، فلم يحدث
لثرا . ولست أدمى لنفسى فخر أن يكون خطابى قد ساهم
فيها حدث بعد ذلك ، من تخفيف متاعب السجن على ديدرو
المسكين . على أنه لو كان قد قدر لهذا الحبس أن يستمر فترة
أخرى بنفس القسوة ، فلست أشك في أنني كنت أموت كمدا
وقنوطا ، تحت أسوار ذلك السجن اللعين . . وحتى إذا كان
خطابى قد أحدث مفعولا يسيرا ، فاننى لم أوله أهمية تذكر ،
حتى أنني لم اتحدث عنه إلا لفرد قليل من الناس . . ولم
اتحدث عنه إلى ديدرو نفسه البتة !



الكراسة الثامنة

سنة ١٧٤٩

خليق بى أن أقف قليلا إذ انتهت الكراسة السابقة . فمع الكراسة الحالية ، تبدأ اصول السلسلة الطويلة من المحن ، التى ألت بى .

لم يفتنى — أثناء ترددى على دارين من المع دور باريس — أن أعقد بعض صلات التعارف ، برغم قلة لباقتى . فتعرفت — فحين تعرفت إليهم لدى السيدة دوبان — إلى الأمير الشاب وريث إمارة (ساكس جوتا) ، وإلى مربية البارون دى تون ، كما تعرفت لدى السيد ديلا بويلينير إلى السيد دى سيجاي ، صديق البارون دى تون ، وكان معروفا فى عالم الأندب بالنسخة البديعة التى كانت لديه من ديوان « روسو » (١) . ولقد دعانا البارون — أقصد دعا السيد سيجاي وإيائى — إلى قضاء يوم أو اثنين فى (فونتناى — سو — بوا) ، حيث كان الأمير يمتلك دارا ، فذهبنا . . وفيما كنا نمر بفانسين ، شعرت بقلبى يتمزق ، إذ رأيت السجن . ولح البارون آثار ذلك على وجهى . وعند العشاء ، تحدث الأمير عن سجن « ديدرو » ، فحمد البارون — ليحملنى على الكلام — إلى اتهام السجين بالنزق . . وهو عين ما بدر منى فى غلظتى إذ انبريت للدفاع عنه ! . ولقد اغتفر لى هذا الاندفاع ، باعتبارى رجلا أنساق لعاطفته

(١) الشام: جان باطيسست روسو .

نحو صديق تعس ، واتخذ الحديث وجهة أخرى . وكان ثمة اثنان من الألمان الملحقين بخدمة الأمير ، أحدهما يدعى «كلبفيل» ، وهو رجل جم الذكاء ، كان في ذلك الحين قسا راعيا للأمير ، وغدا فيها بعد مربيا له ، خلفا للبارون . . أما الآخر ، فكان شابا يدعى السيد « جريم » ، كان يتكفل بالقراءة للأمير ، ريثما يتسنى له الحصول على منصب آخر . وكان تواضع ملبسه ينم عن شدة حاجته إلى ذلك .

ومنذ تلك الليلة ، بدأت بينى وبين كلبفيل رابطة لم تثبت أن تطورت إلى صداقة . أما صلتى بالسيد جريم ، فلم تصل إلى هذا الحد بمثل هذه السرعة ، إذ أنه لم يكن يحاول أن يظهر ، بل كان بعيدا كل البعد عن حب الظهور الذى ظنعه عليه الثراء فيها بعد . . ولقد دار الحديث عند القداء — فى اليوم التالى — من الموسيقى ، فأجاد الخوض فيه . وقد ابتهجت حين علمت أنه يحسن المصاحبة على المعزف ، فقضينا اليوم فى موسيقى ، على معزف الأمير ، ومنذ ذلك الحين بدأت تلك الصداقة التى كانت جد لطيفة فى أولها ، وجد نكدة فى آخرها ، والتى ساكتر من الحديث عنها فيما بعد .

وإذ عدنا إلى باريس ، علمت بالنبا المفرح . . بأن نيدرو قد غادر « الزنزانة » ، وأنه منح قلعة ومنتزه (فانسبن) كسجن له — اعتمادا على وعد شرف منه — وسمح له بأن يستقبل أصدقاءه . ولكم شق على الا استطيع أن أهرع إليه فى التوا . . فلقد تأخرت يومين أو ثلاثة ، لدى السبدة دويان ، بسبب واجبات لم يكن ثمة مفر منها . . وبعد ثلاثة أو أربعة

تروون من التلهف ، طرت لأرتى بين فراعى صديقى ! ..
ويا لها من لحظة جلّت عن الوصف ! .. ولم أجده وحيدا ، بل
كان معه « داليبير » وأمين صندوق كنيسة « سانت شابليل »
.. وإذ دخلت ، لم أر فى المكان سواه ، ولم أعمل سوى أن
قفزت ، وأن صرخت .. والصقت وجهى بوجهه ، وضممته
بشدّة دون كلام سوى كلام دموعى وعبراتى .. كنت أختلق
شوقا وطربا ! .. وكأنت أولى حركاته أن تخلص من عناقى ،
واستدار نحو رجل الكنيسة قائلا : « أترى يا سيدى كيف
يحببنى أصدقائى ؟ » .. وإذ كنت غارقا فى انفعالاتى ، فأننى
لم أر من هذا المسلك سوى جانبه الطيب ، ولكننى إذ أفكر
فيه أحيانا — بعد ذلك — أرى أن هذا لم يكن خليقا بأن
يكون أول ما يخطر ببالى لو أئننى كنت فى موقف ديدرو !

ووجدته متأثرا بسجنه أشد التائر ، فلقد تركت « الزنزانة »
طابعا فظيحا على نفسه ، ومع أنه ارتاح إلى المقام فى القلعة ،
وقدأ حرا فى التجول فى متنزه لم تكن تحيط به أسوار ، إلا أنه
كلن محتاجا إلى صحبة أصدقائه ، كى لا يستسلم للأفكار
السوداء . ولما كنت الشخص الذى يعطف أشد العطف على
آلامه — يقينا — فقد رأيت أئننى ولا بد — كذلك — الشخص
الذى تسرى عنه رؤيته ، أكثر من أى شىء آخر . وبالرغم من
وجود بعض الشواغل العاجلة الملحة ، فقد رحت أتردد عليه
بعد ذلك — مرة كل يومين — وحيدا ، أو مع زوجته ، لأقضى
معه فترة الأصيل .

وجاء الصيف في ذلك العام - ١٧٤٩ - شديد الحر . وكان ثمة فرسخان بين باريس ومائسين . ولما لم أكن في سعة تمكّني من استئجار عربة ، فقد اعتدت أن انطلق في الساعة الثانية - من بعد الظهر - على قدمي ، إذا ما كنت وحيدا .. وكنت أغذ السير لأصل في أقرب وقت .. وكانت الأشجار القائمة على طول الطريق ، غير وارفة الاذن ، على ما هو مألوف في تلك المنطقة ، فلم تكن تضيء على شينا من الظل تقريبا ، وكثيرا ما كنت أرتمى على الأرض ، وقد أرهقني الحر والتعب ، ومجزت عن المضي .. ولكي أخفف من سرعة انطلاقي ، عمدت إلى اصطحاب أحد الكتب خلال الرحلة . وفي ذات يوم ، اصطحبت كتاب « تقويم فرنسا » . وفيما كنت أقرا أبان سيري ، صادفت السؤال الذي طرحه المحفل العلمي لديجون ، ليكون موضوع مباراة (١) العام التالي : « هل ساعد تقدم العلوم والفنون على إفساد الاخلاق أو على تطهيرها ؟ » .

وما أن قرأت هذه الكلمات ، حتى تمثلت كونا آخر ، وغدوت إنسانا آخر . ومع انني احتفظ بذكرى حية للأثر الذي أحدثه السؤال في نفسي ، إلا أن تفاصيل الواقعة غابت عن بالي مذ أودعتها إحدى رسائلي الأربع إلى السيد دي « ماليزيرب » . وهذه إحدى الظواهر العجيبة التي تتصف بها ذاكرتي ، والتي

(١) كانت مباراة سنوية يعدها المحفل العلمي بديجون ، لأحسن رسالة

تكتب في الموضوع الذي يطرحه للمسابقة .

تستحق الذكر . فهي حين تسعفنى لا تمضى فى ذلك إلا طالما كنت معتبدا عليها . وما أن أسكب ما استودعتها إياه على الورق ، حتى تتخلى عنى . . وإذا ما كتبت شيئا مرة ، فانى لا أعود أنكره إطلاقا ! . . وتراهننى هذه الظاهرة ، حتى فى الموسيقى . فقد كنت أعرف كثيرا من الأغانى عن ظهر قلب ، قبل أن أدرسها . ولكى لم أكد أحقق الغناء من « النوتة » ، حتى عجزت عن استبقاء أية أغنية فى ذاكرتى ، وما ارانى أستطيع اليوم أن أردد أغنية واحدة بأكملها ، من كل الأغانى التى كنت أحبها !

والذى أنكره بجلاء - فى هذه المناسبة - هو اننى عندما بلغت (مائتين) كنت فى حال من الانفعال تشبه بحران الحمى . ولاحظ « ديدرو » ذلك ، فأفضيت إليه بالسبب ، وقررات عليه « مناجاة نابريشيوس » (١)، التى كتبتها بالقلم الرصاص ، تحت إحدى أشجار البلوط . فمشجعتنى على أن أنشر آرائى ، وأن أشارك فى المباراة . وقد كان هذا ! . . ومنذ تلك اللحظة غدت من الضائعين . فلقد كان ما بقى من عمرى ومن تعاساتى

(١) Prosopopée de Fabricius . . وكان نابريشيوس قنصلا

من حكم الرومان ، وقد عرف باتنهاج البساطة فى بلبائه الخلقة ، والوفاء ، والنزاهة ، والتجرد من المصلحة الذاتية . واتخذ اسمه رمزا لفرح الذى يظل قفرا سليم الذمة مهما يرتفع فى مناصب الحكم .

نتيجة لا مناص منها لهذه اللحظة من لحظات الاختبال والضلال (١) !

وتسامت مشاعري إلى مستوى أفكارى ، بسرعة تفوق التصور . فإذا بكل أهوائى التافهة تختنق فى فورة الحقيقة والحرية والفضيلة . . وادعى من هذا إلى الدهشة ، أن هذه الفورة ظلت محتمة فى فؤادى طيلة أربع أو خمس سنوات أخرى ، بدرجة لعلها لم تساور قلب أى بشر آخر !

واقبلت على العمل فى إعداد هذا المقال ، بطريقة جد عجيبة ، اعتدت دائما أن أنتهجها فى كل مؤلفاتى الأخرى تقريبا . فقد خصصتها بالساعات التى لم يكن النوم يواتينى فيها بالليل . وكنت أستغرق فى التفكير وأنا فى فراشى مغمض العينين ، وأروح أقلب عباراتى فى رأسى ، وأعلود تقليبها فى عفاء لا يمكن تصوره ، حتى إذا انتهيت إلى الرضاء عنها ، أودعتها ذاكرتى إلى أن أستطيع تسطيرها على الورق . ولكن الوقت الذى كان يستغرقه نهوضى وارتداء ثيابى ، كان يضئعها على . . فإذا ما عككت على ورقى ، لم يوافنى شيء مما نظمته فى بالى تقريبا .

(١) أضف « روسو » - فى رسالة الى « ماليزيروب » توصيلات بدعية لهذه المناسبة ، اذ قال : « وشعرت بدوار طاغ يستولى على رأسى ، يشبه نشوة السكران . . ويخفقان عنيد . . فلم أعد أملك انفسى وأنا أسير ، ومن ثم اوتيت على احدى اشجار الطريق ، وقضيت نصف ساعة فى هذا الاتعمال ، فلما ألفت تبينت أن صدر صدائى كان مخفلا بالدموع ، دون أن أكون قد شعرت باتنى لوعتها » .

ورأيت ان استخدم السيدة لوفاسير كسكرتيرة ، فاستكنتها مع ابنتها وزوجها على مقربة منى ، وكانت هى التى تاتى فى كل صباح لتوقد نارى وتؤدى الخدمات البسيطة التى احتاج إليها ، اقتصادا لأجر الخادم ، وعند وصولها ، كنت أملئ عليها من سريري ما أعدته فى الليل . وقد أدى هذا النظام — الذى اتبعته زمنا طويلا — إلى إنقاذ كثير مما كان معرضا للنسيان! . . حتى إذا فرغت من المقال ، عرضته على يديرو ، الذى أبدى ارتياحا إليه ، وأشار إلى بعض تعديلات . على أن هذا العمل الأدبى الملىء بالحرارة والقوة ، كان يفتقد المنطق والترتيب اعتقادا تاما ، فهو — دون كل ما انساب من قلمى — أضعفها فى الحجة ، وأفقرها إلى التناسب والتناسق . على أن من الكتابة لا يستوعب دفعة واحدة ، مهما تكن المواهب التى نظر المرء عليها !

وأرسلت هذا المقال ، دون أن اتحدث عنه إلى أحد ، اللهم إلا « جريم » — فيما أظن — إذ كنت قد بدأت أرتبط وإياه بأعظم ود ، منذ التحق بخدمة الكونت دى فرييز . وكان لديه معزف اتخذناه ملتقى يجمعنا ، فكنت أقضى مع « جريم » حوله كل لحظات فراغى ، نغنى الألحان الإيطالية وأغتنى ملاحى الجندول ، دون انقطاع أو ملل من الصباح حتى المساء ، أو — بالأحرى — من المساء إلى الصباح . وعفوا كنت لا أوجد فى دار السيد دويان ، فقد كان من المحقق أو أوجد لدى السيد « جريم » . أو معه — على الأقل — سواء فى نزهة أو فى مسرح . وكنت قد كلفت عن الذهاب إلى مسرح « الكوميدي ايتاليين » — الذى

كنت استمتع بحق دخوله بالمجان ، والذي لم يكن « جریم »
 يحبه — وأصبحت أتردد معه على « الكوميدي فرانسيز » ،
 الذي كان مولعا به . وقصارى القول ان جاذبية قوية ربطتني
 بهذا الشاب ، حتى اننى أصبحت لا أطيق بعدا عنه ، وحتى ان
 العمة المسكينة^(١) غدت موضع إهمال منى ! .. أقصد اننى
 أقلت من زيارتى إياها ، إذ أن عاطفتى لم تهن لحظة واحدة
 خلال حياتى !

ولقد أدت استحالة تقسيم وقت فراغى الضئيل بين ميولى ،
 إلى ان تجددت لدى ، بقوة لا قبل لى بها ، الرغبة — التى
 ساورتنى منذ وقت طويل — فى أن يكون لى ولتيريز مسكن
 واحد . ولكن العقبة التى تمثلت فى عدد المراد اسرتها ، وفى
 الحاجة إلى المال لشراء الأثاث — بوجه خاص — جعلتنى
 أعدل حتى ذلك الحين . ثم سنحت لى فرصة المحاولة ،
 فانتهزتها .. ذلك أن السيد دى فرانكويى والسيدة دوبان شعرا
 تماما بأن مبلغا يتراوح بين ثمانمائة وتسعمائة فرنك فى العام ،
 مبلغ غير كاف ، لمرنعا من تلقاء نفسيهما مرتبى السنوى إلى
 خمسين « لوى » . فضلا عن هذا ، فإن السيدة دوبان لم
 تكذ تسمع بأننى كنت أسمى إلى تأثيث مسكن خاص لى ، حتى
 .. ساعدتنى ببعض نفحات من أجل هذا الغرض . وبالإضافة
 إلى الأثاث الذى كان لدى « تيريز » من قبل ، لمنأشملنا ،
 واستأجرنا مسكنا صغيرا فى مبنى « اللانجدوك » ، بشوارع

(١) لكم « روسو » ان هذا اللقب أطلقه أمداؤه على « تيريز » .

(جرينيل سألت اونوريه) ، لدى قوم طيبى السمعة جدا ،
ودبرنا معيشتنا قدر المستطاع ، واقمنا هناك فى امان وارتيح
سبع سنوات . . إلى ان نزحت إلى « الارميتاج » .



وكان والد تيريز كهلا طيبا ، مفرط الدعة ، يخاف زوجته كل
الخوف ، ومن ثم فقد أطلق عليها لقب « الملازم كريبينيل » (١)
الذى خلعه « جريم » بعد ذلك — على سبيل الدعابة — على
ابنتها . ولم تكن السيدة لوفاسير تفتقر إلى حضور البديهة ،
واقصد فى أدب الخطاب ، بل إنها كانت تفخر بأدبها ويسلوكتها
اللائق بالمجتمع الراقى ، بيد انها كانت ذات رياء غريب لم أكن
أطيقه . وكانت تقدم لابنتها من النصيح أسوأه ، وقد حاولت
إن تحملها على أن تخدمنى وتكرهى ! . . وكانت تداهن
أصدقائى — كلا على حدة — وتحاول أن تتقرب إلى الواحد
منهم على حساب الآخر ، أو على حسابى أنا ! . . وغيا عدا
ذلك فاتها كانت أما طيبة ، لأنها وجدت أن مصلحتها فى أن تكون
كذلك . وكانت تتستر على أخطاء ابنتها ، لأنها كانت تفيد من
وراء ذلك . . هذه المرأة التى أغرقتها بعنابى ورعايتى
وبالهدايا الصغيرة ، والتى كنت أتوق من قلبى إلى أن أحل
نفسى على حبها ، كانت — بسبب استحالة نجاحى فى هذا

(١) Lieutenant Criminel كان قاضيا فى « الشاتيل » ، ويمر

الاسم الذى يطلق على دار للقضاء فى باريس ، تضم اثنين من اقدم المحاكم ،

احدهما مدنية والاخرى جنائية ١٨

الصدد — السبب الأول للتعب الذى كنت أعانيه فى مسكنى الصغير . وفيها عدا هذا ، فان بوسعى ان أقول إننى تذوقت — خلال هذه السنوات الست او السبع — اكمل هناء عائلى يسمح به الضعف البشرى !

كان قلب تميزى قلب ملاك ، وقد عززت حياتنا المشتركة حبنا ، فأخذنا نزداد إحساسا — يوما بعد يوم — بأن كلا منا خلق للآخر . ولو قدر لمتعنا أن توصف ، لكنت بساطتها داعية للضحك ، سواء فى ذلك نزھلتنا خارج المدينة وحيدين ، حيث كنت أنفق — بعظمة — ثمانية او عشرة « سو » فى إحدى الحانات .. او عشاؤنا البسيط فى النافذة ، وقد جلسنا متقابلين على مقعدين صغيرين ، فوق صندوق كان يشغل عرض فراغ النافذة .. فكنت هذه تستخدم — بهذا الوضع — كمائدة ، وكنا نستنشق الهواء الطلق ، ونشاهد ما حولنا ، والمارة .. ومع أننا كنا فى الطابق الرابع ، إلا أنه كان فى وسعنا ان نطل على الطريق ، ونحن نتناول الطعام ، ترى منذ الذى يستطيع أن يصف ، بل منذ الذى يستطيع أن يشعر بمفاتيح هذه الوجبات التى كانت تتألف — فى مجموعها — من ربع رغيف من الخبز الخشن ، وبعض الكريز ، وقطعة صغيرة من الجبن ، ونصف « ستيويه » (١) من النبيذ كنا نشربه معا .. أيتها الصداقة ، والبة ، والآفة ، وراحة البال .. ما لذ مذاقك ! . لقد كنا

(١) نصف « الستيويه » يعادل جزءا على ١٦ من الجالون .

تمكث أحيانا في جلستنا هذه إلى منتصف الليل ، دون أن نفكر في شيء ودون أن نفطن إلى الوقت ما لم تنبهنا الأم العجوز إليه! . . ولكن لندع هذه التفاصيل التي قد تبدو عقيمة أو مضحكة ، فلقد اعتدت أن أشعر — وأن أصرح — دائما ، بأن الهناء الحق لا توصف !

ولقد حظيت — في نفس تلك الفترة تقريبا — بمتعة أخرى ، كانت أكثر خشونة من هذه . . وكانت آخر متعة من نوعها أندم عليها . فلقد ذكرت أن « كلبفيل » — القس — كان لطيفا ، ولم تكن علاقتي به ثقل توثقا عن علاقتي بجريم ، حتى أصبحنا متآلفين . وكانا يتناولان الطعام أحيانا على مائدتي . وكانت هذه الوجبات تتجاوز حدود البساطة بعض الشيء ، كما كانت تزيدها مراحا فكاهات كلبفيل ونكاته المهذبة ، والمداعبات الجرماتية من « جريم » الذي لم يكن بعد قد طلق العيب . . ولم تكن الشهوة تتسلط على مآدبنا الصغيرة ، بل كان المرح يملأ مكانها . وقد شعرنا بارتياح إلى اجتماعاتنا ، فلم نعد نطيق افتراقا . وكان كلبفيل قد أثث مسكنا لفتاة صغيرة؛ لم تكف عن أن تهب نفسها لكل الناس ، لأنه لم يكن قادرا على أن يكفلها وحده! . . وفي ذات مساء ، كنا نلج أحد المقاهي ، وإذا بنا نجد كلبفيل خارجا منه ، في طريقه إليها ليتناول العشاء معها . فدأبناه ببعض الفكاهات ، التي انتقم لنفسه منها بلباقة ، إذ اضطرنا إلى أن نشاركه نفس العشاء ، ثم راح يسخر منا بدوره . وبدت لي الفتاة المسكينة حلوة السجايا ، مغرطة الدمة ، غير مدربة على مهنتها التي كانت تبصرها بها

— بقدر الإمكان — مجوز مأكلة كانت برفقتها . واستخفنا الحديث والنبذ إلى درجة نسينا معها أنفسنا . ولم يشأ كلبفيل الطيب أن ينتقص من كرمه ، فتعاقب ثلاثتنا على غرفة مجاورة مع الفتاة ، التي لم تدر أكلن لها أن تضحك أم أن تبكى ! .. ولقد اعتاد « جريم » دائما أن يؤكد أنه لم يمسسها ، وأنه ما أطال المكث معها إلا ليستعذب إطالة انتظارنا ونفاد صبرنا . وإذا كان قد تعفف عنها ، فمن غير المحتمل أن ذلك كان عن توجس من الفتاة ، إذ أنه — قبل التحاقه بخدمة الكونت دي ميريز ، وأقامته في داره — أقام لدى فتيات من غانيات حي (سلسان روش) بالذات .

وخرجت من شارع (ديه موانو) — حيث كانت الفتاة تقيم — وأنا أئسد استحياء من القديس « بريس » ، حين بارح المنزل الذي أسكن فيه . ولقد كنت أتمثل قصتي بجلاء ، وأنا أكتب قصته! .. ولاحظت ميريز أن في الأمر شيئا ، لا سيما وأننى كنت يرتبكا ، وكنت أبدو ساخطا على نفسى . وقد تخففت من العيب ، بأن اعترفت لها بصراحة وإيجاز . وكما أحسنت صنعا ، إذ أن « جريم » جاءها — في الصباح التالي — متشفيا ، وروى لها ننبى في مبالغة . ومنذ ذلك الحين ، لم يكف قط عن أن ينكرها به في خبث وإغظة . وكان هذا أشنع ذنوبه ، فقد كان من حقى — إذ ائتمنته على سرى طواعية ، وفي غير تحفظ — أن أتوقع منه ألا يحملنى على أن أئسدم يوما على هذه الثقة .

ابدا لم أشعر بطيبة قلب تيريزى ، كما شعرت بها في هذه المناسبة ، فقد أبدت من الذهول والاستنكار لتصرف « جريم » أكثر مما أبدت من الاستياء لعدم وفائى ، فلم أتجشم أكثر من أن تقبلت منها عتابا رقيقا مؤثرا ، لم المح خلاله أى اثر لسخط أو ضغينة !.. لقد كانت سذاجة عقل هذه الفتاة الرائعة ، تعادل طيبة قلبها ، وهذا جل ما يقتل !.. على أن ثمة مثلا لذلك ، جديرا بالذكر ، يحضرنى الآن .. فلقد فكرت لها أن كلبفيل كان قسا ، وراعيا دينيا لأمر (ساكس - جونا) . وكان القس - في رأيها - رجلا ممتازا ، حتى أنها في تخطبها بين الامكار المتباينة ، أخذت كلبفيل على أنه « البابا » . ومن ثم فقد ظننتها اختبلت ، حين أنبأتنى - ذات مرة - عند مودتى إلى المنزل ، بأن « البابا » قد حضر لزيارتي . واستدرجتها حتى أوضحت ، ثم انطلقت بأسرع ما وسعنى لأروى هذه القصة لجريم و كلبفيل : الذى لصق به اسم « البابا » فيما بيننا .. كما اطلقنا على غانية شارع (ديه موانو) ، اسم « الماما جان » (١) ! .. وكان هذا مثار ضحك عز علينا أن نخمده ، حتى كدنا نخفق ! .. ان اولئك الذين جعلونى أقول - في خطاب حلالهم أن ينسبوه إلى - إننى لم أضحك في حياتى سوى مرتين ، لم يعرفوا شيئا عنى في هذه الفترة ، أو في أيام صباى ، وإلا ما خطرت لهم هذه الفكرة إطلاقا !

(١) Papesse .. لم نجد ترجمة لهذه الكلمة خرا من « الماما » !

من سنة ١٧٥٠ إلى سنة ١٧٥٢

علمت في العام التالي - سنة ١٧٥٠ - أن مقالي فاز بالجائزة في (ديجون) ، وكنت قد كففت عن التفكير فيه . فليقظ هذا النبأ - من جديد - كل الأفكار التي كانت قد أوجت إلى به ، وبث فيها قوة جديدة ، وادى إلى أن تحركت - للمرة الأولى - رواسب البطولة والفضيلة التي كان أبى ووطنى وبلوتارخ قد أودعوها قلبي في طفولتى . فلم أعد أجد ما هو أعظم وأجمل من أن أكون حراً ومخلصاً ، وأن ارتفع بنفسى فوق اعتبارات الحظ والرأى العام ، ، وأن أكون مستقلاً بذاتى . ومع أن الحياء الزائف والخوف من الرأى العام منعانى - بادية الأمر - من أن أمضى وفقاً لهذه المبادئ ، ومن أن أخرج فجأة ، وعلانية ، على مادات وعرف القرن الذى أميشى فيه . . إلا ائننى منذ ذاك الحين عقدت عزمى ، ولم أرجىء تنفيذ ما انتويت لأمد أطول مما كان يتطلبه هذا الانقلاب كى يغدو موفقاً .

وفىما كنت أرسم فلسفتى عن واجبات الإنسان ، وقع حادث جعلنى أفضل التفكير فى واجباتى الشخصية . فقد كانت تيريز حبلى للمرة الثالثة . . وفى أمانة تامة بينى وبين نفسى ، وفى اعتزاز مفرط صدف بى عن الرغبة فى أن تكون أعمالى مكتوبة لمبادئى ، شرعت أدرس مصير أولادى وعلاقتى بهم ، على ضوء قوانين الطبيعة ، والعدالة ، والعقل ، والدين . . الدين القدسى ، الأزلى ، كما أراده خالقه ، لا كما شوهه البشر فى تظاهرهم بالرغبة فى تطهيره ، ولا كما حوله الناس - بقوانينهم

الموضوعة — إلى مجرد عقيدة قوامها الكلمات .. فان مرضى المستحيل لا يبهظ الناس ما داموا يتغافلون عن تنفيذه !

ولو اننى كنت مخطئا في استنتاجاتى ، لما كان ثمة ما هو ادمى للدهشة من الطمأنينة ، التى اقبلت بها عليها .. ولو اننى كنت من اولئك الناس ذوى المنبت الوضع ، وذوى الاذان المغلقة دون صوت الطبيعة الرقيق ، وذوى النفوس التى لا ينبت فيها اى إحساس صادق بالعدالة والإنسانية ، لكان جمود قلبى ميسور الادراك . ولكن ما اوتيت من حرارة القلب ، وإرهاف الحس ، وسهولة التعلق بالناس .. وهذا السلطان الذى كانت تفرضه على علاقاتى بهم ، وهذه اللوعات القاسية التى كنت اهاتها إذا ما اضطررت إلى قطع العلاقات .. وهذه النية الطيبة التى لمطرز عليها نحو أقرانى ، وحبى المتاجج لكل ما هو عظيم ، وما هو صادق ، وما هو جميل ، وما هو عدل .. وهذا الجزع من السوء بكل أنواعه ، وهذا العجز عن الكراهية والحد ، بل ومن تهنيتها .. وهذا الحنان ، وهذا الشعور الناعم الوثاب الذى أحس به حين أرى كل ما هو فاضل وكريم ولطيف .. افليس من الممكن لكل هذه الصفات أن تتألف في قلب واحد ، مع الحرمان الذى يدوس — في غير ما تورع — أعذب الالتزامات وأحلاها ؟ .. لا . . . اننى لأشعر وأجاهر بأن هذا مستحيل ، فان جان جاك لم يكن قط عديم الشعور ، ناكرا لصلات الرحم ، ولا كان أباً جاحداً ، لحظة واحدة في حياته ! .. ومن المحتمل أن أكون قد أخطأت ، ولكنى لم أكن قط قاسى القلب .. ولو اننى شئت أن أفضى بحججى ، لتكلمت أكثر مما ينبغى . وبما

انها كانت من القوة بحيث اغوتنى ، فاننى أخشى أن تغوى كثيرين غيرى ، ولست أبغى أن أعرض الشبان — الذين قد يقرأون حديثى — لأن ينساقوا إلى الاساءة لانفسهم بفضل هذا الخطأ . ومن ثم فسأكتفى بأن أقول إن غلطتى كانت على هذا النسق : إننى إذ أسلمت أولادى إلى الدولة لتربيتهم ، لعجزى عن تنشئتهم بنفسى ، وإذ قضيت عليهم بأن يصبحوا عمالا أو مزارعين ، بدلا من أن يصبحوا مفامرين وطلاب ثروة ، كنت أظننى أودى تصرفا يليق بأب مواطن صالح ، وكنت أتمثل نفسى عضوا فى جمهورية أفلاطون . ولقد أشعرتنى حسرات قلبى — فى أكثر من مرة ، فيما بعد — أتنى كنت مخطئا ، ولكن عقلى كان أبعد من أن يوحى إلى بنفسى الرأى ، ومن ثم فاننى كثيرا ما باركت النساء لأنها صانتهن مما لقيه أبوهن فى حياته ، ومن الحظ الذى كان يتهدهدهم إذا ما اضطرتت إلى التخلّى عنهم . ولو أتنى أسلمتهم إلى السيدة ديبيناي ، أو السيدة دى لوكسمبورج ، اللتين رغبتا — فيما بعد — فى أن تكفلاهم ، سواء بدافع من الصداقة ، أو من الكرم ، أو من الخافز آخر . . لو أتنى فعلت ذلك ، فهل تراهم كانوا يفقدون أكثر سعادة ، أو ينشأون رجالا أمناء محترمين ، على الأقل ؟ . . لست أدرى ، ولكننى واثق من أنهم كانوا خليقين بأن ينشأوا على كراهية أبويهم ، وربما على الفقر بهما . . ومن ثم فقد كان من الأفضل مائة مرة ، أنهم لم يعرفوا أبويهم !

وهكذا أسلم ابنى الثالث إلى ملجأ اللقطاء ، كما كان شأن الطفلين السابقين . . وكذلك كان شأن الطفلين التاليين، إذ أتنى

أوقيت خمسة . ولقد بدا لى هذا الاجراء ملائما ، حكيما ،
 مشروعا إلى درجة اننى إذا كنت لم أنخر به علانية ، فانما كنت
 أصدر فى ذلك عن شيء من مراعاة خاطر أهم .. على اننى
 أنبات به كل أولئك الذين كنت قد أطلعتهم على علاقتى بها ..
 قلته لديدرو ، ولجريم ، كما فكرته — فيما بعد — للسيدة
 ديبيناي ، ثم للسيدة دى لوكسمبورج بعد ذلك .. ولقد فعلت
 ذلك فى صراحة ، وبمطلق الحرية ، دون أى اضطرار ، وكان
 بوسعى أن أخفى الأمر بسهولة عن الناس أجمعين .. إذ أن
 الأنسة «جوان»^(١) كانت أمينة ، كتومة جدا ، وكان بوسعى أن
 أطمئن إليها كل الاطمئنان . وكان الوحيد من أصدقائى ، الذى
 كنت أجد مصلحة فى أن أكتشف له سرى ، هو الطبيب «ثيرى» ،
 الذى عنى بعمتى المسكينة فى إحدى مرات الوضع ، عندها
 سمعت حالها . ومجمل القول اننى لم أحط تصرفى بشيء من
 الغبوض ، لا لأننى لم أتعلم قط أن أكتم شيئا عن أصدقائى
 محسب ، وإنما لأننى لم أكن أرى — فى الواقع — أى ضرر
 ذلك . إذ اننى — إذا قدرنا كافة الاعتبارات — قد اخترت
 لأولادى الخير ، أو ما آمنت بأنه الخير . بل اننى كنت أنبنى
 — ولا أزال — لو أننى نشأت وتربيت على شاكلتهم !



(١) الأنسة «جوان» هى العجلة أو المولدة التى كتلت معنى بتعريف عند

الوضع ، وتكمل بإسلام الأطفال الى ملجأ اللطام .

وفي الوقت الذي كنت أسجل فيه اعترافاتي هذه ، كانت السيدة لوفاسير تحفو حذوى — من ناحيتها — ببدا أنها كانت تعرض آراء أقل تشويقا . وكنت قد قدمت لها — هي وابنتها — إلى السيدة دوبيان التي أولتهما ألف آية من آيات الطبعة ، بدافع من صداقتها لى . ولقد أطلعتهما الأم على سر ابنتها . فما كان من السيدة دوبيان الطيبة ، السخية ، التي لم تطلع قط على مدى حرصى على أن أوفر لهما كل أسباب العيش — برغم تواضع مواردى — إلا أن كفلت للابنة معاشا سخيا كتمت عنى هذه سره ، بأمر من أمها ، طيلة مقامى فى باريس ، فلم تعترف لى به إلا فى « الأرميتاج » ، وبعد أن كشفت لى عن عدة أمور أخرى كانت تخفيها فى صدرها . ولقد كنت أجهل أن للسيدة دوبيان علما بشيء ، إذ أنها لم تبد إطلاقا أية إشارة . . كما أنني أجهل ما إذا كانت السيدة دى شينونسو — زوجة ابنها — على علم بالامر . هي الأخرى . على أن السيدة دى فرانكوى — زوجة ابن زوجها — أحاطت به ، ولم تستطع أن تمسك لسانها ، فتحدثت إلى منه فى العام التالى ، بعد أن كنت قد تركت دار الأسرة . وقد حملنى هذا على أن أكتب لها — عن هذا الموضوع — رسالة توجد فى أضايرى ، وقد عرضت فيها من حججى ما كان بوسعى أن أنكره دون أن أقحم السيدة لوفاسير وأسرتها ، إذ أن معظم الحجج والأسباب الحاسمة كانت منبعثة من ناحيتهم ، وقد تكتمتها (١) .

(١) تنرد هذه « الأسباب الحاسمة » فى الكراسة التاسعة .

افنى لاطمن إلى كتمان السيدة دويان للأمر ، وإلى مسودة السيدة دى شينونسو ، وكذلك كنت مطمئنا من ناحية السيدة دى فرانكوى ، لا سيما وأنها توفيت قبل أن يشيع سرى مدويا ، بوقت طويل . ومن ثم فانه ما كان ليتفشى إلا على السنة أولئك الذين امضيت إليهم به بالذات ! .. والواقع أن هذا لم يحدث إلا بعد أن تقطعت بينى وبينهم الصلات . وبهذا وحده يمكن الحكم عليهم فى الواقع ، دون رغبة منى فى أن أعفى نفسى من اللوم الذى استحقه ، بل اننى لأوثر أن آخذ الذنب على عاتقى ، على أن أقضى عليهم بما يستحقه خبثهم . إن ذنبى لعظيم ، ولكنه لا يعدو أن يكون خطأ .. فلقد أهملت واجباتى ، بيد أن الرغبة فى الإيذاء لم تداخل مؤادى أبدا ، ولن يقدر لمشاعر الأب أن تتحدث باقناع عن أطلال لم يرهم إطلاقا .. ولكن خيانة ثقة الصداقة ، وانتهاك حرمة أقدس المعاهدات ، ونشر الأسرار التى سكبت فى صدورنا ، والخط عمدا من قدر الصديق المخدوع الذى ما يزال يحترمنا وهو ينأى بجانبه عنا .. هذا كلها ليست أخطاء ، ولكنها خسة نفس وسخيمة !

لقد وعدت بأن أقدم اعترافاتى ، لا تبريرات نصرماتى . ومن ثم فلننى أقف — فى هذا الموضوع — عند هذا الحد . ومن واجبى أن أكون صادقا ، وللقارىء أن يكون عادلا . ولن أطالبه قط بأكثر من هذا .



وادی زواج السيد دى شينونسو إلى أن أصبحت أكثر ارتياحا إلى دار أمه ، بفضل مزايا الزوجة الجديدة وعقلها .

مقد كانت شابة مفرطة اللطف ، بدا انها آثرتنى من بين الكبة الذين كانوا فى خدمة السيد دويان . . وكانت الانسة الوحيدة للسيدة فيكونتة دى بروشيشوار ، الصديقة الحميمية للكونت دى فرييز ، وبالتالي لجريم الذى كان ملحقا بخدمته . على اننى كنت الشخص الذى قدمه إلى ابنته وادخله دارما ! (١) ولكن طباعهما لم تتفق ، ومن ثم فان هذه الصلة لم تدم طويلا . اما « جريم » - الذى لم يكن يضع عينيه ، منذ تلك الحين ، إلا على كل ما فيه نفع مؤزر - فقد آثر الام ، التى كانت من نجوم المجتمع الراقى ، على الابنة التى كانت تنشد أصدقاء تتق بهم وترتاح إليهم ، ولا يكون لهم شأن بأية مؤامرة أو دسيسة ، ولا يسعون إلى غاية بين العظماء ! . . وإذ لم تجد السيدة دويان فى السيدة دى شينونسو كل ما كانت ترجوه من لبن ، أحالت دارها إلى مكان كئيب بالنسبة للشابة . لماثرت السيدة دى شينونسو - التى كانت معتزة بميزاتها ، وربما بمنبتها أيضا - أن تنبذ ملامى المجتمع ، وأن تبقى وحيدة - تقريبا - فى مخدمها ، على أن تحتل نيرا لم تكن تحس بأنه يلائمها !

ولقد أدى هذا الاهتزال إلى مضاعفة تعلقى بها ، مدفوعا بذلك الميل الطبيعى الذى كان يجتذبني إلى التعساء . ولقد وجدت فيها عقلا مفكرا يميل إلى ما وراء الطبيعة ، وإن كان فى بعض الأحيان ينحو إلى السفسطة . وكان حديثها جـد

(١) يقصد « روسو » أن العروس كانت ابنة الكونت دى فرييز من علاقته بالفيكونتة دى بروشيشوار ، ولكنها تسبب للفيكونت ، ومن ثم فانها كانت تجهل ابنتها الحقيقية ، الذى قدم اليها كصديق !

جذاب لى . إذ أنه كان بعيدا عن أن يكون حديث شابة تركت مدرسة الدير من عهد قريب ، ومع عمقه هذا ، فانها لم تكن قد بلغت العشرين من عمرها ! . وكانت بشرتها بيضاء ناصعة تبهر الأبصار ، كما أن قوامها كان خليقا بأن يبدو مهيبا وجبيلًا ، لو أنها أقامت عودها مستويا . أما شعرها فقد اختلطت شقرته بسمرة باهتة ، فى جمال نادر ، مما كان يذكرنى بماما البائسة فى أوج شبابها ، فكان يهيج فؤادى . بيد أن المبادئ القوية التى كنت قد رسمتها لنفسى — من عهد قريب — وآليت أن أتبعها مهما تكبدت ، جعلتنى فى أمان منها ومن مفاتنها ! . . . ولقد اعتدت — طيلة فصل الصيف بأكمله — أن أقضى معها ثلاث أو أربع ساعات فى عزلة ، ألغنها الحساب فى درس جدى ، وأضايقتها بأرقامى التى لا تنتهى ، دون أن أقول لها كلمة غزا واحدة ، ودون أن أرمقتها بنظرة ! . . . ولو أن هذا حدث بـ خمس أو ست سنوات من تلك الفترة ، لما كنت قمتنا بأن أكون عاقلا أو غبيا إلى هذا الحد . . . ولكن القدر كان قد كتب على ألا أحب حبا حقيقيا سوى مرة واحدة فى حياتى ، وأن تكون أول وآخر زغرات قلبى وقفًا على امرأة غير هذه !

ولقد كنت دائما — مذ أقمت فى دار السيدة دويان — راضيا بنفسي ، لا أبدى أية رغبة فى أن يتحسن . ولقد جاءت الزيادة التى أضافتها السيدة إلى مرتبى — بالاشتراك مع السيد دى فرانكوى — صادرة عن محض إرادتهما وحدهما لمحب . . . وفى هذا العام ، فكر السيد دى فرانكوى — الذى كانت صداقته لى تزداد يوما بعد يوم — فى أن يضعنى فى مركز أعلى قبرا

وأكثر ثباتا . ولقد كان محصلا علما للمالية فرنسا ، وإذا كان السيد دودوييه — أمين خزانته — مكتهلا وغنيا ، وراغبا في أن يعتزل العمل ، فقد عرض على السيد دي فرانكويي هذا المنصب . . ولكي أعد نفسي لتوليهِ ، ترددت لبضعة أسابيع على دار السيد دودوييه لأتلقى عنه الارشادات الضرورية . وسواء كنت لم أوت موهبة لهذا العمل ، أو أن دودوييه — الذي بدا لي راغبا في أن يعهد بهذا المنصب إلى خليفة آخر — لم يكن يلقتني أصول المهنة عن طيب خاطر ، فأننى رحت أَلَم بالمعلومات التى كنت محتاجا إليها ، فى ببطء وسوء استيعاب . . ولم ينفذ إلى راسى قط نظام الحسابات التى كانت معقدة عن قصد ونية مبيتة . على أننى وإن لم أستوعب دقائق المهنة ، لم أتوان قط عن أن أمضى مهرعا نحو المقدرة على ممارسة مهام الإدارة . بل أننى شرعت فيها ، فتوليت السجلات والخزانة ، وصرفت وتسلمت نقودا ، وأصدرت إيصالات . ومع أن ما لدى من ميل أقل من أن يؤهلنى لهذه المهنة ، إلا أن تقدم سننى جعلنى حكيما ، فاعتقدت العزم على أن أتغلب على نفورى من أن أنصرف بكل نفسى إلى وظيفتى . ولكن سوء الحظ شاء — فى الوقت الذى بدأت أَلَف عملى فيه — أن يقوم السيد دي فرانكويي برحلة قصيرة ، ظلت خلالها الموكل الوحيد بخزائنه ، التى لم يكن يودعها — فى ذلك الوقت — سوى مبلغ يتراوح بين خمسة وعشرين ألفا وثلاثين ألفا من الفرنكات . فلذا التلق وانشغال البال ، اللذان سببتهما هذه الامانة ، يقنعاننى بأننى لم أخلق لأكون صراما . ولست أرتاب فى أن اللهفة التى رحت أرتقب بها عودة السيد

دى فرائكوبى قد ساهمت فى المرض الذى وقعت فريسته عقب هذه العودة !

ولقد قلت فى الجزء الاول من اعترافى إننى كنت موشكا على الموت عندما ولت . وكان ثمة عيب فى تكوين المثانة ، أدى إلى احتباس البول بصفة شبه مستمرة ، خلال سننى عمرى الاولى ، فكانت عمى «سوزان» — التى تولت العناية بى — تلقى عناء لا يمكن تصوره ، كى تصون حياتى . على أنها املحت فى ذلك ، واستطاعت بنيتى القوية أن تغلب فى النهاية ، فتحسنت صحتى كثيرا خلال صباى .. وفيما عدا نوبة الضعف والهزال التى ذكرتها من قبل ، وفيما عدا كثرة احتياجى إلى التبول ، الامر الذى كان أقل ارتفاع فى الحرارة يجعله عملية متعبة .. فيما عدا ذلك فاننى بلغت الثلاثين من عمرى ، دون ان احس بما كان فى جسمى من عيب سابق .

واصابتنى أولى العلل عند وصولى إلى البنديقية . فان عناء الرحلة والحر الشديد الذى عانيت به ، جلبا على رغبة مستمرة فى التبول ، وأوجاعا فى الكليتين ، لازمتنى حتى مقم الشتاء . ولقد أيقنت بعد زيارتى للموس^(١) أننى ميت ، ولكنى — مع ذلك — لم أمان أقل تعب .. وبعد أن أرهقت نفسى بالوهم — أكثر منى بآلام جسدية — بسبب «جولييتا» ، إذا بصحتى خير مما كانت فى أى يوم . وظللت هكذا إلى ما بعد سجن ديدرو ، إذ أن اشتداد سخونة دمى — خلال رحلاتى إلى فانسين فى الحر

(١) وردت هذه الواقعة فى صفحة ٦٢ من هذا الجزء .

العلّظ الذى كان سائدا إذ ذاك — أدى إلى ألم عنيف فى الكليتين،
لم أستعد — مذ وانانى — صحتى الأولى !

وفى الفترة التى اتحدث عنها ، أدى إسرافى فى إرهاق نفسى
بالعمل البغيض فى تلك الخزانة اللعينة ، إلى أن اضمحلت
صحتى أكثر من ذى قبل ، ومكثت فى فراشى خمسة أسابيع
أو ستة ، فى أشد افتهام يمكن تصوره . واولدت السيدة
دويان لعيادتى «موران» ، الذى كان ذائع الصيت، والذى سبب
لى — برغم مهارته ورقة لمساته — أوجاعا لا تخطر ببال ، ولم
يستطع قط أن يصل إلى موطن علتى ، فنصحنى بأن ألجأ إلى
«داران» ، الذى استطاع بمجساته — وكانت أكثر مرونة — أن
يخفف عنى بعض الأوجاع . على أن موران — حين أنبأ السيدة
دويان بحالى — صارحها بأننى لن أكون على قيد الحياة بعد
سنة أشهر . وحملنى هذا الحديث — الذى نمتى إلى — على أن
أفكر جديا فى حالى ، وفى حماقة التضحية براحة جسمى ويالى
فى الأيام القلائل التى تبقّت لى فى الحياة، لأغدو مستعبدا لوظيفة
لم أكن أشعر نحوها بأى ميل ! .. ومن ناحية أخرى ، كيف
كلن لى أن أوفق بين المبادئ القاسية التى اتخذتها لنفسى وبين
منصب لم يكن يتسق معها إلا قليلا ؟ .. ألم يكن من المجافاة
للذوق أن أدعو — وأنا المحصل العام للمالية — إلى التجرد من
المصلحة الذاتية ، وإلى الفقر ؟

واشدت تضر هذه الآراء فى رأسى باشتداد الحمى ، وراحت
تتماسك بقوة ، حتى أن شيئا لم يقو — منذ ذاك الحين — على
تبيدها ، لموطدت عزمى — خلال فترة نقاهتى — على تنفيذ

ما استقر عليه رأى خلال بحران الحمى ! .. ونبذت إلى الأبد كل مشروع للإثراء والرفعة ، معتزما أن اقضى فى الاستقلال والفر ، الفترة القصيرة التى تبقت لى فى الحياة ، فاستخدمت كل قوى روحى فى تحطيم أغلال الرأى العلم ، وفى أن أقدم بشجاعة على ما أراه خيرا ، دون أن أحفل البتة برأى الناس . وكانت العقبات التى اضطرت لمغالبتها ، والجهود التى بذلتها للانتصار عليها ، موفى كل تصور . وقد وفقت بقدر استطاع ، بل وأكثر مما كنت أرجو ، ولو أننى نجحت فى أن أدفع عنى ريقة الصداقة ، بقدر توفيقى فى التحرر من ريقة الرأى العام ، لبلغت غاية مأربى ، بل لعلها كانت أعظم الغايات التى خطرت لمخلوق فان ، وأدعاهما — على الأقل — للفضيلة .. على أننى — إذا رحت اتخبط تحت أقدام الأحكام الخرفاء التى تصدر عن طبع الادعياء الذين يسمون العظماء ، والذين يسمون الحكماء — اسلم نفسى واثقاد كالطفل لأولئك الذين كانوا يسمون أنفسهم اصحاء ، والذين كانوا يغفرون من أن يرونى أشقى وحدى طريقا جديدة . وأنا أبدو جد منهمك فى إسعاد نفسى ، فلم يعودوا يفكرون — فى الواقع — إلا فى أن يجعلونى مثارا للضحك ، وشرعوا فى العمل على تحقيرى ، لكى يصلوا من وراء ذلك إلى تشويه سمعتى ! .. كلن تغير شخصيتى ، الذى بدا فى هذه الفترة — وليست شهرتى الأدبية — هو الذى اثار غيرتهم منى .. ولعلمهم كانوا على استعداد لأن يغفروا لى إن لمعت فى فن الكتابة ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يغفروا لى أن ضربت بمسلكى مثالا بدا أنه ضاليتهم ! .. لقد فطرت على الود ، فكانت طباعى السلسلة الوديعه تغذى هذا الود دون عناء . ولقد كنت محبوبا

من كل أولئك الذين عرفوني ، طالما كنت أعيش مجهولا لدى
الرأى العام ، فلم يكن لى عدو واحد . . على أن اسمى لم يكذب
يلمح ، حتى أصبحت بلا أصدقاء . . وكانت هذه نكبة كبرى ،
ولكن الأكبر منها أننى كنت محاطا بقوم كانوا يسمون أنفسهم
أصدقاء ، فى حين أنهم لم يكونوا يستغلون الامتيازات التى
يتيحها لهم هذا الاسم ، إلا لى يجرونى إلى الهلاك . . ولسوف
تنكشف فى سياق هذه المذكرات ، تلك المؤامرة البشعة . على
أننى سأكتفى - فى الوقت الحاضر - بأن أشير إلى أصلها ،
وسيتبدى عما قريب كيف تشكلت أولى حلقاتها !



كان لا بد لى ، فى الاستقلال الذى أردت أن احيا فيه ،
من أن أحصل على القوت . وصور لى خيالى وسيلة جد
سهلة ، هى نسخ الموسيقى مقابل كذا للصفحة . ولو أن عملا
أكثر ثباتا من هذا كان يؤدى إلى الغاية ذاتها ، لأقنمت عليه .
ولكن هذه المهنة كانت توائم ميولى ، كما أنها كانت الوحيدة
الكفيلة بأن تهيب لى قوتى من يوم إلى آخر ، دون أن تقتضى
خضوعا أو تبعية لأحد . ومن ثم فقد قنعت بها . . واعتقادا
منى بأننى لم أعد بحاجة إلى أن أعول هم المستقبل ، خفقت
صوت غرورى ، وانقلبت من صراف لأحد رجال المال ، إلى
ناسخ موسيقى . . وظننت أننى قد كسبت كثيرا بهذا الاختيار ،
فلم يداخلنى ندم يذكر ، حتى أننى لم اتخل عن هذه المهنة إلا
بحكم الظروف القاهرة ، لأعود فلاحترفها بهجرد أن وسعنى ذلك .

ولقد أدى نجاح مقالى الأول إلى زيادة تيسر تحقيق هذا

القرار . وقد تكلل ديدرو بطبع المقال بعد فوزه بالجائزة .
وقد كتب لى - وأنا طريح الفراش - رسالة اعلننى فيها بنشر
المقال وبنتيجة ذلك . فقال : « لقد حظى بكل إطرء .. وما كان
لمثل هذا النجاح مثيل من قبل » . ولقد منحنى هذا التحبيذ
- الذى اولاه الراى العام عن رضى لكاتب مغمور - اول اطمئنان
حقيقى إلى كهامتى التى كنت فى ريب منها قبل ذلك ، برغم
مشاعرى الداخلية . وتبينت النفع العظيم الذى كان بوسعى
ان اظفر به من هذه الكماء ، بالنسبة إلى القرار الذى كنت اعم
بتنفيذه ، وقدرت ان ناسخا على قسط من الشهرة الادبية ، لن
يعاتى الحاجة إلى العمل إطلاقا !

وما ان استقر رأى وتوطد عزمى ، حتى كتبت إلى السيد
دى فرانكويى أثبته بذلك ، واشكر له - وللسيدة دويان كذلك -
كل انعمهما ، سائلا إياهما ان يعهدا إلى بها يرغبان فى نسخه
ولم يفقه فرانكويى من هذه الرسالة شيئا ، بل ظن اننى مازلت
فى بحران الحمى ، فهرع إلى دارى ، ولكنه وجد ان رأى كان
قد استقر تماها ، إلى درجة انه لم يستطع ان يززعنى عنه ..
وذهب غائبا السيدة دويان والناس كلهم باننى قد اختبلت ،
فتركته يقول ما شاء ، ومضيت فى طريقي . وبدأت إصلاح
نفسى بملبسى ، فتخليت عن الزوائد المطرزة بالقصب ، وعن
الجوارب البيضاء ، وارتديت قلنسوة مستديرة من الشعر
المستعار ، وطرحت عنى سيفى ، وبعثت ساعتى ، وهتلت
لنفسى فى غبطة بلوق التصور : « الحمد للسماء ، فلن تعود بى
حاجة إلى تعرف كم الساعة ! » . وتكرم السيد دى فرانكويى

بالقرينث لفترة طويلة ، قبل أن يتصرف بشأن خزانته ، حتى إذا رأى — فى النهاية — أننى مصر على قرارى ، عين السيد دالبيار ، الذى كان قبل ذلك مربيا ومعلما لشيونونسو فى صفهه ، والذى كان معروفا فى ميدان فلاحه البساتين بكتابه عن « الزهور الباريسية » (١) .

ومما خفف من عنت انقلايى التقشفى ، أننى لم أطبق الزهد — فى البداية — على ملابسى الداخلية المتبقية مما كان لدى فى (البنديقية) فقد كانت جميلة ووفيرة ، وكنت مولعا بها بوجه خاص . وبفضل اضطرارى إلى أن اتخذها مظهرا للنظافة ، إذا بى أجعلها موضع بذخ وترف ، الأمر الذى لم يلبث أن أبهظنى . ولقد تكرم على شخص ما فخلصنى من هذه الريقة . ففى أمسية عيد الميلاد ، وبينما كانت الخاديمات فى قداس الغروب ، بينما كنت فى « حفلة موسيقية روحية » (٢) أغتصب باب غرفة فى أعلى الدار ، كان غسيلنا منشورا فيها بعد غسله .. وسرقت الثياب جميعها ، وكان بينها اثنان وأربعون قميصا لى من أبدع الاتمشة ، كانت تؤلف الشطر الأكبر من ثيابى الداخلية . ومما

(١) أغضب « روسو » الى هذا قوله : « لست أشك اطلاقا فى أن فرانكوىي وخلصاه يرددون رواية منافضة لهذه ، ولكى استشهد بما خاله فرانكوىي — اذ ذاك — وما ظل يردده للملا وقتا طويلا بعد ذلك ، الى أن تكونت المؤامرة . ولا بد أن نوى الادراك السليم والامم الطيبة ، لا يزالون يلكرون قوله » .

(٢) وهى حفلات لا تعزف فيها سوى الموسيقى الدينية ، كتعود من الرياضة

ذكره الجيران شوهد رجل يغادر الدار - في تلك الفترة - حاملا بعض اللفائف . ولقد ارتابت تيريز ولياى في أخيهما ، الذى عرف بأنه امرؤ سوء . . وراحت الأم تدفع هذا الاستباه بحمية ، ولكنه تأكد بأدلة كثيرة عززته لدينا ، بالرغم من استنكارها إياه . ولم أجسر على القيام بتحقيق دقيق ، خشية أن اكتشف أكثر مما كنت أحب . على أن الأخ لم يظهر بعد ذلك في دارى ، وما لبث أن اختفى تماما . ولقد رثيت لسوء طالع تيريز وطالعى ، لارتباطنا بأسرة على هذه الشاكلة ، ورحت اناشدها أكثر من ذى قبل ، أن تطرح عنها عبءا خطيرا كهذا . ولقد أبرأنى هذا الحادث من ولعى بالثياب الداخلية الجميلة ، ولم أعد أقتنى بعد ذلك سوى ثياب من أقمشة عادية ، تتمشى مع بقية ملابسى .

وإذ استكملت انقلابى الاصلاحى بهذا الشكل ، لم بعد لى من هم سوى أن أدعمه وأعززه ، بالعمل على أن أجتث من قلبى كل ما كان عرضة للتأثر بآراء الناس . . وكل ما كان يوسعها أن يحولنى - بدافع من الخوف أو من اللوم - عن كل ما كان فى حد ذاته طيبا ومعقولا . وإلى جانب الضجة التى أحدثها مقالى ، أثار قرارى ضجة هو الآخر ، وجلب على عملا مكثفى من أن ابدا مهنتى الجديدة بتوفيق لا بأس به . على أن عدة أسباب عاقبتنى عن أن أنجح فى هذه المهنة بالقدر الذى كنت تمينا با حصل عليه فى ظروف أخرى . وكان أول هذه الأسباب صحة السيئة . فان مرضى الأخير خلف معقبات منعتنى من استبعاد حالى الصحية السابقة ، وانى لأعتقد بأن الأطباء الذين

أسلمت نفسي إلى رعايتهم ، الحقوا بى من الضرر فوق ما الحقه المرضى . فلقد سمعت بالتوالى إلى موران ، فدوران ، مهيلىتيوس ، مبالوان ، فثيرى . . وكانوا جميعا من الاساتذة ، وكلهم من اصدقائى ، وقد عالجنى كل منهم على طريقته دون أن يخلف عنى شيئا ، بل انهم اضعفونى كثيرا . وكنت كلما حملت نفسى على اتباع إرشاداتهم ، ازدبت شحوبا ، وهزالا ، وضعفا . واخذ خيالى - الذى أزعجوه - يقيس حالى بمدى مفعول عقاقيرهم ، فلم يعد يصور لى سوى سلسلة متتابعة من الآلام ، التى تسبق الموت ، ومن احتباس البول ، والحصباء ، وأحجار القبر . . كانت كل ألوان العلاج التى تخفف عن الغير - من مياه طبية ، وحمامات ، وحجامة - لا تزيد أوجاعى إلا استفحالا . وإذا وجدت أن مجسات داران - وهى الوحيدة التى أدت إلى بعض النتائج ، جعلتنى اعتقد أن لا سبيل لى إلى الحياة بدونها - لم تكن تهيب لى ، برغم ذلك ، سوى تسكين مؤقت للأوجاع ، فقد بالذرت إلى إنفاق مبلغ جسيم فى اقتناء كمية هائلة من المجسات تكفينى طيلة العمر ، ولو فارق داران الحياة . . ولا بد أننى أنفقت خمسين « لوى » على الأقل ، خلال السنوات الثمانى أو العشر التى استخدمت فيها هذه المجسات دون انقطاع . . ومن اليسر تبين أن علاجا ياهظ النفقات ، مؤلما مزعجا كهذا ، كان يشغلنى عن العمل ، وإن المرء إذا ما كلن مشرعا على الموت ، لا يشعر برغبة ملهونة فى كسب خبزه اليومى !

وكانت الشواغل الأدبية ملهأة أخرى ، لا تقل عن سابقتها عدوانا على عملى اليومى . فما هو أن نشر مقالى ، حتى انقضى على حماة الأدب ، وكانهم عصبة جمعت صفوفها . وغاظنى أن اجد مثل هذا العدد من « السادة جس » الصغار (١) ، يحاولون أن يفرضوا سلطانهم وإن لم يكونوا على دراية بالأمر ، فقد امتشقت قللى ، وعالجت فريقا منهم بطريقة لم تدع ضحكات فى صفوفهم ! .. وكان أول المتهاوين تحت طعنات قللى ، سيد من (نانسى) يدعى السيد جوتيه ، فقد أهين بغلظة فى رسالة إلى « جريم » . أما الثانى ، فكان الملك « ستانيسلاس » (٢) نفسه ، الذى لم يتورع عن أن يخوض المعركة ضدى . وقد اضطرنى الشرف الذى أضفاه على ، إلى أن أبدل لهجتى فى الرد عليه ، فاتخذت لهجة أكثر وقارا ، وإن لم تكن أقل شدة . فغندت رسالته تنالها ، دون أن اغض من اجترام المؤلف . ولة عرفت أن جيزويتيا يدعى الاب « مينو » كان ذا يد فى الموضوع فاعتهدت على فطنتى فى التفرقة بين عمل الأمير وعمل الراهب ، وانقضت دون إشفاق على كل العبارات الجيزويتية ، فكشفت — فى طريقى — عن خطأ تاريخى كنت اعتقد أنه

(١) السيد « جس » أهدى شخصيات مسرحية مولير « طبيب الغرام » وقد استعمل « روسو » هذا الاسم ليرمز الى المنحامل الذى تعبیه المصلحة الشخصية من الحق .

(٢) الملك ستانيسلاس الأول ، ملك بولندا وقد عاش من سنة ١٦٧٧ الى سنة ١٧٦٦ ، وخلفه « ستانيسلاس » الثانى ، آخر ملوك بولندا ، وقد عاش بين سنتى ١٧٢٢ و ١٧٩٨ ، والغالب أن « روسو » قصد أولهما .

لا يصدر إلا من قلم قداسته . وهذا المقال — الذى كان اقل من سواء إثارة للضجيج لسبب ما — يعتبر فى حد ذاته فريدا فى نوعه . لقد انتهزت فيه الفرصة لابين للرأى العام كيف أن فى وسع فرد معين أن يزود عن قضية الحق ، ضد عاهل ذى سلطان . وكان من العسير أن اتخذ لهجة أبيه ومحترمة — فى الوقت ذاته — تنوق تلك التى اتخذتها فى ردى عليه . وكنت مجدودا إذ قدر لى أن أنازل غريبا كان قلبى مفعما نحوه بتقدير كنت أملك أن أبدية له دون ما تملق . ولقد ظن أصدقائى — الذين انزعجوا من أجلى — أنهم لن يلبثوا أن يرونى فى « الباستيل » ، ولكن الخوف من ذلك لم يداخلنى لحظة واحدة .. وكنت محقا . فقد قاتل هذا الأمير الطيب ، بعد أن اطلع على ردى : « لقد تلقيت جزائى ، ولن أزج بنفسى فى الأمر بعد ذلك » . ومن ذلك الحين ، تلقيت منه الكثير من إمارات التقدير والكرم — التى سأضطر إلى ذكر بعضها — وانتشر مقاتلى فى فرنسا وأوربا فى هدوء ، ودون أن يجد امرؤ فيه منفذا إلى لوم !

وصادفت — بعد ذلك بقليل — غريبا آخر لم أكن أتوقعه هو السيد « بورد » الذى كنت أعرفه فى (ليون) ، والذى أولاتى — قبل عشر سنوات — كثيرا من الود ، وأدى لى عدة خدمات ، ولم أكن قد نسيت به ، ولكنى كنت قد تغافلت عنه تكاسلا ، كما أننى لم أكن قد أرسلت إليه مؤلفاتى ، إذ عزلتنى الفرصة المواتية لأبعث بها إليه — وكنت فى ذلك مخطئا . ولقد هاجمنى — ولكن فى أدب وأمانة — فرددت عليه بنفس اللهجة . وعاد إلى الهجوم

بإصرار ، غافسح بذلك المجال إلى رد مفحم ، لم ينبس بعده بكلمة (١) ، ولكنه صار اشد أعدانى ضراوة ، وانتهز وقت محنتى ليوجه إلى شتائم مقذعة ، كما رحل إلى لندن خصباً لكى يسعى إلى إيذائى !

ولقد شغلتنى هذه المجادلات القلمية كل الشبل . إذ بددت كثيراً من الوقت الذى كان يتطلبه عملى فى النسخ ، وعاشت تقدمى فى طلب الحقيقة ، وحدث من الكسب الذى كان يدخل جيبى . وكان « بيسو » - ناشر مؤلفاتى فى ذلك الحين - لا يمنحنى دائماً سوى مبالغ زهيدة جداً فى مقابل كتيباتى . وكثيراً ما كان لا يدفع شيئاً البتة . ومن أمثلة ذلك أننى لم اطلق درهما واحداً عن رسالتى الأولى ، إذ أعطاه دييرو إياها دون مبادل . وكان لا بد من أن انتظر طويلاً ، وأن انتزع منه القليل - الذى كان وجود به - « سو » إثر « سو » . وفى الوقت ذاته ، لم تكن سوقى فى النسخ رائجة ، فقد كنت مشغولاً بمهنتين ، وهذه هى الوسيلة لكى أسئء أداء كل منهما !.. ولقد تعارضت هاتان المهنتان فى ناحية أخرى ، وقد تمثل هذا التعارض فى تباين أسلوب الحياة الذى كانت كل منهما تضطرنى إلى انتهاجه .. ذلك أن نجاح مؤلفاتى الأولى ، جعلتنى قبلة الأنظار . إذ أثارت المكانة التى احتلتها فضول الناس ، وولد

(١) يبدو أن الذاكرة خانت « روسو » هنا : إذ أنه لم يوت « البر » مورد . سوى رد واحد ، بشأن مقاله : « فى فوائد العلوم » . لم يرد اللاتىنى مقال ثمن بنفسى الكاتب فى الموضوع ذاته .

الرغبة في معرفة هذا الرجل الغريب الأطوار ، الذى لم يكن يخطب ود أحد ، ولا يحفل إلا بأن يعيش على سجيته طليقا ، سعيدا .. وكانت هذه الرغبة كافية لأن تجعل الحياة التى كنت أنشدها مستحيلة ، إذ لم تعد حجرى تخلو من أناس كانوا يفدون ليسلبونى وقتى بمختلف الحجج . وعمدت النساء إلى الف حيلة لاستتراجى إلى موائدهن .. وكنت كلما جافيت الناس ازدادوا إصرارا على ملاحقتى .. ولم أعد أقوى على صدهم جميعا ، ففى الوقت الذى جلبت فيه على نفسى ألف عذرة — بسبب الرغص — كانت رغبتى فى مجاملة الغير نستعبدنى ، ولم أعد أحظى من يومى بساعة واحدة لنفسى ، مهما أحاول!



وأدركت إذ ذاك أن العيش فى فقر وحرية ، ليس دائما بالسهولة التى يتصورها المرء . فلقد شئت أن أعيش على مهنتى ، ولكن الجمهور لم يشأ ! .. وكانوا يبتكرون ألف وسيلة تافهة لتعويضى عن الوقت الذى كان يضيع على ، نأذا الهدايا — من بشخصه (١) . ولم أعرف عبودية أكثر قسوة وإذلالا من هذا ، ولا رايت له علاجا سوى أن أرغص جميع الهدايا ، كبرها وصغيرها ، دون ما استثناء لإرضاء أحد ! .. ولم يؤد كل هذا

(١) بوليشينيل : شخصية وردت فى خرافات (نابولى) اللدبية ، مرتضى صاحبها قبة ذات قرنين ، وقد تضخم جسمه من أمام ومن خلف ، وله أنف كمنقار الدجاجة ، وصوت أجش حاد ينطلق فى خفة (اختل) وهو رجل شرس ، صاخب ، عوييد " مشاكس " .

إلا إلى اجتذاب واهبى الهدايا ، الذين كانوا يطمعون في أن يحخلوا بفخر التغلب على صدودى ، وأن يدينونى بفضلهم بالرغم منى . وكلم من امرىء كان يخن على بـ « ابكو » واحد — لو أننى طلبته — ولكنه راح يضايقنى بعطايا دون انقطاع ، وهو يتهمنى بالغطرسة والكبر ، ليثار لنفسه من رضى !

ولا بد أن القارىء قد حدس أن القرار الذى كنت قد اتخذته ، والنهج الذى رغبت في انتهاجه ، لم يصادف هوى لدى السيدة لوفيسير . ولم يفلح كل ما كان لدى ابتنتها من تجرد من النفع الذاتى ، في أن يمنع هذه الابنة من أن تنساق لتوجيهات امها . ومن ثم فإن « الدادتين » (١) — كما اعتاد جوفكور أن يسميهما — لم تكونا حازمتين دائما مثلئى في رفض الهدايا ، من ناحيتهما ، ومع أن كثيرا من الأشياء كانت توارى عنى ، إلا أننى رايت ما كان كافيا لأن يقنعنى بأننى لم أر كل شيء !.. وقد عذبنى هذا ، لا خشية أن اتهم بالتواطؤ معها — وهو ما نبأت بأننى ملاقيه مما قريب — وإنما بسبب الفكرة القاسية التى أوحى بها عجزى من أن أكون صاحب السلطان فى بيتى ، وعلى نفسى ! .. ولقد رجوت ، وتوسلت ، وغضبت .. دون جدوى !.. ولقد صورتنى الأم فى صورة المتنمر الأبدى التائب والتوبيخ ، ورمتنى بأننى مشاكس شرس .. وكأنت لا تفتأ تتهامس مع أصدقائى .. كان كل شيء فى بيتى محوطا بالمفوض والأسرار ،

(١) الواقع أن التعبير الدارج « دادة » أتق من « مربية » فى أداء المعنى

ولكنى — اتقاء للتعرض للعواصف دون انقطاع — لم أعد أجرؤ على الاستفسار عما كان يجرى . ولقد كان التخلص من هذا الازعاج يتطلب حزمًا لم أكن أملكه ، إذ أنني كنت أعرف كيف أصبح ، ولكننى كنت لا أدري كيف أقمر الصباح بالعمل .. فتركت أصبح ، وظل كل شيء ماضيا في مجراه ؟

هذه المزعجات المستمرة ، وهذه المضايقات البومية التى كنت فريسة لها ، جعلت — فى النهاية — مسكنى ومقامى فى باريس من أبغض الأمور . وكنت إذا ما سمحت لى صحتى بالخروج ، وإذا لم أنسق إلى هنا أو إلى هناك تحت إغراء معارفى ، أمشى وحيدا ، وأنا أحلم بخطى العظيمة فى الحياة . وكنت أسطر بعض الخواطر ، مستعينا بفكرة بيضاء وقلم من الرصاص اعتدت أن أحتفظ بهما فى جيبى . وهكذا دفعت بى المضايقات الخفية لحال اخترتها لنفسى ، إلى مهنة الادب نهائيا ، فقد رحلت الود بها فرارا من تلك المضايقات . وهذا جو السر فى اننى بثت كل مؤلفاتى الأولى ، المرارة والضيق اللذين دفعاني إلى أن أشغل نفسى بكتابتها .

وهناك عامل آخر ساهم فى ذلك .. فأننى حين اتهمت — بالرغم منى — فى المجتمع ، دون أن أوتى طباعه . أو أن أكون على استعداد لأن اكتسبها، قررت أن أتخذ لنفسى طباعا خاصة تغننى . وإذا كانت جماعتى وحياتى الماضى — اللذين عجزت عن مغالبتها — صادرين أصلا عن الخوف من أن تعوزنى آداب اللياقة ، فقد رأيت — لكى أشجع نفسى — أن أدوس تلك الآداب تحت قدمى . وأحالنى الحياء إلى هجاء مقذع لاذع ، وحرصت

على ان ازيدى آداب اللياقة التى لم اتعلم كيف امارسها . ومن الصحيح ان هذه الغلطة تمشيت مع مبادئ الجديدة ، فاذا بها تكتسب سموا فى عقلى ، وتتخذ مظهر الجراءة المنبثقة عن الفضيلة .. واستطيع ان اذهب إلى القول بانها بهذا الشكل الجليل ، استطاعت ان تصمد خيرا — ولأمد أطول — مما كان مرتقبا ، بطبيعة الحال ، لجهد مناقض لسجيتى إلى هذا الحد، ومع ذلك فاننى كنت أسىء دائئا الاحتفاظ بشخصيتى ، فيما بينى وبين نفسى — بوجه خاص — بالرغم مما ذاع عنى فى المجتمع من نفور من البشر ، اوحى به مظهرى الخارجى وبعض الكلمات التى تنم عن ذلك ! .. وإذ راح أصدقائى ومعارفى يقدرون هذا الدب الوحشى وكأنه حمل ، وإذ راحوا يحدون من سخرياتهم فيقصرونها على الحقائق القاسية ، العالة ، فاننى لم أكن املك قط أن أقول كلمة مجاملة واحدة ، لى امرئ كان !



واذت قصة « خراف القرية » إلى تالقى فى المحتع . غلم يعد فى باريس رجل مرموق فوق ما كنت أنا . ويرتبط تاريخ هذه القصة — التى تمثّل فترة من حياتى — بعلاقات كنت قد انشأتها فى ذاك الحين . وهذه تفصيلات أرى واجبا على أن اتناولها ، لكى تنهم القصة حق النهم .

كان لى عدد كبير جدا من المعارف ، بيد اننى لم اصطف منهم سوى صديقين ، هما « بيدرو » و « جريم » . ونظرا لما أوتيت من رغبة فى أن اجمع بين كل أولئك الاعزاء لدى ، فإن صداقتى

الوثيقة لكل منهما ، لم تدع مناصا من ان يصبح كل منهما صديقا حيويا للآخر ، إذ أننى جمعتهم معا ، فاذا بهما بنسجمان ، وسرعان ما غدا كل منهما أوثق صلة بالآخر منه بى انا . وكان لديرو معارف لا حصر لهم ، أما « جريم » ، فقد كان بشيى المعارف ، إذ كان أجنبيا وحديث عهد بالبلاد . ولم أكن أطمح فى أكثر من ان أوفر له هؤلاء المعارف . فأتحت له صداقة ديدرو ، وصداقة جوفكور . . واصطحبته إلى دار السبدة دى شينونسو ، ودار السبدة ديبيناي ، ودار البارون دولباخ ، الذى وجدتنى مرتبطا به على الرغم منى تقريبا . . . وغدا كل أصدقائى أصدقاء له . وكان هذا الأمر غاية فى السهولة ، ولكن احدا من أصدقائه لم يصبح يوما صديقا لى ! . . وإليكم ما كان يحول دون ذلك :

لما كان جريم يقيم فى بيت الكونت دى غرييز ، غانه كان بدعونا إلى الغداء هناك أحيانا . ولكننى لم ألتق قط أى دليل على الود أو اللطف من الكونت دى غرييز ، أو الكونت دى شومبيرج — قريبه الذى كان وثيق الألفة بجريم — أو من أى شخص آخر ، ذكرا كان أو أنثى ، ممن كانت لجريم بهم علاقة ، عن طريق هذين السيدين . ولكن الوحيد المستثنى منهم ، هو الراهب « راينال » الذى أثبت أنه صديق لى ، وإن كان صديقا له ، والذى اعتاد أن يقدم كيس نقوده لى — إذا دعت الحاجة — فى كرم غير مألوف . على أننى كنت أعرف الراهب راينال قبل أن يعرفه جريم نفسه بوقت طويل ، وكنت أميل

إليه دائما ، عقب تصرف مفعم بالرقّة واللباقة اسداه إلى في مناسبة لطيفة القيمة ، ولكنى لم انسها البتة .

كان هذا الاب راينال صديقا حميما بالتاكيد . ولقد تسنى لى الدليل على ذلك ، حوالى الوقت الذى أنا بصددده تقريبا ، وفى امر يتعلق بجريم ذاته ، إذ كن على علاقة وثيقة به . فلقد ظل « جريم » بعض الوقت على صداقة خالصة بالانسة « غيل » ، ثم إذا به فجأة يغدو عاشقا مدلها فى هواها ، وان ينتزعها من « كاهوساك » . ولكن الحسناء طردت هذا المتيم الجديد ، وهى تفخر بوفائها ، فحمل الشاب الأمر محملا اليها ، حتى أنه فكر فى الموت . وما لبث أن وقع بغتة نرسة لأغرب مرض سمع به امرؤ . فقد راح يقضى نهاره وليله فى غيبوبة ، تظل خلالها عيناه مفتوحتين ، ونبضه منتظبا ، ولكن .. بلا كلام ، ولا طعام ، ولا حركة .. وكان يبدو أحيانا ما ينم عن أنه كان يسمع ، بيد أنه لم يكن يجيب إطلاقا ، ولو بالإشارة ! .. وكان — إلى جانب ذلك — غير منفعل ، ولا متألم ، ولا محموم .. وكان يبقى على هذه الحال ، وكأنه ميت ! . وتشاطرت والراهب راينال رعايته ، فكان الراهب — نظرا لفتوقه على فى متانة البنيان وقوة البدن — يسهر الليالى ، بينما كنت أعنى به فى النهار . وكنا لا نفارقه إطلاقا ، فلا يبرحه أى منا حتى يصل الآخر . وجزع الكونت دى فرييز ، فأحضر له « سبنك » الذى قال — بعد أن فحصه فحصا دقيقا — ألا علة هناك ، ولم يصف له دواء . وكان إشفاتى على صديقى قد حملنى على أن اراقب بإتعام محيا الطبيب ، فلمحته يتنسم وهو يغادر المكان



در آن زمان نفاقه اطلاق ، فلا پیرجه ای منا حتی یصل الآخر ۳۳

مع ذلك غان المريض ظل أياما عديدة دون حراك ، ودون أن يتناول حساء أو أى شيء ، اللهم إلا بعض الكريز المحفوظ ، الذى كنت أضعه على لسانه بين آن وآخر ، والذى كان يزدرده فى لهفة . وفى ذات صباح بديع ، استيقظ جريم ، وارتنى نياحه ، واستأنف حياته العادية ، دون أن يحدثنى قط ، أو يحدث الراهب — فيما علمت — أو يحدث أى مخلوق عن هذه الغيبوبة العجيبة ، ولا عن العناية التى أوليناه إياها طيلة استمرارها !

ولم يمر هذا الحادث دون ضجة ، فقد كان من الموضوعات العجيبة حقا ، أن تؤدى قسوة احدى غائيات الأوبرا ، إلى أن يموت رجل لفرط اليأس !.. وأذاعت هذه العاطفة الرائعة صيت « جريم » فى المجتمع ، حتى لقد اشتهر بأنه معجزة الحب ، والصداقة ، والوفاء ، فى كافة الاعتبارات . وجعلته هذه الفكرة مرموقا ، ومكرما لدى المجتمع الراقى . وبهذا تباعد عني ، أنا الذى لم أكن بالنسبة له أكثر من نكاة أو أداة !.. ورأيت أنه على وشك أن يغدو غريبا عني ، فأحزننى ذلك : إذ أن كل المشاعر المضطربة التى كان يتظاهر بها ، كانت عين المشاعر التى خالجتني نحوه ، دون أن أظاھر بها . ولقد كنت مغتبطا لنجاحه فى المجتمع ، ولكننى لم أكن أحب له أن ينسى أصدقاءه فى غمرة هذا النجاح . ولقد قلت له يوما : « انك لتهملنى يا جريم ، وإنى لأفقر لك ذلك . فلماذا ما انتبى مفعول النفسوة الأولى لهذا النجاح المدوى ، وشرعت تتبين أنه فارغ . فأتى أمل أن تعود إلى ، ولسوف تجتنى دواما كما عهدتني . أما فى الآونة الحاضرة ، فلا تضايق نفسك ، فسوف أدعك تفعل

ما يحلو لك ، وسوف انتظرك » . وقال لى إننى كنت على حنى
 ودبر خطته على هذا النسق ، وانطلق فى طريقه إلى نهاية
 الشوط ، حتى اننى لم أعمد أراه إلا مع الاصدقاء المشتركين
 لكلينا !

وكانت دار البارون دولباخ هى ملتقنا الرئيسى ، قبل أن
 يرتبط بمدام ديبيناي ارتباطا وثيقا . وكان البارون المذكور
 ابنا لرجل عصامى وقد أوتى ثروة عظيمة جدا ، فاستغلها
 استغلالا نبيلًا ، وفتح داره لأهل الادب والفن ، واستطاع
 بتثوره ومعرفته أن يملأ مكانه بينهم . وإذا كان على علاقته
 بديدرو منذ أمد طويل ، فقد سعى عن طريقه إلى التعرف بى ،
 قبل أن يغدو اسمى معروفا . وصدنى نفور طبيعى عن أن
 أستجيب لتقربه فترة طويلة . وقد سألنى عن السبب ذات
 يوم ، فقلت له : «إنك واسع الثراء» . ولكنه ألح فى طلب ودى ،
 واستطاع أن يتغلب على توجسى فى النهاية . لقد كانت نكبتى
 الكبرى دائما ، هى عجزى عن مقاومة الاطراء واللفظ ،
 وما وجدتنى يوما أتخطى عن هذه الشيمة !

* * *

ومن حالات التعارف التى تحولت إلى صداقة بمجرد أن
 وجدت من حقى أن أنشدتها ، معرفتى بالسيد ديكلو . ولقد
 انقضت عدة سنوات مذكراته - للمرة الأولى - فى (لاشيفريت)،
 لدى السيدة ديبيناي ، التى كان على صلات طيبة بها . ولم
 نحظ بأكثر من أن تناولنا الغداء معا ، ثم رحل فى اليوم ذاته .

ولكننا وجدنا الفرصة لتبادل الحديث فترة بعد الغداء . وكانت السيدة ديبيناي قد حدثته عنى وعن أوبراي « عرائس الشعر اللطاف » . وكان « ديكلو » ذا مواهب عظيمة ، أسمى من أن تجعله يصدف عن حب الموهوبين ، ومن ثم فقد مال إلى ، ودعانى إلى زيارته . وبالرغم من ميلى القديم (١) ، الذى عززته المعرفة ، فإن حياى وكسلى ظلا يعوقاننى طويلا؛ حتى لم يبق ثمة ما يقربنى إليه سوى لطفه وحفاوته . على أننى تشجعت بنجاحى الأول (٢) وبما بلغنى من إطرانه هذا النجاح ، فمعت بزيارته ، وجاء لزيارتى ، وهكذا بدأت بيننا روابط ستظل تجعلنى اعتر به دائما ، وإليها — وإلى شهادة قلبى الصادق — أدبين بمعرفة أن الاستقامة والوفاء ، قد تقترن احبانا بالثقافة الأدبية !

ولقد كانت كثير من علاقاتى — التى ينقل متانة عبا ذكرت ، والتى اتجاوز عن ذكرها هنا — نتيجة مرات نجاحى الأولى ، وقد دامت إلى أن قدر لفضول أصحابها أن يرتوى . فلقد كانت نفسى تتكشف على حقيقتها سريعا ، فلا يعود ثمة جديد يرى فيها بعد اليوم الاول للتعارف ! .. على أن من النساء اللائى سعين إلى التعرف بى فى تلك الآونة ، امرأة صارت اقوى صلة بى من سواها . تلك هى السيدة المركيزة دى كريكى .

(١) ميله الى كل من بيدى له اللطف والاطراء .

(٢) نجاح رسالة فى فوائد العلوم الحديثة .

ابنة اخ السيد « لوباييللى دى فرولاى » ، الذى كان سفيرا لفرنسا فى (مالطة) وكان أخوها سلفا للسيد دى مونتيجى فى السفارة الفرنسية فى (البندقية) ، وزرته عقب عودتى من تلك المدينة .. ولقد كتبت السيدة دى كريكى إلى ، غذهبت لزيارتها .. واستقبلتنى فى مودة ، وتناولت الغداء لديها بضم مرات ، وقابلت لديها كثيرا من الأدياء .. منهم السيد سوران - مؤلف « سبارتاكوس » و « بارنيفلت » وغيرها - الذى أصبح من ذلك الحين الد أعدائى ، لغر ما سبب استطيع ان تصوره ، سوى اننى أحمل اسم رجل كان أبوه قد اضطهده بخسة وظلم .

ويرى من هذا ، اننى - كناسخ كان ينبغى أن يشغل بمهنته من الصباح إلى المساء - كنت أصادف كثيرا من الشواغل التى كانت تعوق عملى اليومى عن أن يكون جد مريح ، وكانت تمنعنى من أن أعنى العناية الواجبة بما كان مصدرا لرزقى . وكنت أضع أكثر من نصف الوقت المتبقى لى ، فى محو أو كشط الأخطاء التى كنت ارتكبتها فيما أنسخ ، أو فى إعادة كتابته من جديد . وقد أدى هذا الازعاج إلى أن أصبحت لا أطبق بارييس يوما بعد يوم ، وإلى حملى على أن أنشد الريف برغبة قوية . فذهبت عدة مرات لأقضى أياما فى (ماركوسى) ، التى كانت مدام لوفاسير على معرفة بأسقفها .. وقد استطعنا أن ندبر الأمر بحيث أنه لم يجد أى ضرر فى مقامنا فى داره .. ولقد ذهب

معنا « جريم » مرة إلى هناك (١). وكان الأسقف ذا صوت رخم ، كما كان يجيد الغناء ، ومع انه لم يكن ملما بالموسيقى . إلا انه كان يستطيع أن يحفظ دوره بدقة . ومن ثم غنّد قخبذ . الوقت في ترديد الأغاني الثلاثية التي كنت قد نسجتها في (سينونسو) ، كما لحنّت أغنيتين أو ثلاثا جديدة ، وضع « جريم » والأسقف كلماتها بقدر ما سمعها . ولست املك أن أمنع نفسي عن التحسر على تلك الاغاني الثلاثية التي وضعت في لحظات مفعمة بالغبطة الخالصة ، والتي تركتها في (فوتون) ومعها جميع قطعى الموسيقى . ولعل الأنسة دافنبورت قد اتخذت منها أثرطة ورقية للفرش . على أنها كانت جديرة بأن تصان ، فقد كانت — في الغالب — دقيقة الوزن . وحدث بعد إحدى هذه الرحلات القصيرة — وقد اغتبطت لرؤية « العمة » منشرة مسرورة ، كما كنت أنا الآخر مبتهجا — أن كتبت إلى الأسقف خطابا شعريا ، نظمته في عجلة وفي غير عناية . . . وسيوجد بين أوراقى .



(١) أضف « روسو » الى هذا ، الاستدراك التالى : « لما كنت قد أغفلت هنا ذكر حادث ثام ، ولكنه جدير بالذكر ، وقع لى مع « جريم » المدكوك ذات صباح ، وقد اعترنا تناول الغداء عند عين (سان غاتريل) ، فأننى لم اعود الى هذا الحادث . ولكنى حين فكرت فيه — فيما بعد — استنجت ا جريم كان يبيت النية في قرارة قلبه — منذ ذلك الحين — على المؤامرة اسر نذها فيما بعد بنجاح رائع » !

وكان لى - فى مكان أكثر قربا من باريس - ملاذ آخر يلائم مزاجى . . تلك هى دار السيد « موسار » . مواطنى وقريبى وصديقى ، الذى أعد لنفسه مأوى فاتنا فى اباسى ، قضيت فيه كثيرا من اللحظات الوداعة . وكان السيد موسار تاجر مجوهرات ، وكان رجلا سليم الذوق ، جوع من حرته ثروة طيبة ، وزوج ابنته الوحيدة من السيد دى فالمالبت - ابن صراف ومدير فندق الملك - ثم استقر رايه الحكيم على أن يهجر فى أيام شيخوخته التجارة والعمل ، لينعم بالراحة والاستجمام فترة من الزمن ، بين هموم الحياة ونهاية الاجل .

وكان « موسار » الطبيب فيلسوفا عمليا حقا ، فكان يعبئ بلا هموم ، فى دار بديعة ابتناها لنفسه ، وفى حديقة غناء زرعها بيديه . وفيما كان يحفر قنوات أحواض هذه الحديقة ، عثر على قواقع متحجرة ، ووجدها بكميات كبيرة إلى درجة أن خياله المتوثب لم يعد يرى فى الطبيعة سوى قواقع ، حتى انتهى أخيرا إلى الإيمان الجازم بأن الكون لم يكن غير قواقع! . . وأصبح لا يفكر دائما إلا فى هذا الأمر ، وفى اكتشافه الغد ، حتى أهاجته هذه الأفكار ، وأوشكت - فى النهاية - أن تتخذ فى رأسه شكل نظرية - أعنى خبلا - لولا أن الموت تدخل فى الأمر - لحسن حظ عقله ، ولسوء حظ أصدقائه الذين كانوا يعتزون به ، ويجدون فى داره أبداع مأوى - فانتزعهم من بينهم ، متوسلا بأغرب وأقسى مرض . . ذاك هو تورم فى معدته ، كان دائم التضخم ، وكان يحرمه من الأكل ، دون أن يهبدى سببه برغم طول العهد به ، ثم انتهى بموته جوعا ، بعد سنوات عديدة من العذاب! . . ولست املك أن استرجع نهاية عمر هذا الرجل ،

دون أن ينقبض فؤادى . فقد ظل يستقبلنا — « لينيبب »
وأنا — بسرور عارم . . وكنا الصديقين الوحيدين اللذين لم
يحملهما منظر الآلام التى كان يعانيتها ، على أن ينأى عنه إلى آخر
ساعة فى حياته . . وانى لأفكر أنه لم يكن إذ ذاك لبقوى على
التهام الطعام — الذى اعتاد أن يأمر بتقديمه إلينا — إلا بعينيه ،
ولا كان يطبق ابتلاع بضع قطرات من الشاى الخفيف ، إلا
ليلفظها فى اللحظة التالية ! . . ولكن كم من أوقات — قبل تلك
الآلام — قضيتها فى داره مسرورا ، مع النخبة التى اصطفاها
من الأصديقاء ! . . وانى لأضع على رأس هؤلاء الراهب
« بريغو » (١) ، وكان شخصا لطيفا ، سلسا ، يستلهم قلبه
ما كان يكتب من أشياء جديرة بالخلود ، ولا يبدي — سواء فى
مظهره أو فى معشره — شيئا من ذلك الجو القاتم الذى غرضه
على مؤلفاته . . والحبيب « بروكوب » ، وكان « بعسوب .
صغرا (٢) ، ذا حظوة لدى النساء ، و « بولانجيه » المؤلف المزعوم
للمثيلية الموسيقية الهزلية « الاستبداد الشرقى » ، وقد عمد
فيما اعتقد — إلى التوسع فى نظريات « موسار » عن مدى عمر
الدنيا . . أما بين النساء ، فأذكر السيدة « دنيس » ابنة أخت
« فولتير » ، التى كانت — إذ ذاك — طيبة ساذجة ، ولم تكن

(١) اشتهر باسم « الأب بريغو » ، واسمه الأصلى « بريغو ديكسيل » .
وهو مؤلف قصة « ماتون ليسكو » الخالدة . وقد ولد فى سنة ١٦٩٧ ومات
فى سنة ١٧٦٣

(٢) بعسوب : شخصية أسطورية أفريقية ، وإن كان هرودوت يقول أنه
شخصية حقيقية ، وقد عاش فى مصر واشتهر بالرحلات والأدب .

قد زعمت لنفسها شئنا من توقد الفكر . . والسند " نأتلو " التي لم تكن جميلة حقا ، ولكنها كانت غائنة ، ونأنت في غنا كالملاك . . والسيدة « فالماليت » التي كانت تحذق الغناء هي الأخرى ، والتي كانت — برغم هزالها — بالغة اللطف لو أنها خفت من تظاهرها باللطف !! . . هؤلاء كانوا صنوة رواد ندوة السيد موسار — تقريبا — وقد كانت صحبتهم خلية بأن تذهب إلى ، لولا أن نظرياته عن القواقع كانت الذ ، حتى لاذهب إلى القول بأنني عكفت لسته أشهر على العمل في مكتبه . في دراسة هذه النظرية ، باغتياب لم يكن يقل عن اغتيابه !

وكان يلح — من زمن طويل قبل ذاك — بأن مباد (باسي) كانت كفيلة بأن تصلح حالى الصحية ، وكان يلح في أن أتردد على داره لكي أتناولها . وقد انصعت أخيرا له لكي انتزع نفسى — بعض الوقت — من ضجيج المدينة ، فقتيت في (باسي) ثمانية أيام أو عشرة ، أهدت منها كل الفائدة ، بفضل إقامتى في الريف ، أكثر مما هو بفضل تناول تلك المياه . وكان «موسار» يهوى العزف على الكمان الكبيرة، ويشغف بالموسيقى الإيطالية. وفي ذات مساء ، أطلنا الحديث — قبل أن نأوى إلى مخادعنا — في هذا المجال ، وتكلمنا بوجه خاص عن « أوبرا بوغا » ، التي رأها كل منا على حدة — في إيطاليا — والتي أعجب بها كل منا إعجابا بالغا . . ولم أتم في تلك الليلة ، فشرعت أفكر في وسيلة يمكننى من أن أتيح فكرة مثل هذا النوع من « الدراما » لفرنسا. إذ لم يكن ثمة شبه بين « غراميات راجوند » وهذا النوع (١).

وفي الصباح التالي، نظمت على عجل بعض نماذج من الشعر -
تتمشى مع هذه الفكرة - أثناء ما كنت أترىض وأتأمل المياه -
ونسقتها مع الألحان التي توافدت على رأسي خلال ذلك .
وسطرت جميع هذه الأغاني ، في « صالون » ذي قبة ، فوق
الحديقة . ثم لم أتورع عن أن أعرضها - أثناء تناول الشاي -
على موسار والآنسة دوميرنوا مديرة داره ، التي كانت
بالغة الطيبة واللفظ حقا . وكانت القطع الثلاث التي نظمتها
في عجلة ، تؤلف الأغنية الفردية الأولى ، وهي : « فقدت
خادمي » ، و « عراف القرية » ، و « الحب يخشى علي نفسه » .
.. ثم الثنائي الأخير : « أبدا لن أخطبك » ، يا كولان » ، الخ !
ولم أكن أعول كثيرا على أن هذه المحاولة تستحق عناء المضي
فيها . ولولا الاستحسان والتشجيع اللذين لقيتهما من كل منهما ،
لكنت خليقا بأن ألقى قصاصاتي إلى النار ، ولا أعود إلى التفكير
فيها ، كما فعلت من قبل بقطع أخرى كانت تماثل هذه ؛
على الأقل ! .. ومن ثم فقد وجدتني متحمسا ، حتى أن
« الدراما » اكتملت خلال ستة أيام ، فيما عدا بضعة سطور ..
كما أنني وضعت أفكار الموسيقى كلها ، فلم يعد أمامي ما أفعله
في (باريس) ، سوى أن أضيف بعض مقطوعات إلقائية ، وأن
أهمل بعض الحواشي . وقد مرغت بسرعة من كل هذه ، فلم
تنقض ثلاثة أسابيع ، حتى كانت المناظر قد نسخت ، وأصبحت
مهياة للعرض . ولم يكن ثمة ما ينقصها سوى موسيقى الانتقال
من منظر إلى آخر ، وقد قدر لها ألا توضع إلا بعد ذلك
بوقت طويل .

سنة ١٧٥٢

اثارنى وضع هذا العمل الأدبى الفنى ، حتى لقد تملكنى شوق عارم إلى سماعه ، وحتى اننى كنت على استعداد لان أنزل عن كل شيء ، فى سبيل ان أراه معروضا أمامى - بالشكل الذى كنت أتمنّيه فى خيالى - فى غرفة موصدة ، كما فعلت « لولى » - فيها يقال - إذ شهدت يوما مسرحية « أرميد » تمثل أمامها وحدها . ولما لم يكن من الميسور لى أن أنعم بهذه المتعة إلا برفقة الجمهور ، فقد كان من الضرورى ، لكى تمثل هذه الأوبرا ، من أن تلقى قبولا فى دار « الأوبرا » . ولكنها - لسوء الحظ - كانت من نمط جديد كل الجودة ، لم تألفه آذان الجمهور ، كما أن فشل « عرائس الشعر اللطاف » جعلنى أتوقع المصير ذاته للعراف^(١) ، إذا أنا قدمتها باسمى . وقد ساعدنى « ديلكو » على الخروج من هذا المازق ، إذ تكفل بان يسعى إلى إجراء تجارب على المسرحية ، دون أن يكشف عن اسم المؤلف . ولكى لا أتم عن نفسى ، فاتفقنا لم أحضر التجربة، وظل كل امرئ - حتى « الكمانان الصغيران »^(٢) ، اللذان توليا الإخراج - يجهلان اسم المؤلف ، إلى أن شهد الاستحسان العام بروعة المسرحية . ولقد فتن كل من سمعها ، حتى أن

(١) أطلق روسو على هذه « الأوبرا » اسم « عراف الغربة » .

(٢) لقب اشتهر به « ريبيل » و « فرانكور » اللذان كانا يوليان الإخراج الموسيقى ، وقيادة الفرقة الموسيقية فى « الأوبرا » . وقد سميا بذلك ، لانهما اعتادا فى صباهما أن يطوما بالببوت ، وهما يعزفان على « الكمان » .

جميع الأوساط لم تتحدث إلا عنها في اليوم التالي . ولقد شهد السيد كورى - مدير حفلات البلاط - التجسرية ، فطلب المسرحية لتعرض في البلاط ، ولكن ديلكو - الذى كان يعرف نواياه فخشى أن يكون سلطانى على المسرحية في البلاط أقل منه في باريس - رفض أن يسلمه إياها ، فعاد كورى يطلبها بحكم منصبه . واحتدم الجدل بينهما ، حتى لقد تطور ذات يوم - وهما في « الأوبرا » - فاوشكا أن يخرج ليتبارزا ، لولا أن حيل بينهما .

ورؤى الاتصال بى بشأنها ، ولكنى تركت البت في ذلك إلى السيد ديلكو ، فكان لابد من الرجوع إليه . وتوسط السيد الدوق دومون في الأمر ، فرأى ديلكو - في النهاية - أن من الواجب النزول عند رغبة صاحب السلطة ، وقدمت المسرحية لتمثل في (فونتنبيلو) . وكان الجزء الذى أوليته أعظم اهتمام ، والذى نأيت فيه كثيرا عن النهج المألوف ، هو الإلقاء الغنائى . فقد نسق الإلقاء - في أوبراى - بطريقة جديدة تماما ، بحيث يتمشى النغم مع إلقاء الكلمات . ولكنهم لم يجسروا على أن يستبقوا هذا التجديد ، إذ خيف من أن يصدم الأذان التى ألفت الرتابة . ومن ثم فأننى وافقت على أن يضع « فرانكوى » و « جيليوت » الحاناً جديدة للإلقاء ، ولكنى رفضت أن تكون لى يد في ذلك .

وإذ تم إعداد كل شيء ، وحدد يوم العرض ، أقترح على أن أرحل إلى (فونتنبيلو) لأحضر التجربة الأخيرة ، على الأقل . فذهبت مع الأنسة « فيل » ، وجريم ، والراهب « راينال »

— على ما اظن — فى إحدى العربات الملكية . ولم يكن ثمة باس بالتجربة ، بل اننى كنت أكثر رضى عنها مما توقعت . وكانت الفرقة الموسيقية قوية ، كثيرة النفر ، مؤلفة من موسيقيى « الاوبرا » والفرقة الملكية . وقام « جيليويت » بدور « كولان » ، والأنسة « فيل » بدور « كوليت » ، و « كوفيتيه » بدور العراف . وكان المنشدون من « الاوبرا » . ولم ادل بغير ملاحظات قليلة ، فقد تولى « جيليويت » الاخراج ، فلم أشأ أن افرض سلطانا على ما فعل . وبالرغم من مظهرى الرومانى ، فاننى كنت فى حياء التلميذ إذا ألفى نفسه وسط كل هؤلاء القوم !

وفى اليوم التالى — وهو يوم العرض — ذهبت لأتناول الفطور فى مقهى « الجيران كومون » ، فاذا به زائر بالناس ، وإذا الحديث يدور حول تجربة الليلة السابقة ، وتعذر الدخول إلى المسرح . وقال ضابط من الحضور ، إنه دخل بلا عناء ، واسهب فى وصف ما حدث داخل المسرح ، كما وصف المؤلف ، وروى ما قاله وما فعله . والذى اذهلنى فى حديثه الطويل — الذى القاه فى بساطة واعتداد — أنه لم يضم كلمة واحدة من الحقيقة! . . بل لقد تجلّى لى تماما ، أن هذا الذى تكلم عن التجربة بلهجة العالم ، لم يكن حاضرا البتة فقد كان هذا المؤلف — الذى قال إنه رآه كما صوره — حاضرا أمام عينيه ، فلم يتعرف عليه! . . وكان أغرب ما فى هذه الواقعة ، هو الأثر الذى أحدثته فى نفسى . فلقد كان فلك الرجل كبير السن ، ولم يكن يلوح عليه غرور الخيلاء ، ولا الزهو ، سواء فى مظهره أو لهجته . بل أن

سماه كانت تنم عن أنه رجل غاضل ، كما كان وسام « صليب سان لوى » - على صدره - يوحى بأنه ضابط قديم . ولقد ابتأثر باهتنامى بالرغم منى ، وبرغم قحته فى الكذب . وفيها كان يمضى فى أكاذيبه ، راح وجهى يتخرج خجلا ، وأخذت أغض بضرى واتللمل فى مجلسى . وكنت أسال نفسى أحيانا : اليس من الجائز أن يكون قد آمن بكذبه حتى غدا يظنه حقيقة ؟ ! .. وأخيرا ، أسرعت بإفراغ قدح « الشيكولاته » دون أن أنبسى ببنت شفة ، وأنا ارتجف خشية أن يتعرف على أحد فيخبطه ، ومررت بمجلسه وأنا منكس رأسى ، وغادرت المتهى بأسرع ما استطعت ، بينما كان القوم ماضين فى الحديث عما كان يصفه . ونفذت إلى الطريق وأنا أسبح فى العرق . ولو أن أحدا عرفنى وفكر اسمى قبل خروجى ، فأنى أوقن بأننى كنت خلبقا بأن أبدى من الخجل والارتباك ما يبدیه أى مذهب ، لجرد الشعور بالصغار الذى كان الرجل جدير بأن يشعر به إذا ما افترضت أكاذيبه !



وها أنذا أصل إلى تلك اللحظات الحرجة فى حياتى ، فاز من العسير أن أقتصر على مجرد الرواية ، لأنه من المستحيل تقريبا ألا تتأثر الرواية بشيء من النقد أو التبرير . على أننى سأحاول أن أروى كيف تصرفت ، وعن أية بواعث صدرت فى تصرفاتى ، دون أن أضيف ما ينم عن إطراء أو عن لوم .

ففى ذلك اليوم المقصود ، بدوت فى نفس الزى المهمل الذى الفتة ، وقد نمت لحيتى ، وبدأ شعرى المستعار غير منسق . وبهذا المظهر الذى نبا عن اللياقة ، والذى كنت اعتبره دلبلا

على الشجاعة ، دخلت القاعة التى كان من المنتظر ان يند عندها الملك والملكة والأسرة الملكية والحاشية بأسرها ، بعد قليل . وتقدمت لأحتل مكانى فى المقصورة التى قادنى إليها السيد « كورى » . . وكانت هى مقصورته ، مقصورة واسعة . . فى مواجهة مقصورة أخرى ، اصفر منها حجما ، وأكثر ارتفاعا ، جلس فيها الملك والسيدة دى بومبادور . ولم يداخلنى شك فى اننى أجلس كذلك ، لكى ابدو واضحا ، إذ كنت الرجل الوحيد أمام مقصورة الملك ، وقد احاطت بى السيدات . وعندما أوقدت أضواء المسرح ، وجدتني - فى ملابسى تلك - وسط قوم فى أوج الأناقة ، فبدأت أشعر بضيق وخرج . وسألت نفسى عما إذا كنت فى المكان اللائق ، وعما إذا كنت فى الثياب اللائقة . وبعد لحظات من الحرج ، أجبت نفسى عن هذا التساؤل فى جراءة لعلها انبعثت عن استحالة التراجع ، أكثر مما انبعثت عن قوة حججى : « أجل » . . . وقلت لنفسى : « إننى فى المكان اللائق بى ، ما دمت قد جئت لأشهد تمثيل مسرحينى . . وإذا كنت فى ثيابى المعتادة ، ولست فى أفضل أو أقل مما ألفت ، فما ذلك إلا لاننى دعيت ، ولاننى ألفت هذه الأوبرا لهذا الغرض فحسب ، ولاته - فوق كل شيء - ليس هناك من يفوقنى جدارة باستمراء ثمار جهدى ومواهبى ولو أننى عدت إلى الخضوع للرأى العام فى أمر واحد ، فسرعان ما سأصبح عبدا للرأى العام - فى كل شيء - من جديد . أما إذا شئت أن أثبت على نهجى ، فمن الواجب ألا أخجل - أينما أكون - من أن ارتدى ما يتلاءم مع ظروف الحياة التى اخترتها لنفسى . ان مظهرى الخارجى بسيط وغير متأنق ، ولكنه ليس قذرا ،

ولا مستهجننا . وكذلك اللحية — فى حد ذاتها — ما دامت الطبيعة هى التى تخلعها علينا .. بل إنها مظهر من مظاهر الزينة احبانا ، كما تتم تطورات مستحدثات الأناقة . وقد يرانى الناس مضحكا ، او سفيها .. حسنا ، وفيم يهمنى هذا ؟ .. يجب ان اتعلم كيف أعرض عن ضحك الناس او عن نقدهم : ما دمت لا استحقهما !



” وشعرت بعد هذه المفاجأة القصيرة بالثقة تعاودنى . إلى درجة كانت كافية لأن تجعلنى جريئا .. وهو ما كنت بحاجة إليه . على اننى لم أر فى الفضول الذى تعرضت له ، سوى مظهر للادب والحفاوة ، سواء كان مرد ذلك الراى إلى تأثير وجود العاهل ، او إلى التصرف الطبيعى الذى ابداه اولئك الذين أحاطت بى قلوبهم .. وشعرت بالتأثر ، حتى اننى بدات أحس بالقلق — من جديد — على نفسى وعلى مصير مسرحيتى . خشية أن اقضى على ما ربما كان لدى القوم من آراء سابقة — فى صالحى — كان يبدو لى أنه لم يكن ينقصها سوى التصفيق . وكنت قد تفرغت ضد سخريتهم ، ولكن عطفهم — الذى لم اكن اتوقعه — طفى على كل الطغيان ، حتى اننى رحت ارتجف كالطفل ، عندما ابتدأ التمثيل !

وسرعان ما تبينت أن ليس ثمة مبرر للقلق .. كان أداء

المسرحية جد سيء من ناحية الممثلين ، ولكن الغناء كان جيدا .
 والموسيقى حسنة الاداء . وبهذا المشهد الاول -- الذى تان
 مؤثرا فى بساطته حقا -- سمعت فى المقصورات تمتعة اندهاش ،
 واستحسانا لم يسمع من قبل فى مثل هذا النوع من التمثيليات .
 وما لبثت التحمس المطرد ان بلغ ذروته ، حتى انه تفشى فى جميع
 النظارة ، وان ضوعف أثره بفضل هذا الاثر ذاته ، كما ينبغى
 ان يقال بأسلوب « مونتسكيو » . وقد بلغ هذا الاثر اوجه فى
 المشهد الذى دار بين الشخصين الصغيرين الساذجين . ومن
 المعتاد الا يصفق احد قط ، فى حضور الملك ، وقد ساعد
 هذا على سماع كل شيء بوضوح ، مما امداد التمثيلية والمؤلف .
 وسمعت حولى همسات نساء كن يلحن لى فى جمال الملائكة ،
 وهن يقتلن بعضهن لبعض : « هذا غاتن .. هذا خلاب ! ..
 ما من نغم هنا إلا وينبثق من القلب ! » . وهزتنى لذة التأثير
 على كل هؤلاء القوم الراقين ، حتى انطلقت دموعى ، فلم اسطع
 ان اكبحها فى الاغنية الثنائية الاولى ، إذ لاحظت اننى لم اكن
 الوحيد الذى بكى ! .. ومرت بى لحظة ، رجعت فبها إلى نفسى
 إذ تذكرت الحفلة الموسيقية التى اقيمت بدار السيد دى
 « تريوران » . وحدثت هذه الذكرى فى نفسى شعورا كشعور
 العبد الرقيق الذى كان يرفع التاج فوق رؤوس المظفرين (١) .

(١) عادة كانت متبعة فى مواكب النصر لدى الرومان .

ولكن هذا الشعور كان قصير الأجل ، إذ اننى سرعان ما استسلمت تماما - ودون أى تحفظ - لنشوة مذاق مجدى . ومع ذلك فانى أوقن بأن الشهوة الجنسية كانت - فى تلك اللحظة - أكثر أثرا من غرور المؤلف فى هذه النشوة ! .. فمن المؤكد أنه لو لم يكن ثمة غير الرجال حضور : لما تأججت فى نفسى الرغبة الملحة فى أن ألتقى بشفتى . الدبوع العذبة التى تسببت فى انسيابها ! .. ولقد شهدت تمثيليات أثارت من نوبات الاعجاب ما كان أشد مما رايت فى هذه الليلة : ولكنى لم أشهد قط نشوة فى مثل تدفق ، وفى مثل بهاء ، وفى مثل تأثير هذه التى استولت تماما على النظارة ، لا سيما وقد كانت هذه أولى المرات التى تعرض فيها المسرحية ، ولا سيما وانها كانت تعرض فى البلاط الملكى . ولا بد أن الذين شهدوها إذ ذاك ، لا يزالون يفكرونها ، فقد كان تأثيرها هذا !

وفى الليلة ذاتها ، أوفد إلى السيد الدوق دومون ، من انبائى بان أكون موجودا فى القصر ، فى الساعة الحادية عشرة من الصباح التالى ، ويأنه سيقدمنى إلى الملك . وأضاف السيد دى كورى - الذى حمل إلى الرسالة - أنه من المعتقد أن ثمة اقتراحا بمنحى معاشا ، وأن الملك أراد أن يعلننى بذلك بنفسه ! .. فهل مما يصدق أن الليلة ، التى أعقبت يوما بهذا الاشراق ، كانت ليلة هم وحيرة ؟ .. كانت أولى انكارى ، بعد

هذه الخواطر السالفة ، تتمثل في حاجة ملحة إلى الخروج (١) ، كبديتى في المساء ذاته عناء كبيرا أثناء التمثيل ، وكان من الممكن أن تعقبني في اليوم التالي ، عندما أكون في بهو الملك أو في جناحه ، أنتظر بين كل أولئك العظماء مرور الملك ! كان هذا الداء هو السبب الرئيسى الذى حملنى على تجنب الاجتماعات ، والذى منعنى من الاطمئنان إلى البقاء في غرفة مغلقة لدى السيدات . وكان مجرد التفكير في الموقف الذى قد تقحمنى فيه هذه الضرورة ، كافيا لان يخرجنى إلى درجة تسلمنى إلى الإغماء ، إن لم يكن إلى فضيحة كتت خليقا بان أوثر عليها الموت . ولا يدرك الجزع من التعرض لخطر كهذا ، سوى أولئك الذين عرفوا مثل هذه الحال !

وراحت — بعد ذلك — اتصور نفسى ماثلا أمام الملك ، وأنا أقدم إليه ، فيتنزل ويقف ليحدثنى .. وهنا لا بد من سرعة الخطر وحضور البديهة للاجابة . أفكان حياىى اللعين — الذى اعتاد أن يضايقنى أمام أقل المغمورين — ليهجرنى أمام ملك فرنسا ؟ .. وهل يدعى أحسن اختيار ما ينبغى أن يقال ، فى التوفيق ؟ .. ووددت لو أستطيع — دون أن أتخلى عن المظهر واللهجة القاسيين اللذين اعتدت الظهور بهما — أن أبدى

(١) يقصد الخروج لقضاء حاجة . ولعلنا نذكر انه كان يتعرض لنوبات بكثرة

إدراكى للشرف المتاح لى من مثل هذا العاهل العظيم ؟ .. كان لابد لى من أن ألف بعض الحقائق الجلية والنافعة ، فى غلالة من الثناء الجميل البارع .. ولكى أتمكن من أن أعد — مقدما — جوابا موفقا ، كان لابد لى من أن أعرف بالدقة ما يمكن أن يقوله لى الملك .. وكنت واثقا — بعد ذلك — من اننى لن أستطيع أن استحضر فى وجوده ما أكون قد أعدته ! .. فماذا يكون شأنى ، فى هذه اللحظة ، أمام أعين الحاشية كلها ، إذا افلقت منى ، فى غمرة اضطرابى ، بعض سخافاتى العادية ؟ .. لقد روعنى هذا الخطر وأزعجنى ، وجعلنى أرتجف وأنا أعقد العزم على ألا أعرض نفسى له ، مهما تكن العواقب ؟

ومن الصحيح اننى فقدت المعاش الذى عرض على بصفة غير رسمية ، ولكنى — فى الوقت ذاته — نجوت من الجور الذى كان مقدرا أن يفرضه على .. الا وداعا للحقيقة ، وللحرية ، وللشجاعة ! .. كيف كنت أجرو — بعد ذلك — على أن اتكلم بحرية ونزاهة ؟ .. لم يكن لدى سوى أن اتلقى ، أو أن أصمت ، لو اننى قبلت هذا المعاش ، ثم ، منذ الذى كان يغشمن دفعه إلى ؟ .. واية خطوات كان على أن اتخذها ، وای اناس كنت مضطرا إلى أن أداهن ؟ .. كان الاحتفاظ بهذا المعاش خليقا بأن يكبدنى أكثر مما يكبدنى الاستغناء عنه من حرص ، وأكثر من الكثير من المضايقات ! .. ومن ثم فقد اقتنعت بأننى

إذ أرفضه إنما اتخذ قرارا ينطبق أشد الانطباق على مبادئى ،
واضحى المظهر فى مقابل الواقع . ولقد أفضيت إلى جريم
بعزى ، فلم يعارضنى . أما بالنسبة للآخرين . فقد تعللت
بصحتى ، ورحلت فى نفس الصباح !

* * *

وإثار رحيلى ضجة ، وعيب على بوجه عام . فما كانت
حججى لتلقى تقديرا لدى الناس جميعا ، وسرعان ما انتهت
بالصلف ، مما أرى - للتو - غير أولئك الذين شعروا بأنهم
ما كانوا ليتصرفوا كما تصرفت ! .. وفى اليوم التالى ، كتب إلى
« جيلوت » خطابا فصل فيه نجاح تمثيليتى ، والشغف الذى
أبداه الملك نفسه بها . وقال إن جلالته لم يكف طيلة النهار عن
الغناء ، بأنكر صوت فى مملكته ، مرددا : « لقد فقدت خادمى ،
لقد أضعت كل هنائى ! » .. وأردف أن « العراف » ستعرض
مرة ثانية بعد أسبوعين ، مما سيعزز أمام عيون الجمهور كله
النجاح الباهر الذى كلل العرض الأول !

وفى ما كنت ألج دار السيدة ديبيناي - فى الساعة التاسعة
مساء ، بعد يومين - حيث كنت مزعما أن أتناول العشاء ،

رايت مركبة تعترض طريقى إلى الباب . وأشار إلى شخص فى المركبة بأن أصعد إليها ، فصعدت ، وإذا بهذا الشخص هو « ديدرو » . وحدثنى عن المعاش فى حرارة ما كنت اتوقعها من فيلسوف فى مثل هذا الموضوع . ولم ير جريمة فى ألا اكون راغبا فى أن أقدم إلى الملك ، ولكنه رأى أن عدم اكترائى للمعاش جريمة منكرة . وقال لى اننى إذا كنت لا أهتم بالمعاش من أجل نفسى ، فليس من حقى أن اكون كذلك من أجل السيدة لوفاسير وابنتها ، فإن من واجبى ألا احرهما من أية وسيلة ممكنة وشريفة لتيسر أسباب العيش لهما . . وبها أنه لم يكن من الممكن أن يقال — برغم كل شيء — اننى رفضت هذا المعاش ، فقد أصر على أن من الجدير بى أن اطلبه ، وأن أحصل عليه بأى ثمن ، ما دامت ثمة نية لمنحى إياه . ومع أننى تأثرت لتحمسه ، إلا اننى لم استطع أن أقر مبادئه ، فدار بيننا جدال محتدم حول الموضوع ، كان أول جدال دار بيننا . ولقد كانت كل خلافتنا — التى أعقبت ذلك — من نفس النوع ، إذ كان يملى على ما كان يزعم أن من الجدير بى أن أفعله ، فى حين أننى كنت أرفض فى حزم ، لأننى لم أكن أو من بآته واجب على

وكان الوقت متأخرا عندما افترقنا ، فرغبت فى أن اصطحبه للعشاء لدى السيدة ديبيناي ، ولكنه لم يكن راغبا البتة . . فبالرغم من أن الجهود التى كانت الرغبة فى الجمع بين أولئك الذين أحبهم تدفعنى إلى بذلها من وقت إلى آخر ، فاننى له



رايت مركبة تعترض طريقى الى الباب ، واتسار الى شخص فى المركبة
بان اصعد البها .

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث ١٩٩

افلح في إغرائه على زيارتها .. بل إننى ذهبت إلى أبعد من هذا ، إذ صحبت السيدة إلى بابهِ ، فرغض أن يفتحهُ لنا ! .. كان يعزف دائما عن لقاؤها ، ولم يكن يتكلم عنها قط ، إلا في ازدراء بالغ .. وما تألف الاثنان إلا بعد خلافٍ مع كل منهما ، وإذ ذاك ، بدأ يتكلم عنها باحترام !

ومنذ ذلك الحين ، لاح أن يدرو وجريم كانا بحاولان أن يؤلبا « الدائنين » على ، وأن يفهماهما أنهما إذا لم تكونا في رخاء، فأنما كان مرد ذلك إلى سوء نيتي ، وأنهما لن تصيبا مني أي خير قط ! .. ولقد حاولا أن يحملاهما على هجري، ووعداهما بأن يحصلا لهما بفضل السيدة ديبيناى على رخصة لبيع الملح، وحاتوت لبيع التبغ ، وما لست أدريه كذلك ! .. بل أنهما رغبا في أن يستدرجا ديكلو ، كما استدرجا دولباخ ، إلى محالفتها، ولكن الأول راح يرفض باستمرار . وكانت لدى إذ ذاك بعض ظنون عن هذا التدبير ، ولكنني لم أحط به بجلاء إلا بعد ذلك بزمان طويل . وكثيرا ما أكون على حق إذ أرى لذلك التحمس الأعمى المتهور من جانب أصدقائي الذين كانوا يسعون إلى الحط من شأنى - وأنا مطول ، وفي أشد حالات العزلة الكثيرة - ظنا منهم أنهم إنما كانوا يبذلون قصاراهم لإسعادى ، بالوسائل التى كانت خير ما يؤدى إلى إتعاسى ، فى الواقع !

سنة ١٧٥٣

مثلت مسرحية « العراف » فى باريس ، فى عيد المراف (الكرنفال) التالى ، أى فى سنة ١٧٥٣ . وكنت قد وجدت وقتا كافيا - فى تلك الاثناء - لوضع لحن الامتتاع ، والالحن

التي تتخلل المشاهد . وكان لا بد لهذه الالحان — كما وضعت وكتبت — من أن تشيع حركة في التمثيلية ، من أولها لآخرها ، وأن تجعل منها في مجموعها — في رأيي — لوحات جد مستحبة . ولكنني حين عرضت الفكرة على « الاوبرا » لم ألق مستمعا واحدا ، فاضطرت إلى أن أنسج سلسلة من الأغاني والرقصات ، بالطريقة المعتادة . وكانت النتيجة أن هذه الالحان وإن لم تضر بتأثير المشاهد ، إلا أنها لم تلق سوى نجاح متوسط برغم انها كانت زاخرة بالأفكار البديعة . ولقد حذت الأدان اللقائية التي وضعها « جيليو » ، واحلكت محلها الحانا من وضعي ، هي تلك التي كانت موجودة في الأصل . فاذا بها قد اكتسبت شيئا من الصبغة الفرنسية — ، كما اعترف — واقصد بذلك الطريقة التي كان يلقيها بها الممثلون — إلا أنها لم تؤذ سمع أحد ، بل انها كانت ناجحة من الناحية الموسيقية ، كما اعتبرت كذلك — من ناحية النظم — حتى لدى الجمهور . واهدت التمثيلية إلى السيد « ديكلو » الذي رعاها ، وأعلنت أن هذا سيظل الاهداء الوحيد . على أنني كتبت إهداء لشخص آخر — بموافقة السيد « ديكلو » نفسه — ومع ذلك فانه ولا بد قد وجد أن هذا الاستثناء قد زاده هو تكريما !

ولدى عن هذه التمثيلية حكايات كثيرة ، ولكن ثمة أموراً أكثر أهمية لا تدع ضرورة نكرها وقتاً أنفقته في تلك . على أنني قد أعود إليها يوماً ، في « الملحق » . وإن كنت — مع ذلك — لن أغفل واقعة معينة قد يكون لها أثر في كل ما أعقب ذلك من أحداث . فلقد اطلعت ذات يوم ، في مكتب البارون هولساخ ،

على موسيقاه . وبعد أن شهدت كثيرا من القطع ، قال لى وهو يرينى مجموعة من الألحان على المعزف : « هاك قطع لحن من أجلى خصيصا ، وهى مليئة بالنوق ، صالحة للفناء ، وليس هناك من عرف بها أو رآها سواى . فخليق بك أن تختار واحدة منها تدسها فى الألحان التى تتخلل مشاهدك ! » .. ولما كان ذهنى زائرا بموضوعات لآلحان و « سيمفونيات » تتوق ما كان بوسعى أن أفيد منه ، فأننى لم أجد كثير احتفال بالحناءه . على انه راح يلح على بحرارة اضطرتت معها إلى أن أنتقى إحدى اغائى الرعاة ، فاختصرتها وحورتها إلى قطعة ثلاثية تليق بالمشهد الذى يلج فيه رفاق « كوليت » (١) المسرح . وحدث بعد بضعة أشهر - و « العراف » ما تزال تعرض - أن ولجت يوما غرفة « جريم » ، وإذا بنفر من الناس يحيطون بمعزفه ، وإذا به هو ينهض عن المعزف فى تعجل ، بمجرد وصولى . واتجه بصرى - بحركة آلية - إلى حامل « النوتة » الموسيقية، فראيت مجموعة البارون دولباخ بالذات مفتوحة عند القطعة التى ألح على فى أن آخذها ، مؤكدا انها لن تخرج من بديه قط ! وبعد ذلك بيبعض الوقت ، رايت المجموعة ذاتها مفتوحة ، على معزف السيدة ديبيناي ، فى يوم دعت فيه بعض الأصقاء إلى ندوة موسيقية فى دارها . ولم يتحدث جريم أو أى شخص آخر عن هذا اللحن ، وما كنت أنا لأقول عنه شيئا ، لو لم يشع بعد قليل ، أننى لم أكن مؤلف « مراف القرية » . ونظرا لأننى لم أكن يوما عازفا ماهرا ، فأنى أوقن أنه كان من المحتمل أن

(١) بطة أوبرا : « مراف القرية » .

يقال اننى لم اكن أعرف شيئا عن الموسيقى ، لولا « قاموس الموسيقى » الذى كنت قد وضعته (١) .



ولقد حدث قبل إخراج « عراف القرية » بفترة من الزمن ، أن وصل إلى باريس بعض الممثلين الهزليين الإيطاليين فدعوا إلى التمثيل فى « الاوبرا » دون أن يخطر ببال ما كان مقدرا أن يقترب على ذلك . وإذا كانوا سييء التمثيل ، وكانت الفرقة الموسيقية إذ ذاك من الجهل بحيث قضت - غير حافلة - على لذة القطع التى كانت تعزفها ، فانهم الحقوا بفن الاوبرا الفرنسية ضررا لم يتسن قط إصلاحه . ذلك لأن الفارق بين هذين النوعين من الموسيقى (٢) ، اللذين كانا يسمعان فى الدار ذاتها ، فى يوم واحد ، فتح الأذان الفرنسية ، فلم تعد تطبق بطمه الموسيقى التى اعتادتها ، بعد الوضوح والنشاط اللذين امتازت بهما الموسيقى الإيطالية . فما كاد المهرجون الإيطاليون ينتهون من عرضهم ، حتى كان الناس يبادرون إلى الانصراف . فرؤى أن من الضروري تغيير نظام العرض ، وإرجاء الممثلين الهزليين إلى النهاية . فعرضت « ايجليه » ، و « بيجماليون » و « الجن » (٣) . ولكن لبا منها لم تستطع أن تستوى على

(١) ما كنت لأحس على الإطلاق ، أن هذا سيقتل فيها بعد ، برغم وجود

« قاموس » !

(٢) موسيقى الاوبرا الفرنسية ، وموسيقى الاوبرا الإيطالية .

(٣) Eglé, Pysmalion, Lesylphe

ساقياها . ولم تصمد لمقارنة سوى « عراف القرية » ، إذ
 قوبلت باستحسان فاق « الوصفة » (١) الإيطالية ذاتها .
 وكان ذهني مليئا — عندما وضعت المشهد الذى بين فصلى
 تمثيليتى — بالحن تلك المسرحية الإيطالية ، فاستعرت بعض
 أفكار منها . غير اننى كنت أبعد من أن أتوقع أن انتقد فى هذه
 الناحية . ولو اننى كنت ممن يسطون على إنتاج الغير ، فكم من
 سرقات كان يجب أن تتكشف ، وكم كان هناك من المشوقين
 إلى أن يعنوا بابرارها ! ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، وقد
 ضاعت هباء كل المحاولات التى بذلت للعثور فى إنتاجى الموسيقى
 على أثر من موسيقى سواى . . كما أن كل أغانى كانت
 تبدو — إذا ما قورنت بالأغانى الأصلية التى كان يزعم اننى
 اخذتها عنها — جديدة ، جدة الطابع الموسيقى الذى ابتدعته .
 ولو أن « موندوفيل » أو « رامو » تعرض لمثل هذا الفحص
 والمقارنة لخرج منه مهلهلا !

ولقد اكتسب المظنون الهزليون للموسيقى الإيطالية مستمعين
 جد متحمسين ، فإذا باريس بأسرها تنقسم إلى فريقين ، راحا
 يتجادلان فى غف و كأنهما بصدد مسألة متعلقة بالدولة أو بالدين .
 وكان اقواهما نفوذا ، واكثرهما عددا ، يتألف من العظماء ،
 والاغنياء ، والنساء ، ويتشبهت بالموسيقى الفرنسية . . أما
 الآخر — وهو اكثرها حية ونشاطا وتحمسا — فكان يتألف من

Ⓜ Serva Padrona . وهى احدى التعليلات التى كانت الدرفة

فنانين حقيقيين ، ومن أكفاء ونوابغ . وكانت عصبة تجتمع في دار « الأوبرا » ، تحت مقصورة الملكة ، بينما كان الفريق الآخر يملأ بقية الصالة ، ولكنه كان يتخذ مكان اجتماعه الرئيسي ، تحت مقصورة الملك . ومن هنا جاء اسم الحزبين الذين اشتهرا في ذلك الحين : « ركن الملك » ، و « ركن الملكة » . وأدى الخلاف — إذ احتدم — إلى إصدار منشورات . لماذا شاء « ركن الملك » أن يهزا ، سخر منه « النبی الصغير » ، وإذا أقحم نفسه في جدال ، أفحمته « رسالة في الموسيقى الفرنسية » . . . وكانت هاتان النشرتان هما الوحيدتان اللتان كتب لهما البقاء في هذه المعركة ، أما النشرتان الباقيتان فقد ماتت . . . وكان « جريم » يحرر الأولى ، وأنا أحرر الأخرى !

بيد أن « النبی الصغير » ظلت تنسب إلى طويلا — في إصرار — برغم إنكارى ، وكانت تحرر بأسلوب فكه ، ولا تجشم محررها أقل عناء . . في حين أن « رسالة في الموسيقى » كانت تميل إلى الجد ، وقد أثارت ضدى الأمة بأسرها ، إذ خيل إليها أنها — ممثلة في موسيقاها — قد أهينت . . . وأن وصف الأثر الذى أحدثته هذه النشرة — والذى يفوق ما يصدقه العقل — لجدير بقلم « تاسيتوس » (١) . . وكانت تلك فترة الصراع الأكبر بين البرلمان ورجال الكهنوت . . وكان البرلمان قد أوقف عن الاجتماع ، وبلغت فورة السخط ذروتها ، وأخذ كل شيء ينذر

(١) كورنيليوس تاسيتوس ، كاتب ومهام ذاع صيته في التاريخ الرومانى

وقد عاش فيما بين سنتى ٥٥ و ١٢٠ بعد الميلاد وله مؤلفات تاريخية عديدة .

بانفجار وشيك !.. وما ان ظهرت النشرة ، حتى انصرفت الخواطر لتوها عن المعارك الأخرى ، ولم يعد ثمة تفكير في غير الخطر المحدث بالموسيقى الفرنسية ، ولا عاد ثمة هياج إلا ضدى أنا .. بل انه كان من الشدة بدرجة أن الأمة لم تفلح منه أبدا . ففى البلاط ، لم تعد ثمة موازنة إلا بين « الباستيل » والنفى ، وكان من المحتمل التعجيل بأمر القبض على ، لو لم يفلح السيد دى موييه فى إيضاح ما فى هذا من تصرف أخرق . وقد يظن القارئ أنني أهرف ، حين يقرأ أن من المحتمل أن هذه النشرة حالت دون قيام ثورة فى الدولة . ومع ذلك فان هذه الحقيقة واقعة ، لعل باريس بأسرها تشهد بها حتى اليوم ، إذ لم يمض بعد على هذه الواقعة العجيبة خمسة عشر عاما (١) .



وإذا كانت حريتى لم تصادر ، فلقنى لم أعف من أدنى الإهانات ، بل أن حياتى أصبحت فى خطر . فاعادت فرقة موسيقى « الأوبرا » مؤامرة شريفة (١) لاغتيال أثناء مغادرتى المسرح . وقد نمت إلى ، فلم تزدنى إلا ترددا على « الأوبرا » ، ولم أعرف إلا بعد ذلك بوقت طويل ، أن السيد « انسيلو » — الضابط فى فرقة الفرسان — الذى كان يكن لى مودة ، قد أفسد مفعول هذه المؤامرة ، إذ دبر حمايتى — عند مبارحتى الأوبرا — دون أن أشعر . وكان أول استغلال لنظم إشراف البلدية على دار الأوبرا ، هو حرمانى من الدخول ، وأن يحدث

ذلك بأشد الأساليب المهينة . . أى بمنعى علنا من الدخول بدون « تفكرة » ، بطريقة اضطرتنى إلى ابتياع « تفكرة » فى الشرفة العليا للدار (١) ، لكى اتفادى عار الرجوع دون دخول، فى ذلك اليوم . وكان الظلم صارخا جدا ، إذ أن الثمن الوحيد الذى تقاضيته عن اوبراى ، عندما نزلت لهم عنها ، هو حق الدخول — دون مقابل — طيلة العمر . ذلك لأن هذا وإن كان حقا اعتاد أن يحظى به كل المؤلفين — ومن ثم فقد كان استحقاقى إياه مضاعفا — إلا أننى حرصت على اشتراطه ، بحضور السيد ديكلو . ومن الصحيح أننى تلقيت — عن طريق خزانة الاوبرا — خمسين « لوى » كمكافأة شرفية لم اطلبها . . وفضلا عن أن هذا المبلغ لم يكن يعادل ما كنت أستحقه وفقا للوائح، فان دفعه لم يكن ذا صلة البتة بحق الدخول دون مقابل ، الذى طالبت به رسميا ، والذى كان أمرا مستقلا تماما عن الموضوع !

ولقد جمع هذا التصرف بين عدم المساواة والفظاظة الجائرة، حتى أن الجمهور — الذى كان فى أوج عداوته لى — لم يحجم عن إيداء استنكاره جهارا وبالإجماع ، وصاح كثيرون — ممن كانوا يسبوننى فى الليلة السالفة — بأعلى أصواتهم فى دار « الاوبرا » ، بأن من العار أن يحرم من حق الدخول — وبهذا الأسلوب — مؤلف يستحقه عن جدارة ، بل وله أن يصحب معه شخصين بالمجان ، وهكذا صدق المثل الإيطالى القائل : « يعرف الصديق فى المحنة » .

Ogn'un ama la giustizia in casa d'altrui

(١) أننى الدرجات فى المسرح . . « أعلى الميائرو » .

ولم يكن لدى إزاء هذا سوى قرار واحد ، هو أن استرد تمثيلتي ما دمت قد حرمت الجزء المتفق عليه . ومن ثم كتبت إلى السيد دارجنسون ، الذي كان يتولى إدارة « الأوبرا » ، وأرغمت رسالتي بمفكرة لم أكن قد تلقيت عنها ردا ، فظلت المذكرة — وكذلك الرسالة — دون جواب ودون رسالة . ولقد ظل صمت هذا الرجل الظالم راسخا في فؤادي ، ولم يساعده على تنمية التقدير الضئيل الذي كنت دائما أحسه نحو شخصيته ونحو مواهبه . وهكذا احتفظت « الأوبرا » بتمثيلتي وسلبتني الجزء الذي كنت قد نزلت في مقابله عن حقوقى فيها . وعندما يحدث هذا العمل من الضعيف نحو القوى ، فانه يعتبر سرقة . . أما إذا حدث من القوى نحو الضعيف فهو ليس سوى انتفاع بما للغير وحسب !

أما الكسب المالى الذى دره هذا العمل الفنى ، فمع انه لم يرق إلى ربيع ما كان يدره على أى مؤلف سوى ، إلا انه كان — بالنسبة إلى — من الضخامة بحيث انه كان كالميا لأن يمكننى من العيش عليه سنوات عدة ، وأن يعوضنى عن عملى فى النسخ ، إذ أن هذا العمل كان كاسدا على الدوام . فلقد نلت مائة « لوى » من الملك ، وخمسين من السيدة دى بومبادور — عن عرض التمثيلية فى (البيل فى) ، حيث قامت هى نفسها بدور كولان — وخمسين من « الأوبرا » ، وخمسمائة من « بيسو » مقابل نشرها . . أى أن هذا العمل الثانوى ، الذى لم يكلفنى سوى عمل خمسة أسابيع أو ستة ، در على من النقود — برغم سوء حظى وبرغم غيائى — ما يعادل ما دره على كتابى « اميل » ، الذى

استغرق منى عشرين عاما فى التفكير ، وثلاثة فى التأليف ! ..
على أننى دفعت ثمننا غاليا ، فى مقابل الكسب المادى الذى اجدته
على هذه التمثيلية .. وقد تمثل هذا الثمن فى المضايقات التى
لا نهاية لها ، والتى ترتبت عليها . إذ كانت هذه التمثيلية بذرة
الاحقاد الخفية الناشئة عن الغيرة ، والتى لم تتكشف إلا بعد
ذلك بوقت طويل ! .. ولم أعد — منذ نجاحها — أجد من جريم
وديدرو ، أو من أى من الأدباء الذين كنت أعرفهم — فيها عدا
القليل — الحفاوة والصراحة وحسن المعاشرة التى كنت
أخالفنى قد عثرت عليها لديهم من قبل . وأصبحت لا أكاد أظهر
فى دار البارون ، حتى يكف الحديث عن أن يكون عاما ..
ويتجمع القوم فى فرق صغيرة ، ويدور التهامس ، بينما أظل
وحيدا لا أجد من أبادله الحديث .. ولقد تحملت طويلا هذا
الانقراض عنى ، ولما كنت أرى أن السيدة دولباخ — التى كانت
لطيفة وحفية — قد ظلت تكرم وفادتى باستمرار ، فأننى رحت
أقبل جفوة زوجها بقدر ما كانت هذه الجفوة محتملة . ولكنه
فى أحد الأيام تحرش بى دون داع ، ودون مبرر ، وفى غلظة
بالغة ، فى حضور ديدرو ، الذى لم ينبس بكلمة .. وفى حضور
مارجنسى ، الذى كثيرا ما أعرب لى — منذ ذلك الحين — عن
إعجابه بالهدوء والاعتدال اللذين اتسمت بهما إجاباتى ..
وانتهى الأمر إلى أن طردت من منزله بفضل هذه المعاملة المهينة ،
فخرجت منه وقد عقدت العزم على ألا أعود إليه إطلاقا .
على أن هذا لم يمنعنى من أن أتحدث بأمانة واحترام عنه وعن
منزله ، فى حين أنه لم يفكرنى دائما إلا بعبارات حاقدة ،
جارحة ، لها وصفنى مرة إلا بـ « خدام المدرسة » الصغير ،

دون أن يملك — برغم ذلك — أن يعين إساءة واحدة ، أيا كان نوعها ، بدرت منى نحوه أو نحو أى امرئ كان يهمن بأمره . وهكذا انتهى إلى أن حقق تنبؤاتى وهواجسى ! .. أما أنا ، فأعتقد أن أصحائى المذكورين كانوا على استعداد أن يغفروا لى تأليف الكتب — وأن تكن كتباً رائعة — لأن هذا المجد لم يكن غريباً عنهم . بيد أنهم لم يكونوا يغفرون لى أن وضعت أوبراً ، ولا أن لقي هذا العمل الأدبى الفنى نجاحاً باهراً ، لأن أحداً منهم لم يكن فى وضع يمكنه من أن ينهج عین هذا النهج ، ولا أن يطمح فى عین ما نلت من تقدير وتكریم ! .. كان ديكلو وحده هو الذى سما فوق الغيرة ، بل أنه بدا أكثر مودة لى ، واصطحبني إلى دار الأنسة « كينول » ، حيث لقيت رعاية ، وانسا ، وملاطفة ، بقدر ما اعتقدت فى دار السيد دولباخ !



وبينما كانت « العراف » تمثّل فى « الأوبرا » كان مؤلفها موضوع مناقشة فى « الكوميدي فرانسيز » ، ولكنه كان أقل حظاً من تمثيليته .. ذلك أننى إذ عجزت — خلال سبع أو ثمانى سنوات — عن عرض « نارسيس » فى مسرح الإيطاليين (أوزيتاليان) ، بغضت هذا المسرح الذى كان ممثلوه يسيئون أداء المسرحيات الفرنسية . ومن ثم فقد كان حرياً بى أن أكون أشد رغبة فى أن تعرض تمثيليتى فى المسرح الفرنسى - الكوميدي فرانسيز — منى فى أن تعرض لدى الإيطاليين . وافضيت برغبتي إلى « لاتو » الممثل الفكاهى ، الذى كنت قد تعرفت إليه ، والذى كان معروفاً — كذلك — بأنه رجل فاضل ذو نفوذ .

ولقد أعجب بتمثيليتي الفكهة « نارسيس » ، وأخذ على عاتقه أن يعمل على إخراجها دون إعلان اسم مؤلفها . وحصل لى — فى الوقت ذاته — على ترخيص بالدخول ، دون مقابل ، سررت به كل السرور ، إذ كنت دواما أوثر المسرح الفرنسى على المسرحين الآخرين (الأوبرا ، والإيطالى) . واستقبلت التمثيلية باستحسان ، برغم أنها قدمت دون ذكر المؤلف . . بيد أن لى ما يحملنى على أن اعتقد أن الممثلين ، وكثيرين غيرهم ، لم يكونوا يجهلونه . ولقد قامت الانستان «جوسان» و « جرانفال » بدورى العاشقين . ومع أن الأداء أسفر عن نقص فى البراعة ، إلا أنه — بوجه عام — لا يمكن أن يوصف بأنه سيء تماما . على اننى دهشت — وتأثرت — لما تبدى من استغراق الجمهور ، إذ راح يصفى فى صبر وهذو ، من أول التمثيلية إلى آخرها ، بل وسمح بعرضها مرة ثانية ، دون أن يبدي أية بادرة تنم عن ملل !

أما أنا ، فقد بلغ من ضجرى — فى العرض الأول — اننى لم أستطيع المكث إلى النهاية . فتركت المسرح وذهبت إلى مقهى (دى بروكوب) ، حيث وجدت « بواسى » وبعض الآخرين، الذين يحتمل أن يكونوا قد ضجروا مثلى . وهناك ، أعلنت مشلى بصوت عال ، معترفا فى شجاعة وتواضع باننى مؤلف التمثيلية ، ومتحدثا عنها بما كان الجميع يرونه فيها . ولقد لقي هذا الاعتراف العلنى من مؤلف تمثيلية رديئة ساقطة ، إعجابا قويا ، حتى أنه بدا لى أقل ما يكون إيلاما ! . . كذلك وجدت جزاء لمواطنى الصادقة فى الجراة التى اقدمت بها على

اعترافى . واعتقد أننى — فى هذه المناسبة — لفيت فى الكلام زهوا يفوق ما كنت خليقا بأن أجده من حياء زائف لو أننى لفت بالصمت ! .. على أننى — إذ تبينت أن لا شك هناك فى ان التمثيلية قد تروق كمادة للمطالعة ، وإن كان التمثيل قد شوها — عملت على طبعها ، وبدأت فى المقدمة — التى كانت من خير ما كتبت — أكشف عن مبادئ فى صراحة تفوق قليلا كل ما فعلت من قبل .

وسرعان ما سنحت لى فرصة الإقدام — فى غير ما تحفظ — على عرض هذه المبادئ فى مؤلف أدبى عظيم الأهمية . فقد حدث فى ذلك العام (١٧٥٣) — على ما أظن — أن اتخذ محفل ديجون من موضوع « منشأ عدم المساواة بين البشر » مادة لبرنامج مسابقته . وهزنى هذا الموضوع العظيم ، وأذهلنى أن جرؤ المحفل على عرضه للمباراة . على أنه إذا كان قد أوتى هذه الشجاعة ، فقد رأيت أن بوسعى أن أوتى الشجاعة على الخوض فيه .. وشرعت فى ذلك .

* * *

ولكى افكر فى هذا الموضوع العظيم ، وأنا مرتاح الخاطر قمت برحلة إلى (سان جيرمين) ، حيث قضيت سبعة أيام او ثمانية ، مع تيريز ومضيفتنا — التى كانت امرأة طيبة — وإحدى صديقاتها . واتى لأحسب هذه النزهة بين أحب ما قمت به من نزعات فى حياتى .. وكان الجو جميلا ، وقد اضطلمت هاتان المرأتان الطيبتان بالمطالب والنفقات . وراحت تيريز تتلى بصحبتهما . أما أنا، فقد خلوت من الشواغل، وردت أشاطرهن

ابتهاجنهن في اوبقات الوجبات ، متخففا من كل هم . وكنت اقضى بقية النهار موغلا في الغابة ، حيث اخذت ابحث ، وحيث وجدت صورة العصور الاولى ، فرحت اتعقب التاريخ خلالها في جراءة ، مهونا من شأن اكاذيب البشر التافهة .. وتجاسرت على أن اكشف طبيعتهم ، واتعقب سر الزمن والأشياء التي شوهت هذه الطبيعة .. وبالمقارنة بين الإنسان — كما صنعه الإنسان — والإنسان كما صنعه الطبيعة ، كشفت له — في كمله المزعوم — عن المصدر الحقيقي لمصائبه وشقاقه . وارنعت روى — وقد انتشت بهذه التأملات السامية — إلى مقربة من مقام الربوبية ، لمأطلت من هناك على أقرانى من أبناء البشر ، وهم يسرون عيانا في طريق الباطيل والأوهام ، وطريق أخطائهم ، ومحنهم ، وجرائمهم .. ورحت أصيح بصوت واهن ما كانوا ليستطيعون أن يسمعوه : « أيها الدمقى ، الذين لا يكفون عن الشكوى من الطبيعة ، الا اعلموا أن كل مساوئكم إنما تنبثق منكم ! » .

وكانت نتيجة هذه التأملات : « حديث في عدم المساواة » ، وهو مقال صادف هوى من نفس ديدرو ، فاق كل ما صادفته كتاباتى الأخرى ، وقد أولانى نصيحة بشأنه ، كانت أنفع النصائح (١) ، ولكنها لم تجد في أوربا كلها من القراء من أدركها

(١) علق « روسو » على هذا ، بقوله : « لم يكن لدى — في الوقت الذى كُتبت فيه هذا — أى حدس من مؤامرة ديدرو وجريم الكبرى ، والا لكنت قد رأيت بسهولة كيف استغل الاول لفتى ، لى يخلع على كتاباتى هذا الأسلوب »

سوى قليلين ، ولم يشأ واحد من هؤلاء أن يتكلم منها ! ..
وكان المقال قد كتب من أجل المسابقة ، فأرسلته وأنا واثق
— سلفا — بأنه لن يفوز بنجاح ، إذ كنت أعرف من يقين أن
جوائز المحافل لم تخلق للأعمال الأدبية التي من هذا النوع !

وادت هذه النزعة وهذا الشاغل إلى تحسن مزاجي
وصحتي . إذ كنت منذ عدة سنوات معذبا باحتباس البول ،
وقد استسلمت نهائيا للأطباء ، فاستنزفوا قواي — دون أن
يخففوا عني — وهدموا بنيتي . ولكنني عندما عدت من (سان
جيرمين) وجدت مزيدا من القوى ، وشعرت بكثير من التحسن .
وتبعت هذه المبادرة ، فعمدت العزم على أن أشفى أو أن أموت
دون معونة الأطباء أو العقاقير . وودعتهم إلى الأبد ، وشعرت
أعيش ليومي ، أستريح عندما أعجز عن المشي ، وأسير بمجرد
أن أملك القدرة على السير . وكانت الحياة في باريس ، بين قوم
أدعياء محبين للمظاهر ، لا تروق لي . . كان تعصب الأدباء

=

الجاف ، وهذا الجو القائم للذين لم يسمنرا بعد أن توقف من لوجيبي... فالجزء
الخاص بالفيلسوف الذي سد أذنيه — خلال إحدى نلظ الجدل — حتى يكسب
سلاية دون أنات رجل في محنة ، من أساليب ديموز — وقد أمدني بكثير غير هذا
الجزء ، ويعقوته سدة ، حتى أنني لم ألق على حمل نفسي على استعماله . على
أنني علوت تلك الروح القاتمة الى ما جرى له في « زنزاة » فانسين . . ولن
هذه الروح لبدو مرة أخرى ، وبنسبة كبيرة ، في مؤلله « كيرفال » . بيد أنه
لم يخطر ببالي اطلاقا أن أرتدب في أن هذا كل ينطوي على اننى نية خبيثة « !

وتحزيهم ، ومنازعاتهم المخزية ، وافتقارهم إلى النقاء الذى يتجلى فى كتبهم ، والمظهر المترفع الذى يخدعون به المجتمع . . كل هذه كانت بغیضة إلى نفسى ! . . وما اقل ما وجدت من رفق وسلامة قلب وصراحة فى الاتصال بالناس ، لا سيما أصدقائى ! . . حتى لقد عافت نفسى هذه الحياة الصاخبة ، واخذت اتوق — فى رغبة صلدقة — إلى الإقامة فى الريف . ولما لم اجد اى امل فى أن تمكّننى مهنتى من الاستقرار هناك ، رحلت أسارع إلى قضاء بضع الساعات — التى كنت أستطيع أن امرّغ فيها من العمل — هناك . واعتدت ، لعدة أشهر ، أن أخرج للرياضة وحيدا — عقب الغداء فى بداية الأمر — فى غابة (بولونيا) ، لأدير فى فكرى موضوعات لمؤلفاتى المقبلة . ولم أكن أعود قبل هبوط الليل !

من سنة ١٧٥٤ إلى سنة ١٧٥٦

راى « جوفكور » — الذى كانت علاقائى به فى أوج توثقها إذ ذاك — أن لا بد له من الرحيل إلى (جنيف) بحكم عمله ، فعرض على أن أرافقه فى هذه الرحلة . ووافقت على ذلك . وإذ لم أكن بصحة جيدة استغنى معها عن عناية « الدادة » (١) ، فقد تقرر أن تكون معنا فى الرحلة ، وأن تتولى أمها حراسة البيت . واعددنا عدتنا على أن نرحل نحن الثلاثة معا ، فى أول يونيو سنة ١٧٥٤

وجدير بى أن أنظر إلى هذه الرحلة على أنها فترة التجربة الأولى التى صادفتنى خلال سننى عمرى الاثنتين والأربعين — إذ ذاك — والتى نيهتنى إلى تلك الفطرة المغعبة بالثقة التى فطرت عليها والتى اعتدت دائماً أن أسلم نفسى إليها دون ما تحفظ ولا حرج . وكانت لدينا مركبة متوسطة ، راحت تقطع بنا الرحلة على مسافات جد قصيرة ، دون أن تستبدل جواذيتها . وكنت كثيراً ما أهبط وأسير على قدمى . ولم نكد نقطع نصف طريقنا ، حتى أبدت تيريز أعظم نفور من أن تبقى وحيدة فى العربية مع « جوفكور » ، فما أن رغبت فى الهبوط — بالرغم من رجائها — حتى هبطت هى الأخرى وسارت . وظللت الومها وقتنا طويلاً على هذه النزوة ، بل ورحت أعارضها بشدة ، حتى رأت نفسها مضطرة — فى النهاية — إلى أن تصارحنى بالسبب . . . وخيل إلى أننى أحلم . . . وهويت من حلق ، عندما سمعت أر صديقى السيد دى جوفكور ، المسن الذى جاوز الستين . والمصاب بالنقرس ، والمنهار البنيان ، والذى هدته حياة اللهو والعبث . . . صديقى هذا كان يبذل غاية جهده ، مبدأنا الرحلة ، ليفسد امرأة لم تعد شابة ولا جميلة ، امرأة كانت لصديقه . . . وكان يسعى إلى ذلك بأحط الوسائل ، وبأدعائها إلى الخجل ، حتى لقد قدم إليها كيس نقوده . . . وحتى لقد حاول أن يثير نزواتها بأن راح يقرأ عليها كتاباً فاحشاً ، وبأن أخذ يريها الصور الفاضحة التى امتلأ بها الكتاب ! . . . ولقد ألفت تيريز بالكتاب الخبيث — مرة — من العربية ، وهى فى غمرة السخط . وقالت : ان الرجل فى أول يوم فى الرحلة ، انتهز فرصة إيوائى إلى

الفراس قبل العشاء - إذ كنت أعانى صداعا شديدا - واستنفد الوقت كله - وقد كان خلاله وحيدا معها - فى محاولات وتصرفات أكثر لياقة بالحيوان المهتاج ، أو بالجدى ، منها برجل مجترم ، ائتمنته على نفسى وعلى رفيقتى !

يا للمفاجأة ! .. ويا له من ألم فى الفؤاد جديد على ! ..
 ايقدر لى ، انا الذى كان يؤمن حتى ذاك الوقت بأن الصداقة لا تنفصل عن كل المشاعر المستحبة والنبيلة التى تكسبها بهاءها - ان أجد نفسى لأول مرة فى حياتى ، أقرن هذه الصداقة بالازدراء ، وأسحب ثقتى وتقديرى من رجل كنت أحبه ، وكنت أعتقد أننى محبوب منه ؟ ! .. لقد أخفى التمس مسلكه المعيب عنى ، ولكى اتجنب إحراج تيريز ، الفيتنى مضطرا إلى ان أخفى عنه استيائى ، وإلى ان أدفن فى قرارة فؤادى مشاعر ما كان له ان يعلم بها إطلاقا ! .. نيا وهم الصداقة الوداع القدسى ، لقد كان جوفكور أول من رفع نقابك لعينى ، وكم من أيد قاسية قد حالت - منذ ذلك الحين - دون هبوط هذا النقاب على وجهك ثانية !

وتركت جوفكور فى (ليون) ، لاتخذ طريقى خلال إقليم (سافوا) ، إذ لم أقتو على أن أمر - من جديد - على مقربة من « ماما » دون أن أراها . ولقد رأيتهما .. ولكن ، يا الهى ! .. فى أية حال ؟ بل فى أى هوان ؟ ! .. ما الذى تبقى لها من صفاتها الأولى ؟ .. انهذه هى السيدة دى غاران بعينها ، التى كانت متألقة ، والتى أوفدنى إليها أسقف بونفير ؟ .. لشدة ما حزن قلبى ! .. ولم أر لها من مخرج سوى أن تترك إقليمها . ورحلت الحف عليها فى حرارة ، ودون جدوى ، مرددا ما ألححت

عليها به مدة مرات في خطاباتي ، ضارعا إليها أن تأتي فتعيش
معى في سكينه ، ونسمح لى بان اكرس ايامى وايام تيريز من
اجل ان نحيل ايامها سعيدة . ولكنها أبت ان تصفى إلى
متشبثة بمعاشها الذى لم تسحب منه شيئا ، منذ أمد طويل ،
برغم أنه كان يدفع بانتظام . ووهبتها — مرة أخرى — قسما
طفيفا من نقودى ، يقل عما كان ينبغي أن أعطيها ، وأقل مما
كان يجب أن أقدم لو لم أكن موقنا تمام اليقين من انها لن تفيد
منه بـ « سو » واحد !

ولقد قامت — أثناء مكثى بجنيف — برحلة في (شابليه) ،
مجاة لزيارتي في (جرانج كانال) . وكان يعوزها المال كى
تواصل الرحلة ، ولم أكن أحمل معى ما كان لازما لها ، فأرسلته
إليها بعد ساعة ، بوساطة تيريز . يا للمسكينه « ماما » ! ..
فلأذكر دليلا واحدا جديدا ، على طيبة قلبها : ذلك أنه لم يكن قد
تبقي لها من حليها ، سوى خاتم صغير ، فخلعته عن أصبعها
لتضعه حول أصبع تيريز ، التى نقلته فى التو إلى أصبع « ماما »
من جديد ، وهى تقبل تلك اليد النبيلة وترويهها بدموعها !
.. آه ! كانت تلك هى اللحظة المواتية لكى أسد دينى ! ..
كان خليقا بى أن أهجر الكل لاتباعها ، وأن الأزمها حتى ساعمتها
الآخيرة ، وأن أقاسمها حظها ، مهما يكن ! .. ولكنى لم أفعل
شيئا من هذا القبيل ، فقد شعرت — وقد شغلت عنها بغيرها —
ان الرابطة التى كانت تشد كلا منا إلى الآخر قد تفككت ، إذ

كان ينقصها الرجاء في أن أستطيع أن أحيل علاقتي بهما إلى شيء نافع لها ! .. ولقد بكيت حسرة عليها، ولكنني لم اتبعها .. وليس بين بواعث تأنيب الضمير التي صادفتني في حياتي، ما هو أشد ولا أبقي من هذا الباعث ! .. واني لاستحق ألوان العقاب الفظيعة التي لم تكف من تعذيبى منذ ذلك الحين .. فليتها تكثر عن جحودي ! .. الجحود الذي تبدى في مسلكى فعلا ، ولكنه مزق قلبي في عنف ما كان ليحدث لو أن هذا القلب كان قلبا جاحدا يوما !



كنت قبل رحيلى من باريس قد شرعت في صوغ إهداء « حديث في عدم المساواة » ، وقد فرغت منها في (شامبيري) ، وسجلت تاريخ ذلك اليوم مقرونا باسم المكان ، إذ رأيت أن من الأفضل ألا أقرن التاريخ باسم باريس أو جنيف ، كى أتفادى كل المضايقات . وإذ وصلت إلى (جنيف) ، أسلمت نفسى لتحصى وهيامى بالنظام الجمهورى .. هذا التحمس المستهمم الذى قادنى إلى هناك ، والذى ازداد بالاستقبال الذى حظيت به . وفي فمرة المآدب والمجاملات التى أحاطتنى بها كل الأوساط ، استسلمت بكل كيائى إلى الغيرة الوطنية ، وقد أخجلنى أن أحرم من حقوقى كمواطن بسبب اعتنائى ديناً يخالف دين آبائى (١) ، فقررت أن أعود إلى هذا الأخير علانية . ورأيت أن الأتجيل

(١) كان « روسو » قد تحول من الكاثوليكية الى البروتستانتية في صباه .

واحد لجميع المسيحيين ، وأن لب العقيدة ما اختلف إلا باختلاف أولئك الذين اتحموا أنفسهم في تفسير ما كانوا عاجزين عن فهمه . ولقد كان من حق الحاكم الفرد - في كل بلد - أن يعين أسلوب العبادة ، وأن يبت في مسألة العقيدة المعقدة . . . ومن ثم فإن واجب الرعية أن يقرؤا العقيدة وأن يمارسوا أسلوب العبادة اللذين نص عليهما القانون . وكان طول اختلاطى بأهل البحث والدراسة أبعد من أن يززع إيماني؛ بل أنه عززه، لا سيما وأننى كنت أنفر من المنازعات والتعصب . ولقد أدت دراسة الإنسان والكون - في كل مكان - إلى إطلاعى على القضايا الرئيسية والعقلية التى توجهها . ولقد علمتنى قراءة التوراة - لا سيما الاتجيل الذى انصرفت إليه عدة سنوات - كيف ازدردى التفسيرات الجوفاء الحباء ، التى خلعتها على تعاليم عيسى المسيح أناس ليسوا أهلا لإدراكها على الإطلاق ! . . . ومجمل القول أن الفلسفة إذ قربتنى من جوهر الدين ، صرفتنى عن هذا الركाम من قواعد الإيمان الزائفة التى حجبت عن الناس هذا الجوهر ! .

وكما كنت أومن بأن صاحب العقل المدرك ليس بحاجة إلى طريقتين يختار بينهما فى الوصول إلى المسيحية ، فأتنى كنت أومن كذلك بأن كل ما هو قاعدة ونظام - فى كل دولة - إنما يدخل فى نطاق التشريع والقانون . ومن هذا البدأ المعقول : الاجتماعى ، السلمى - الذى جر على ما جر من اضطهادات قاسية - انسابت هذه النتيجة : إذا شئت أن أصبح مواطناً ،

فلن من واجبي أن أكون بروتستانتيا ، وأن أعود إلى دين وطني . وعقدت هزى على ذلك ، بل أننى استشرت فى ذلك راعى الأبرشيه التى كنت أقيم فيها ، والتى كانت خارج المدينة . . ولم أكن أرجو سوى الا اضطر إلى أن أمثل أمام مجمع الكرادلة . ومع أن المراسم الكنسية كانت حاسمة فى هذا الصدد ، إلا أنه روى التجاوز عنها إكراما لى ، فعينت لجنة من خمسة أو ستة أعضاء ، لتلقى إقرارى بعقيدتى ، فى جلسة خاصة . ولسوء الطالع ، شاء القس « برديو » - وكان شخصا لطيفا ، لينا ، ربطتنى به روابط من الود - أن يلج على بأن من دواعى الغبطة أن ألقى كلمة فى هذا الاجتماع الصغير . وأزعجنى توقع هذه الكلمة ، إلى درجة أننى - بعد دراسة شغلت بها ليل نهار لثلاثة أسابيع - أعددت خطابا قصيرا . . وارتبكت عندما حانت لحظة إلقائه ، حتى أننى مجزت عن أن أنطق بكلمة واحدة منه . . وتصرفت كأغبي تلاميذ المدارس ! . . وتولى أعضاء اللجنة عنى الحديث ، ورحت أجيب فى عى بـ « لا » و « نعم » ، ثم قبلت فى الطائفة ، وردت إلى حقوقى كمواطن . . وكذلك أدرج اسمى فى قائمة « الحرس الوطنى » الذى كان يتقاضى موارده من أبناء المدينة والطبقة المتوسطة محسب (١) ، ودعيت إلى اجتماع غير عادى للمجلس العام ، لتلقى اليمين من « السنديك » موسار (٢) . ولقد تأثرت للمواطن الطيبة التى أبداهها لى المجلس ومجمع

(١) لكى « روسو » أنه كان يقيم خارج المدينة ، فكان ضمه الى الحرس

نوعا من التكريم له .

(٢) « السنديك » هنا لقب كان يطلق على رئيس الهيئة .

الكرادلة — في هذه المناسبة — وللإجراءات الكريمة الحنية التي صدرت من جميع المستشارين والقساوسة والمواطنين ، حتى أنني — بدافع من الرجاوات الملحة من ديوك الطيب ، ومن ميلى الصائق بوجه خاص — لم أعد أكر في العودة إلى باريس إلا لى اتخلص من مسكنى ، وأسوى أعمالى البسيطة ، وأجد عملا للسيدة لوفاسير وزوجها — يقيهما العوز — ثم أعود مع تيريز فمستقر فى (جنيف) بقية أيامى .

وإذ استقر رأى على هذا القرار ، أرجأت كل الشواغل الهامة ، لى أهنأ بأصدقائى إلى أن يحين وقت الرحيل إلى باريس . وكانت أكثر ألوان التسلية إرضاء لى ، هى الطواف حول البحيرة فى قارب مع ديوك الأب ، وزوجة ابنه ، وتيريزى وقضينا سبعة أيام فى هذه الجولة ، فى أبدع طقس عرفته . وقد احتفظت بالذكريات الحارة للمواقع التى أظريتنى — عند الطرف الأقصى للبحيرة — وأوردت بعض أوصافها فى « هيلويز الجديدة » عندما كتبها بعد سنوات !

وكانت الصلات الرئيسية التى عقدتها فى جنيف — عدا صلتى بديوك الذى تحدثت عنه — هى صداقتى للقس فيرن ، الذى كنت قد عرفته فى باريس من قبل ، والذى كانت لدى عنه فكرة طيبة تفوق ما تبدى منه فيما بعد . . وصداقتى للسيد بردرىو ، الذى كان — فى ذلك الحين — راعى أبرشييه ريفية ، وأصبح اليوم أستاذًا للأدب ، والذى سأظل دائمًا اتحسر على صحبته المفعمة بالطف والدعة ، وإن كان هو قد رأى أن نصم هذه المعرفة ، كان عملا سليما . . وهناك السيد « جالابر » ،

الذى كان استاذاً لعلم الطبيعة — إذ ذاك — ثم أصبح مستشاراً و « سنديك » ، وقد قرأت عليه رسالتى عن عدم المساواة — بعد أن تجاوزت عن المقدمة والاهداء — فبدأ عليه أنه طرب لها .. والأستاذ « لولان » ، الذى ظللت على تراسل معه حتى وفاته ، والذى ذهب فى ثقته بى إلى درجة أن عهد إلى بأن أبتاع بعض الكتب للمكتبة العامة .. والأستاذ « فيرنيه » ، الذى أدار لى ظهره — ككل الناس — بعد أن أريته الأدلة على ود وصداقة كائنا خليقين بأن يمسا قلبه ، إذا كان لقلب رجل من رجال الدين أن يتأثر بشيء ! .. وشابوى ، الكاتب الذى خلف جوفكور فى العمل ، والذى رغب فى أن يخلفه فى الصداقة ، وسرعان ما خلّاه فعلاً .. وميرسيه دى ميزير ، وقد كان صديقاً قديماً لأبى ، كما اثبت أنه كذلك بالنسبة لى ، ولكنه — بعد أن كان قد استحق تقدير وطنه من قبل ، ثم أصبح مؤلفاً مسرحياً ومرشحاً لمجلس المائتين — تحول عن آرائه ، وعرض نفسه للسخرية حتى وافته منيته .. على أن التعارف الذى وضعت فيه أكبر أملى ، هو تعارفى مع « مولتو » .. وكان شاباً توحى مواهبه ونكاؤه المتأجج بمستقبل عظيم له . وقد اعتدت دائماً أن أشعر بعطف عليه ، برغم أن مسلكه نحوى كثيراً ما يثير الريب ، وبرغم أنه كان على علاقات ودية بالذاهدائى .. على اثنى — برغم كل هذا — لا أستطيع أن أصد نفسى عن التطلع إليه كشخص يرجى أن يكون يوماً هو الذائد عن مذكراتى، والمنقّم لى ، بوصفى صديقه !

وفي غمرة هذه المتع والمرغبات ، لم أفقد ميلى إلى النزعات
التي كنت أنطلق فيها وحيدا على قدمى ، فلم أكف عن ممارستها
.. وكمن من نزعات طويلة تمشيت خلالها على ضفاف البحيرة ،
لم يكن يمكث خلالها في رأسى - الذى اعتاد العمل - شئ من
الهواجس . وكنت اقلب في ذهنى اثناءها المشروع الذى كنت
قد رسمته من قبل ، لكتابى : « المذاهب السياسية » ، الذى
لن ألبيث أن اتحدث عنه .. كذلك كنت افكر في كتابة « تاريخ
فاليه » (١) .. ومأساة شعرية لم يجردنى موضوعها - الذى
لم يكن سوى حياة « لو كريس » (٢) - من الأمل في خلق
الضحكات ، وإن كنت قد جرؤت على أن أقدم هذه المراساة التعسة
على المسرح مرة أخرى ، في وقت لم يكن من المحتمل فيه أن تعود
حياتها إلى المسرح الفرنسى . كذلك حاولت أن أعالج موضوع
« تاسيتوس » (٣) ، وترجمت الكتاب الأول من « التواريخ » ..
ولسوف توجد هذه الترجمة بين أوراقى .

(١) اقليم « الفالية » في الأراضي السويسرية ، في الوادى الأعلى لنهر

المون .

(٢) امرأة رومانية ، تطلت نفسها ياسا وكندا عندما اغتصبها ابن حاكم
رونة المسجد ، فادت بأسانها الى قيام النظام الجمهورى في رما سنة ٥١٠
قبل الميلاد .

(٣) تاسيتوس كاتب روماني اوربنا سيرته في صفحة ١٧٥ من هذا الجزء

و « التواريخ » من أشهر مؤلفاته .



وفي غمرة هذه المتع والرفاهات لم أفقد ميلي الى التزهات التي كنت
أنتطق فيها وحيدا على قلبي .

وبعد أربعة أشهر من الإقامة في (جنيف) ، عسدت إلى (باريس) في شهر أكتوبر ، متحاشيا المرور بليون حتى لا التقى في طريقي بجوفكور . ولما كنت قد قررت - في تدبيراتي - ألا أعود إلى (جنيف) إلا في الربيع التالي ، فقد عاودت في الشتاء عاداتي وأعمالى ، التى كان أهمها مراجعة النسخ التجريبية (البرونغات) لرسالتى « حديث في عدم المساواة » ، التى كانت تطبع في (هولندا) ، لدى المكتبى « ريبى » الذى كنت قد تعرفت إليه في جنيف . ذلك لأنه لما كان إهداء هذا الكتاب معقودا للنظام الجمهورى ، وكان مثل هذا الإهداء لا يروق للمجلس (١) ، فقد انتظرت حتى أرى وقعه في جنيف قبل أن أعود إليها . ولم يكن هذا الوقع في صالحى ، بل إن ذاك الإهداء - الذى لم توج به سوى أنقى العواطف الوطنية - خلق لى في المجلس اعداء كما جلب على غيرة بعض المواطنين . فقد كتب لى السب « ثويه » - « السنديك » الأكبر ، في ذلك الحين - رسلا مهذبة ولكنها فائرة ، ستوجد في أوراقى ، في الملف « ا » ، رقم (٣) . ولتقيت من بعض الخاصة - وبينهم ديوك وجالابر - تهاتى قليلة ، كانت هى غاية ما جوزيت به ، فلم أجد واحدا من أبناء (جنيف) يشكر لى صادقا تلك الحمية المنبعثة من القلب ، التى تبدو ملموسة في الكتاب . ولقد صدم هذا الفتور كل من لاحظوه . وأذكر أننى كنت أتناول الغداء - ذات يوم - في دار السيدة دويان ، في (كليشى) ، بصحبة كروميلان - وزير الجمهورية (٢) - والسيد دى « ميران » ، فقل هذا في صراحة

(١) مجلس المائتين ، الذى كان بمثابة الهيئة النيابية لجمهورية جنيف .

(٢) الوزير المفاوض لجمهورية جنيف في باريس .

مسمومة ، ان المجلس كان مدينا لى بمكافأة ويتكريم عام ، من اجل هذا الكتاب ، وانه إنما يخزى نفسه إذا قصر فى هذا . ولم يجرؤ كروملان — الذى كان ضئيل الجسم ، اسود القلب ، دنىء المكر — أن يرد على ذلك فى حضورى ، ولكنه لوى ضبه فى حركة بشعة أضحكت السيدة دوبان ! . . وكانت الفائدة الوحيدة التى عادت على من هذا المؤلف — إلى جانب اننى ارضيت به فؤادى — هى لقب « المواطن » الذى خلعه على أصدقائى ، ثم هذا الجمهور حذوهم ، وما لبثت أن فقدته عقب ذلك ، لفرط استحقاقى إياه ! على أن هذا النجاح الخابى ما كان ليحولنى عن تحقيق أوبتى إلى (جنيف) ، لو لم تتغلب على ذلك بواعث كانت ذات نفوذ قوى على فؤادى . فان السيد ديبيناي كان راغبا فى أن يضيف إلى قصر « لا سيفريت » جناحا كان ينقصه ، فاتفق فى سبيل إنجاز ذلك ، مبالغ جسيمة . وفيما كنت ذاهبا — ذات يوم — مع السيدة ديبيناي ، لمشاهدة عملية البناء مضيئا فى سمرنا إلى ما بعد الموقع بحوالى ربع فرسخ ، أى إلى مقربة من خزان مياه المتنزهات الملحقة بالقصر ، فى متاخمة غلبة (مونمورنسى) ، حيث كان ثمة مبنى صغير رشيق ، أقيم ليكون مطبخا خلويا ، وقد الحق به كوخ صغير مهدم ، يدعى « ليرميتاج » (١) .

وكان هذا الموقع المنعزل ، الملائم بى ، قد ملك على حواسى عندما رايته للمرة الاولى ، قبل رحلتى إلى جنيف . وفى إعجابى به ، انبعثت منى هذه الكلمات : « آه ! .. يا له من مقام بهيج يا سيدتى ! .. ها هوذا ملاذ كانها خلق لى ! .. » ولم تكثر

السيدة ديبيناي لقولى كثيرا ، فى ذلك الحين . ولكننى - فى زيارتى الثانية - دهشت عندما وجدت فى مكان الطلل القديم ، منزلا صغيرا ، يكاد يكون جديدا بأكمله ، وقد قسم تقسيما بديعا ، وأصبح جد مهيا ليكون مقاما لأسرة تضم ثلاثة افراد ! .. ذلك أن السيدة ديبيناي عملت على إنشاء هذا المبنى فى صمت ، وبنفقات جد ضئيلة ، مستخدمة فى ذلك بعض العمال الذين كانوا يشتغلون فى القصر ، وبعض المواد التى كانت متوفرة هناك !

وعندما رأت دهشتى ، قالت : « ها هوذا ملجؤك يادبى . فقد اخترته بنفسك ، وقد أنالك إياه الصداقة ، عسى أن يضع خاتمة لتفكيرك الجائر فى البعد عنى ! » . وما اعتقد اننى شعرت يوما بتأثر أشد ولا أعذب مما شعرت به إذ ذاك ! .. وغسلت بدموعى يد صديقتى الكريمة . وإذا لم أكن قد تخلت تماما عن عزمى فى تلك اللحظة ، فإن هذا العزم قد تصدع على الأقل ! .. وأصبحت السيدة ديبيناي - التى أبت أن تنهزم أما رغبتى فى الاستقرار فى جنيف - شديدة الإلحاح ، واستعانته بكثير من الوسائل المتباينة ، وبكثير من الأشخاص ، لكى تغلب على .. بل أنها ذهبت فى ذلك إلى حد أن عينت السبدة لوفاسير وابنتها فى خدمتها .. وبهذا انتصرت فى النهاية على إصرارى . وإذا تنحيت من فكرة الاستقرار فى وطنى ، قررت ، ووعدت بأن أقيم فى (ليرميتاج) .. وبينما كان المبنى بجف (١) ، تكفلت

(١) كانت العادة - فى ذلك العهد - أن يترك المبنى خاليا عقب الفراغ

من بنائه ، ربما يجف اللبن والملاط المستخدمان فى انشائه .

السيدة ديبيناى بأمر الاثلاث . ومن ثم فإن المكان كان معدا تماما للسكنى فى الربيع التالى .



وكان من الأشياء التى ساعدت كثيرا على أن أبت فى الأمر ، استقرار المقام بفولنير ، على مقربة من جنيف . فقد أدركت أن هذا الرجل كان موشكا أن يحدث انقلابا هناك ، وأبنى خليك بأن أجد فى وطنى عين النقائص ، والمظاهر ، والأخلاق التى كانت تفترقنى من باريس ، ومن ثم فلا بد من النضال دون انقطاع ، ولن يبقى لى من خيار فى مسلكى سوى أن أكون أحد اثنين : إما متحذلقا متغطرسا لا يطاق ، أو مواطنا رديئا جباناً ! . ولقد أدى الخطاب الذى كتبه لى « فولنير » من كتابى الأخير ، إلى أن أثير إلى هواجسى فى ردى ، فكان الأثر الذى أحدثته إشارتى معززا لرأى . ومنذ ذلك الحين ، اعتبرت جنيف فى حكم الضائعة ، ولم أكن مخطئا فى حدسى . ولعله كان من الخلق بى أن اتحدى العاصفة ، لو أننى شعرت بمقدرة على ذلك ، ولكن . . ما الذى كنت أملك أن أفعله — وأنا وحيد ، خجول ، مئى — ضد رجل متكبر ، غنى ، يستند إلى مؤازرة الكبار ، ويجيد الكلام البراق ، وقد صار معبود النساء والشباب ! . لقد خشيت أن أمرض شجاعى للخطر ، دون جدوى ، فلم أنصت إلا إلى فطرتى المسألة ، وإلى حبى للطمانينة والخمول . . فهو إذا كان قد خدعنى إذ ذاك ، فإيه لا يزال يخدعنى اليوم ، فى هذا المضمار عينه ! . . ولو أننى أثرت المقام فى جنيف ، لجنبت نفسى كثيرا من المحن والتعبسات ، ولكنى — بكل ما أوتيت من حمية ومن فيرة وطنية — أشك فى أننى كنت مستطيعا أن أقوم بعمل عظيم ، أو نافع ، لبلادى .

وكان ترونشان قد استقر في جنيف حوالى ذلك الوقت ،
فما لبث أن جاء إلى باريس بعد قليل ، ليقوم بدور الدجال (١) ،
وليتسلل ببعض كتوزها . وما أن وصل ، حتى قام بزيارة
الشيغالبيه جوكور . . وكانت السيدة ديبيناي تواقـة إلى أن
تستشيرـه شخصيا ، ولكن الوصول إليه — خلال صفوف
الجماهير — لم يكن ميسورا . وهرعت إلى ، فاقنعت ترونشان
بأن يذهب لزيارتها ، وإذا بهما يعقدان روابط صداقة عززاها
— فيما بعد — على حسابى أنا ! . . هكذا كان نصيبى دائما ،
فما جمعت بين صديقين — كنت أعرف كلا منهما على حدة —
إلا واتحدا ، دون توان ، ضدى . ومع أنهم فى المؤامرة — التى
دخلها آل ترونشان من ذلك الحين ، لكى ينحط بيلادهما إلى
درك العبودية — كانوا يشعرون بمقت نحوى ، إلا أن
الطبيب ظل طويلا يبـدى لى آيات حسن النية . بل انه ذهب
إلى درجة أن كـهـب لى ، بعد عودته إلى جنيف ، عارضا علم
منصبا مخريا يضعنى على رأس المكتبة العامة هناك . ولكـ
رأى كان قد استقر ، فلم يزعزع هذا العرض مزى .

ومضت — فى هذه الفترة — أتردد على دار السيد
دولباخ . . وكانت مناسبة ذلك ان الموت عدا على زوجته —
كما عدا على السيدة فرانكوى — ابان إقامتى فى جنيف . وقد
حدثنى ديـرو — إذ أشار إلى ذلك فى خطباته — عن الحزن
العميق الذى نزل بالزوج ، لمحرك الأسى مؤادى ، وتحسرت

(١) هودور ترونشان الطبيب السويسرى ، الذى ولد فى جنيف سنة ١٧٠٩ ،

— فى نفسى — على هذه المرأة الطيبة، وكتبت إلى السيد دولباخ. إذ أن هذا الحادث المحزن جعلنى أنسى كل أخطائه ، وما إن عدت من جنيف ، وكان هو الآخر قد عاد من جولة قام بها فى فرنسا ليسرى عنه الأسى ، حتى ذهبت لزيارته مع جريم وأصدقاء آخرين ، وواصلت زيارته — بعد ذلك — إلى أن رحلت إلى (ليرميثاج) . وعندما شاع فى الوسط المحيط به ، أن السيدة ديبيناى — التى لم يكن قد تعرف إليها بعد — كانت تعد لى مسكنا ، انهالت على السخريات كالمطر ، وقيل إثنى عاجز عن أن أعيش بدون تعلق وإطراء المدينة ، وبدون متعها وملاهيها، وأننى لن أطيق البقاء فى عزلة ، ولو لخمسة عشر يوما !.. ولما كنت أدرك حقيقة مشاعرى ، فقد تركتهم يقولون ما حلا لهم ، ومضيت فى طريقي . ومع ذلك ، فإن دولباخ ساعدنى على أن أعثر على مأوى للشيخ الطيب (لوفاسير) (١) ، الذى كان قد تجاوز الثمانين من عمره ، والذى كانت زوجته تشعر بأنه عبء ثقيل يبهظها ، فكانت لا تكف عن أن ترجونى أن أريحها منه!.. وقد وضع فى ملجأ للفقراء ، حيث عجل كبر سنه وحزنه لبعده

(١) عقب « روسو » على هذا بقوله : « هذه إحدى الحل التى تخدعنى بها ذاكرتى . لقد علمت لئوى — وبعد كتابة هذا بأمد طويل — خلال حديث مع زوجتى من أبيها الطيب ، أن الذى ساعد على انزاله بالملجأ ، لم يكن السيد دولباخ ، وإنما كلن السيد دى شينونسو ، الذى كان إذ ذاك من أعضاء لجنة « الفندق الله » . وقد نسيت تماما ، ولكرت السيد دولباخ فى ١٧٩٠هـ ، إلى درجة أننى كنت على استعداد لأن أقسم أنه الذى قام بالخدمة » .. والفندق الذى يعنيه « روسو » هنا ، من أقدم ملاجئ باريس .

عن أسرته ، بإرساله إلى القبر ، بمجرد أن حل بالمكان تقريبا !
 .. ولم تأس زوجته وأطفاله عليه كثيرا ، ولكن تيريز — التي
 كانت مشغوفة بحبه — لم تجد قط عزاء لمصابها فيه ، ولم تصنع
 عن نفسها قط إذ تركته — وهو على شفا نهلية أجله — يقضى
 أيامه الأخيرة بعيدا عنها !

* * *

وتلقت في هذه الفترة تقريبا ، زيارة لم أكن أرتقبها قط ،
 وإن كان صاحبها من أقدم المعارف . وأعنى به صديقتي
 « فينتور » ، الذي ماجأتني ذات صباح لطيف ، عندما كان آخر
 شخص يخطر ببالي . وكان معه زميل .. وكم لاح لى أنه
 تغير ! .. فبدلا من أخلاقه الكريمة السالفة ، لم أجد فيه سوى
 مظهر مفسود منحل ، منمى من أن أكاشفه بدخيلتى .. أو
 لعل عيني لم تعودا كما مهدهما ، أو إن الانراط في العبث قد
 أطفا نكاهه ، أو أن كل تالقه السابق كان يعتمد على إشراقه
 الصبا ، التي لم يعد محتفظا بها ! .. ولقد عاملته في غير اكتراث
 تقريبا ، واغترقنا في لمسور . ولكنه لم يكد ينصرف ، حتى
 أهاجت فكرى الفتنة القديمة .. فكريات صباى ، تلك الفكريات
 التي كانت في رونقها ، وفي بهائها ، وفي كمالها ، مقصورة على
 هذه المرأة الملائكية التي لم تكن — اليوم — أقل تغرا منه ..
 وطرائف واقاصيص تلك الأوقات الهائلة .. وذلك اليوم
 الشاعرى الذى قضيته في (تون) ، في براءة وطرب بين ظكها
 الفتاتين اللاتنتين اللتين كان كل ما أتمعتا به على ، مجرد قبلة
 على اليد ، ولكنها خلقت — مع ذلك — حسرة ناعمة دائمة ! ..

وإذا كل الفشوات البهيجة التى أسكرت قلبى الشاب ، والتى شعرت بها إذ ذاك فى أقوى صورها ، والتى كنت أظنها قد ولت إلى الأبد . . كل هذه الذكريات العاطفية الناعمة ، جعلتنى أبكى شبابى الذى ادبر بمباهجه ، والذى ضاع على . . آه ! كم كنت جديرا بأن أبكى عودة هذه الذكريات — العودة المتأخرة ، الحزينة — لو أننى تنبأت بالأسى التى كان مرتقبها أن تكبدينه !

وقبل أن أغادر باريس ، وفى أثناء الشتاء الذى سبق اعتكافى ، حظيت بمتعة صادقت هوى من قلبى ، وأقبلت على تنويعها بكل نقائها . ذلك أن «باليسو» — وكان عضوا فى محفل نانسى ، أذاعت صيته بضغ تمثيلات وضعها — كان قد ظفر بعرض إحدى هذه التمثيلات فى (لونيديل) . على مشهد من ملك بولندا . وكان من الجلى أنه أراد أن ينشد الخطوة ، إذ دس فى تمثيلته شخصية رجل جرؤ على أن يناجز الملك بقلبه . ولكن « ستاتيسلاس » كان رجلا كريما ، لا يميل إلى الهجو ، وقد استنكر أن يجرؤ أحد على تصوير الشخصيات بهذا الشكل فى محضره . فكتب السيد الكونت دى تريسان — بأمر من الملك — إلى « داليمير » وإلى أنا ، فأنبأنى بأن نية صاحب الجلالة قد اتجهت إلى تحقيق اتصاء السيد باليسو ، عن المحفل . على أننى رجوت السيد تريسان مخلصا — فى ردى — بأن يشفع لدى ملك بولندا للحصول على عفو عن باليسو . وصدر العفو فعلا . وإذ كتب لى السيد دى تريسان ليخبرنى — باسم الملك — بذلك ، أضاف أن هذا الحادث سيثبت فى سجلات المحفل ، ترددت بأن هذا سيكون بمثابة توقيع عقاب دائم ، أكثر مما هو

عفو . وأخيرا ، حصلت — بعد عناء ورجاء — على وعد بأن تظل المسألة كلها بعيدة عن السجلات ، والا يبقى أى اثر منها بصفة رسمية . وقد سحب الوعد إقرارات تقدير من جانب الملك ، ومن جانب السيد دى تريسان ، مما أثار زهوى إلى حد كبير . وشعرت فى هذه المناسبة بأن تقدير أولئك الذين هم جديرون بالتقدير ، يبعث فى النفس شعورا أعذب وأسمى من شعور الخيلاء والغرور . . . وقد ضمنت خطابات السيد دى تريسان وردودى إلى أضايرى ، وستوجد أصولها فى ما « ١ » ، تحت أرقام ٩ و ١٠ و ١١

إننى لأشعر كل الشعور ، بأنه إذا قدر لهذه المذكرات أن ترى الضوء يوما ، اتنى أخلد بنفسى هنا نكرى واقعة كنت أرغب فى أن أمحو آثارها ، ولكنى أثبت كثيرا غيرها ، على الرغم منى . فإن الهدف الأكبر لمشروعى هذا ، يتمثل دائما أمام عيني . فإن الواجب الذى لا محيص عنه ، والذى يتطلب أن أحقق هذا الهدف بأكمل صورته ، لا يدع لى سبيلا للنكوص ، من أجل اعتبارات واهية تعمل على أن تعوقنى عن غايتى . إننى فى موقعنى الفذ الفريد ، أدین للحقيقة بما لا أدین لسواها بأكثر منه . ملكى أعرف القراء بنفسى ، لا بد لى من أعرف كل نواحى هذه النفس ، طبيعتها وريثها . أن اعترافاتى مرتبطة — بالضرورة — باعترافات كثير من الناس ، وإنى لأبوح بهذه وتلك بنفس الصراحة ، فى كل ما يتعلق بى ، دون أن أجد ما يقتضى أن أعامل أى امرئ غيرى بمسا لا أعامل به نفسى ، ولست أتمنى سوى أن أوتى مزيدا من الصراحة بفوق ما أبديت .

(٢٤٥) - اعترافات - ج ٢

إننى أصبو إلى أن أكون دائما منصفًا وصادقًا ، فأقول عن الغير كل خير ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، ولا أذكر من الشر إلا ما يتعلق بى ، وبقدر ما أكون مضطرا إلى ذكره .

فمنذا الذى يجد من حقه أن يطالبنى — وأنا فى هذا الموقف الذى اتحمته فيه — بمزيد ؟ . ان اعترافى لم تكتب إطلاقا لى تظهر فى حياتى ، ولا فى حياة الأشخاص الذين تتناولهم . ولو كان لى السلطان على مصرى ومصر هذا المخطوط ، لما رأى النور إلا بعد موتى وموت هؤلاء الأشخاص بوقت طويل . ولكن الجهود التى يبذلها الشائئون ذوو النفوذ — مدفوعين بجزعهم منها — لى يحوا كل اثر لهذا المخطوط ، يضطرنى إلى أن أبذل كل ما يسمح لى به اشد القوانين ، واقسى ألوان العدالة ، فى سبيل صون هذه الآثار . ولو كان مقبرا لفكرياتى أن تموت معى ، حتى لا أمس أى أحد ، لتحملت أى ظلم جائر وعابر يترتب على ذلك . أما وقد قدر لاسمى أن يعيش — أخيرا — فإن من واجبى أن أحاول أن أسلم الأجيال معه فكريات الرجل التعس الذى كان يحمله . كى أبدية على ما كان عليه فى الواقع والحقيقة ، وليس كما عمل أعداؤه الظالمون دائبين على أن يصوروه !

الكراسة التاسعة

سنة ١٧٥٦

لم يسمح لى الطهف على سكنى « ليرميتاج » بان انتظر حتى يعود فصل الطقس البديع ، فما ان تم إعداد مسكنى حتى اسرعت إلى الإقامة فيه ، وسط السخريات المدوية من ثلة دولباخ ، الذين راحوا يتنبأون علانية بأننى لن أستطيع ان أحتمل العزلة ثلاثة اشهر . وانهم لن يلبثوا أن يرونى عائدا لأعترف بإخفاقى ، ولأعيش مثلهم فى باريس . أما أنا — وقد قضيت خمس عشرة سنة بعيدا عن بيتى — فاننى إذ رايت نفسى وشيك العودة إليها ، لم أبد أى اكتراث مطلقا لمزاحهم الساخر . فاننى منذ أن القيت — على الرغم منى — فى المجتمع ، لم اكف عن التحسر على (شارميت) ، وعلى الحياة الناعمة التى حظيت بها هناك . . كنت أحس اننى خلقت للاقامة فى الريف ، فكان من المستحيل ان أهنا بالعيش فى غيره . . فى البندقية : فى غمرة الشئون العامة ، وفى منصب خاص بنوع من التمثيل الديبلوماسى ، وفى آمالى الطامحة ومشروعاتى للرئى . . فى باريس : فى دوامة المجتمع الراقى ، وفى الملاذ الحسية التى تكتنف حفلات العشاء ، وفى حفلات المسرح اللامعة ، وفى سحب المجد الزائف الذى حف بى . . فى كل هذه وتلك ، كانت ذكريات أدفالى ، وجداولى ، وتجوالى على القدمين ، حاضرة أبدا لتشغل بالى وتبعث الاسى فى نفسى ، وتنتزع منى التفهيدات والحنين والحسرة !

كل الاعمال التى كان فى طوقى ان اجعل نفسى فى ريقتهما ، وكل المشروعات الطامحة التى راحت تنمى حميتى باطراد ، ولم يكن لها من غاية سوى ان ابلغ يوما تلك البحبوحة الربيبية الهائلة، التى رحت اهنىء نفسى — فى تلك اللحظة — على اننى احرزتها . . فاننى وإن لم احظ بالاستقلال الكريم — الذى كنت اعتبره وحده الكفيل بأن يقودنى إلى هذه الهناءة — إلا اننى رايت ان بوسعى ، نظرا لوضعى الخاص ، ان استغنى عنه ، وان اصل إلى نفس النهاية بطريق آخرى جد مختلفة . على اننى لم اكن املك دخلا ما ، وإن كنت املك اسما ومواهب . . وكنت معتدلا ، وقد حرمت نفسى من معظم الحاجات الباهظة النفقات . . تلك التى كانت منشودة لدى الناس عامة . وإلى جانب ذلك، فبالرغم من كسلى ، إلا اننى كنت مجدا عندما اشاء ، ولم يكن كسلى راجعا إلى اننى عاطل خمول ، بقدر ما كان خلة الرجل المستقل الذى لا يحب ان يعمل إلا عندما يروق له العمل . ولم يكن احترافى نسخ القطع الموسيقية رائجا ، ولا مريحا ، ولكنه كان مصدر رزق مضمون ، وقد حبذ المجتمع شجاعته إذ اقدمت على اختياره . فقد كان لى دائما ان اطمئن إلى عمل ، وان اطمئن إلى رزق كاف ليعيش إذا أنا عملت جادا . وكانت الفرنكات الالفان التى تبقت من ارباحى من «عراف القرية» ومن مؤلفاتى الأخرى ، بمثابة رصيد يقينى الضيق . كما ان المؤلفات العديدة التى كانت تحت الاعداد ، كانت تبشر — دون ما تطفل على الآخرين — بموارد كافية لان تمكنى من العمل على سببى ، دون ما ابرهاق لنفسى ، بل ودون ان اجور على اوقات

الفراغ المخصصة للتريض والتجوال . وكانت أسرتى الصغيرة، مؤلفة من ثلاثة اشخاص ، شغل كل منهم بما هو نافع ، ولم تكن إعالتها مبهظة . وقصارى القول ان مواردى - بالنسبة لحاجاتى ورغباتى - كانت قادرة بحق على ان تتيح لى السعادة الدائمة فى الحياة التى اختارتها ميولى .

ولقد كان بوسعى ان أرتى تهاما فى أحضان الجانب الاكثر إدرارا للريح ، وبدلا من أن اذل قلمى للنسخ ، كان بوسعى ان لكرسه تكريسا تاما للكتابة التى كانت - فى الاعتكاف الذى اخترته ، والذى شعرت بأننى قادر على مواصلته - كفيلة بأن تمكتنى من أن أعيش فى سعة ، بل فى بذخ ، لو اتنى وافقت على أن أجمع بين حيل المؤلف والعناية بنشر كتب جيدة . بيد اننى كنت أشعر بأن الكتابة من أجل كسب العيش ، لن تلبث أن تخنق نبوغى ، وأن تقتل موهبتى التى كانت فى قلبى أكثر مما كلفت فى قلمى ، والننى لم تتبعث إلا من اسلوب فى التفكير راق، ائسم ، هو وحده القادر على تغذية تلك الموهبة . . فما من شيء قوى ، ولا من شيء عظيم يمكن أن ينساب من قلم أجبر مرتش ! . . إن الحاجة - وربما الجشع - كانت كفيلة بأن تدفعنى إلى أن اتعجل أكثر من أن اتقن . ولولا أن الرغبة فى النجاح زجت بى إلى الدسائس ، لكان من المحتمل أن تجعلنى أفضل لأقول بما قد يطيب للناس ، وليس ما هو صادق ونافع ! . . وبدلا من المؤلف المبرز ، الذى كان بوسعى أن أغدوه ، فائننى ما كنت لأصبح سوى مسود للورق ! . . لا ، لا ! . . لقد كنت أشعر دائما أن مكاتة المؤلف لا يمكن أن تصبح مرموقة ومحترمة ، إلا

إذا كان التأليف بعيدا عن أن يكون حرفة . . إذ أنه من الصعب، كل الصعب ، أن يفكر الإنسان تفكيرا نبيلًا ساميًا ، إذا ما كان مضطرا إلى ألا يفكر إلا طلبا للرزق ! . . ولكي يكون الكاتب قادرا ، ولكي يجسر على أن ينطق بالحقائق الجليلة ، ينبغي ألا يعول على النجاح ويركن إليه . ولقد دفعت بكتبي إلى الناس بضمير مطمئن إلى أنني إنما تكلمت من أجل الصالح العام غير حائل بأي شيء آخر . فإذا رفض الكتاب ، فيا تعسا لأولئك الذين لم يشاعروا أن يفيدوا منه . أما أنا ، فما كنت بحاجة إلى رضاهم وقبولهم لكي أعيش ، فإن مهنتي كانت كفيلة بأن تعولني ، إذا لم تلق كتبي مشتريا . . وهذا بالذات هو الذي جعلها تباع وتروج !

وفي التاسع من إبريل سنة ١٧٥٦ ، غادرت المدينة فلم أعد إلى سكني المدن قط ، إذ أنني لا اعتبر من السكنى في شيء ، تلك الفترات الوجيزة التي قضيتها — فيما بعد — سواء في باريس أو في لندن أو غيرها من المدن . فقد كانت مجرد إقامة عابرة ، أو إقامة بالرغم مني دائما ! . . ولقد اطلت السيدة ديبيناي ثلاثتنا في عربتها ، وتولى خادمها الريفى أمر متاعى البسيط ، واستقر بى المقام فى بيتى الجديد ، فى اليوم ذاته . ووجدت معزلى الصغير مهيا ، ذا أثاث بسيط ولكنه كاف ، وينم عن ذوق ! . . كانت اليد التى عنيت باعداد هذا الأثاث قد أضفت عليه — فى نظرى — قيمة تفوق كل تقدير ، وقد لذلى أن أكون ضيف صديقنى ، فى بيت من أختياري ، شيدته هى خصيصا لى !

ومع أن الطقس كان باردا ، بل كان ثمة جليد ، فإن الأرض كانت قد بدأت تخضوضر ، وكانت زهور النرجس وورود الربيع قد ظهرت ، وشرعت البراعم تتفتح على الأشجار . . وقد امتازت ليلة وصولي بأول شدة للبلبل في أعقاب الشتاء، وقد انبعث من غلبة كانت تتلخم البيت ، فكأنما كان البلبل ذاته عند نافذتى . . وبعد نعاس خفيف ، استيقظت وقد نسيت تبديل مسكنى ، فخلت اننى لا أزال فى شارع (جرينيل) ، لولا أن شدة البلبل نبهنى ، فهتفت فى نشوتى : « ها قد تحققت كل أمانى أخيرا ! » . . وكان أول ما فكرت فيه هو أن أسلم نفسى لمفعول الأشياء الريفية التى كانت تحيط بى . وبدلا من أن أشرع فى تنسيق مسكنى، فأننى شرعت فى إعداد نفسى لنزهاتى، فلم يبق ثمة درب ، ولا شجرة ضخمة ، ولا غيبة (مجموعة من الشجر) ، ولا بقعة منعزلة حول مسكنى ، إلا وتفقدتها فى اليوم التالى . . وكنت كلما ازددت تعرفا بهذا المعزل الفاتن ، ازددت إحساسا بأنه ما خلق إلا لى ! . . كانت هذه البقعة البعيدة عن العمران — وإن لم تكن موحشة — تنقلنى فى الخيال إلى آخر أطراف المعمورة . . كانت قد أوتيت تلك المفاتن التى تملك القلوب ، والتى لا يجدها المرء قط على مقربة من المدن . وما قدر لأمريء انتقل إلى هناك فجأة ، أن يصدق أنه كان لا يبعد عن باريس بأكثر من أربعة فراسخ !

وبعد بضعة أيام من الاستسلام لنشوتى الريفية ، فكرت فى تنسيق أوراقتى وتنظيم مهامى ، فخصصت فترة الصباح للنسخ — كما اعتدت أن أفعل دائما — وفترة ما بعد الغداء للتريض



وبعد نعام خفيف ، استيقظت وقد نسيت بطل مسكني ، فخلت انني
ما ازال في شارع (جرينيل) .

والتجوال ، مزودا بكراسة بيضاء صغيرة وقلم من الرصاص ،
 إذ أنني لم أستطع أن اكتب أو أن افكر على سجيتي إطلاقا ، إلا
 في الهواء الطلق والفضاء ، ولم أجد بنفسى ميلا إلى أن أغمر
 أسلوبي ، بل أنني قدرت أن غابة (مونيورنسي) — التي كنت
 تكاد تصل إلى بابي — لن تلبث أن تغدو مكتبي ومكان عملي! ..
 وكانت لدى عدة مؤلفات بدأتها من قبل ، فعمدت إلى مراجعتها
 .. كتبت مبدعا كل الإبداع في مشروعاتي ، ولكن تنفيذها كان
 يسير ببطء ، في ضوضاء المدينة . وقد توقعت أن أمضى فيها
 بمزيد من العجلة ، إذا ما تخففت من كل ما اعتاد أن يشغلني
 عن العمل .. واعتقد أنني قد حققت هذا التوقع تماما ..
 وبالنسبة لرجل كثير المرض ، كثير التردد على قصر «الاشيفريت»
 وأيبيناى وأويون وقصر مونيورنسي ، كثير التشاغل عن عمله في
 داره بفضل الفضوليين المتعطلين ، دائم الانشغال بالنسخ
 نصف نهاره .. إذا قدر كل هذا ، واحصيت المؤلفات التي
 أنجزتها خلال السنوات الست — التي قضيتها في ليرميثاج
 ومونيورنسي — لتجلى ، فيها أوقن ، أنني إذا كنت قد بددت
 وقتي خلال هذه الحقبة من الزمن ، فإن تبديده لم يكن في خمول ،
 على الأقل !

وبين الأعمال الأدبية المتباينة — التي كتبت على الرف — كار
 المؤلف الذي اطلت التفكير فيه ، والذي اقبلت عليه بأعظم قدر
 من الشغف ، والذي وجدت أن أعمل فيه طول عمري ، والذي
 اعتقد أنه ختم شهرتي .. ذلك هو كتابي في «المذاهب السياسية» .
 إذ كانت قد انقضت ثلاث عشرة — أو أربع عشرة — سنة ،

مذ خطرت لى فكرته ، عندما كنت مقبها فى البنديقة ، حيث اتحت لى الفرصة كى اشهد عيوب نظام الحكم فيها ، برغم ماكان له من صيت . ومن ذلك الحين ، اتسعت آرائى بفضل الدراسات التاريخية لقواعد الاخلاق ، مقدر لى ان ارى ان كل شىء كان يتصل اتصالا جوهريا بالاعتبارات السياسية ، وانه ما من شعب يملك — مهما يكن تقدمه — ان يصبح فى حال غير التى تعده لها طبيعة نظام الحكم فيه . ومن ثم ، فإن المسألة الكبرى — مسألة خير نظام ممكن للحكم — انكشفت فى نظرى إلى ما يأتى : ما كنه نظام الحكم الصالح لتكوين الشعب الذى يكون افضل صلات ، واكثر تنورا ، واوسع حكمة .. وبالإيجاز ، الشعب الذى يكون « احسن » شعب ، بأوسع معانى كلمة « احسن » ؟ .. ولاح لى ان هذا السؤال كان وثيق الارتباط بسؤال آخر ، قريب الشبه منه ، وإن لم يكن مثله تماما . ذلك هو : ما هى الحكومة التى تحرم — بطبيعتها — دائما ، على ان تكون وثيقة القرب من القانون ؟ .. ومن هنا خطر لى سؤال آخر : ما هو القانون ؟ .. وتبعته سلسلة من الاسئلة لها عين القيمة . ورأيت ان هذا كله يفضى إلى حقائق عظيمة ، ذات نفع بالنسبة لرغاهية الجنس البشرى ، ولا سيما لرغاهية وطنى ، حيث لم اجد — خلال الرحلة التى تمت بها إلى هناك — دراية بالقانون وبالحرية صحيحة ، ولا واضحة بالقدر الذى كان يرضينى . ولقد آمنت بأن الإعجاز بهذه الدراية — بطريق غير مباشر — هو اسلم وسيلة ملائمة لكرامة هؤلاء القوم ، وخير شئ لى كى يغفروا لى ان استطعت ان امد بصرى إلى أعلى وابعد مما بلغته ابصارهم !

ومع اننى كنت قد عكفت - لخمس سنوات او ست - على وضع هذا المؤلف ، إلا اننى لم اكن قد قطعت فيه شوطا يذكر . فلن الكتب التى من هذا القبيل ، تتطلب تأملا ، وفراغا . وطمانينة . فضلا عن اننى كنت أعمل فيه فى الخفاء - كما يقال - دون أن افاتح أحدا - ولا يديرو نفسه - بها اعتزمت . فقد كنت أخشى الا يبدو ملائها كل الملاحة لروح العصر ، وللبلد الذى كنت اكتبه فيه ، وأن جزع اصدقائى قد يعرقل جهودى فى تنفيذه (١) . ولم اكن بعد واثقا من أنه سيتم فى وقت مناسب ، وبحيث يتسنى ظهوره ابان حياتى . . وكنت راغبا فى أن أتمكن دون أى تقيد - من أن أهب موضوعى كل ما كان يتطلبه . ولما كنت خلوا من التحامل المغرض ، وغير راغب قط فى الجنوح إليهما - فلفنى كنت مطمئنا إلى اننى سأظل دائما بمنأى عن اللوم . . لقد وجدت أن استخدم - أكمل استخدام ، دون ريب - حق التفكير ، هذا الحق الذى أوتيته بحكم وجودى . . ولكنى فى حرصى دائما على احترام نظام الحكم الذى كنت أعيش فى

(١) عقب « روسو » على هذا بقوله : « كنت حكمة بذكر المترمة من التى أوجت الى بهذا الغفوة . أما يديرو ، فليست ادري كيف كانت اجتماعاتى به تعج دائما الى جعلى أكثر مسفرة وهجوا واتذاعا مما كنت بطبيعتى . وهذا بلاذات من الذى زنى من أن استشير فى مشروع كنت راغباً فى الا استقدم فيه سوى قوة المنطق والملاحظة فقط ، دون انه أمر لثمت أو تعصب . ومن الممكن الحكم على الأسلوب الذى انتهجته فى هذا المؤلف ، على ضوء استلواي فى « المبدأ الاجتماعى » الذى اخلته منه » - ولد قدم « كتابى » ملخصاً للمبدأ الاجتماعى فى المبدئين (٣١) و (٣٢) .

ظلاله ، وعلى عدم الخروج على القانون إطلاقاً ، وعلى التزام
 الحضر حتى لا أنتهك حق الغير .. فى كل حرصى هذا ، لم أكن
 رافياً — فى الوقت ذاته — فى أن افترط ، بدافع من الخوف ،
 فى امتيازات هذا الحق .. حتى فى التفكير ! . بل أننى لأذهب إلى
 الاعتراف بأننى وجدت وضعى فى فرنسا — كأجنبى يعيش
 فيها — موافقاً لى أقول الحق فى جراءة .. فقد أدرك تماماً أننى
 ما دمت لا أطيع شيئاً فى الدولة ، دون ما إذن — وهو ما كنت
 اعترمه — فلن أكون مسئولاً أمام أى أحد فى فرنسا عن
 مبادئى ، وعن الترويج لها فى أى مكان آخر ! .. ولقد كان من
 المحتمل أن أكون أقل حرية فى جنيف ، أو فى أى مكان آخر
 طبعت فيه كتبى ، إذ كان للسلطات حق الاعتراض على
 محتوياتها . ولقد كان لهذا الاعتبار اثر كبير فى حلقى على أن
 اتصاع لإلحاف السيدة ديبيناي ، فهاجر ما كنت قد انتويته من
 الإقامة فى جنيف . فقد شعرت — كما فكرت فى « اميل » — بأن
 المرء إذا أراد أن يؤلف كتباً فى الصالح الحقيقى لوطنه ، فليس
 له أن يؤلفها فى هذا الوطن ، اللهم إلا أن يكون موهوباً فى التأمر
 والدس والخداع !

ومما زادنى مسعادة ، أننى اقتنعت بأن حكومة فرنسا ،
 مستفترية أن من الكرامة أن تدعى فى سلام ، إن لم تحبنى ، ولو
 أنها لم تكن تنظر إلى بعين راضية ! .. ولقد كان هذا — فيما بدا
 لى — نهجاً سياسياً بسيطاً ، وصريحاً إذ أنه يرمى إلى التسامح
 إزاء ما لا سبيل هناك إلى منعه .. غلو أننى حملت على مغادرة
 فرنسا — وهو ما لكل الحكومات الحق فى أن تقدم عليه — لظلت

كتبى ماضية فى الصدور ، ولكن بتحفظ اقل .. اما إذا تركت دون إزعاج ، فلتنى — كمؤلف — سأعتبر رهينة وضمناً لكتبى، كما أن هذا كفيل بأن يحو الآراء الخاطئة التى كانت متغلغلة فى بقية أوروبا ، إذ يكسب السلطات الفرنسية شهرة احترام حقوق الأمم من سعة أفق ورقى تفكير !

والذين يحكمون — على ضوء النتيجة — بأن ثقتى قد غررت بى ، ربما كانوا هم المخدوعون . ففى العاصفة التى هبت على، كانت كتبى خير حجة فى جانبى ، لولا أن شخصى هو الذى كلن مقصودا .. فإن أحدا لم يول المؤلف كثير اهتمام ، ولكنهم كانوا يتوقون إلى القضاء على جان جاك نفسه .. وكان أسوأ ما جرت كتاباتى ، هو التكريم الذى كان من المحتمل أن يولونى إياه . ولكن .. يجب ألا نقفز إلى المستقبل ، ولندعه إلى حينه ! .. ولست أرى ما إذا كلن هذا اللغز — فهو لا يزا لفزا فى نظرى إلى اليوم — سيلقى ما يوضحه فى نظر قرائى فيما بعد .

وإنما الذى أدريه هو أنه إذا كانت آرائى التى جاهرت بها، جديرة بأن تجلب على المعاملة التى قاسيتها ، لما توانيت من التعجيل بأن أصبح فريسة لها . ذلك لأن ما ظهر من كتبى — التى بسطت فيها هذه المبادئ بكل جرأة ، إن لم اقل بكل شجاعة (١) — كان قد أحدث أثره ، على ما بدا ، قبل أن آوى إلى (ليرميتاج) ، دون أن يخطر ببال أحد أن يناجزنى الحرب،

(١) يقصد كتابه : " حديث فى مدم المساواة فى الظروف والاحوال " .

أو — على الأقل — أن يعوق نشر المؤلف في فرنسا ، حيث كان يباع في علانية لا تقل عن التي كان يباع بها في هولندا . ولقد ظهرت « هيلويس الجديدة » — بعد ذلك — بنفس السهولة ، وب نفس التحبذ ، كما ينبغي أن يقال . ومن الأمور التي تبدو أبعد من أن تصدق ، أن العقيدة التي بشرت بها في « هيلويس » هذه ، كانت عين تلك التي بشرت بها في « أسقف سانفوا » . . وكل ما اقدمت على قوله في « العقد الاجتماعي » ، كان قد قيل في « حديث في عدم المساواة » . . وكل ما جهرت به في « اميل » ، ظهر قبل ذلك في « جولي » . . ولكن هذه العبارات المدوية ، لم تثر سخطا ضد الكتابين الاولين (١) ، ومن ثم فما كان من المعقول أن تكون هي التي اثارت سخطا ضد الكتاب الأخير (٢) .



وهناك مشروع كتاب آخر ، من نفس النوع تقريبا ، ولكن فكرته واتتني متأخرة عن أفكار تلك الكتب ، وقد شغلت بالي في ذلك الحين . . ذلك هو « مختارات من أعمال الأب دى سان بيير » ، الذي لم املك الحديث عنه من قبل ، إذ شغلنى عن ذلك سياق السرد . فلقد أوحى إلى بالفكرة الراهب دى مابلى — عقب عودتى من جنيف . . ولم يعرضها على مباشرة ، وإنما وسطى في الأمر السيدة دويان ، التي كانت مهتمة — إلى حد ما — بإقتناعى بالاضطلاع بالمشروع أ . . فقد كانت إحدى ثلاث أو

(١) يقصد كتابيه : « اميل » و « حديث في عدم المساواة » .

(٢) قصد « العقد الاجتماعي » .

أربع من حسان باريس ، تهافتن على الراهب الشيخ « سان بيير » . وإذا لم تكن قد ظفرت بالايثار منه ، فإنها — على الأقل — قد تقاسمته مع السيدة ديجويون . ولقد احتفظت لذكرى الراهب الطيب باحترام وعطف كانا مصدر نحر لها وله ، ومن ثم فإن كبرياءها كانت خليقة بأن تجد ما يرضيها إذ ترى مؤلفات صديقتها الميت الحى ، تبعث على يدى سكرتيرها . ومع أن هذه المؤلفات لم تخل من موضوعات بدیعة ، إلا أنها كانت معروضة بأسوأ تعبير ، إلى درجة تجعل من العسير على القارئ أن يحتمل قراءتها . ومما كان يبعث على الدهشة ، أن الراهب كان يعتبر قراءه مجرد « أطفال كبار » ، ولكنه — مع ذلك — كان يخاطبهم باعتبارهم رجالا . . فضلا عن أنه لم يتجشم أى عناء فى حملهم على الانتصات إليه

من أجل هذا عرض على الاضطلاع بهذه المهمة التى كانت نافعة — فى حد ذاتها — كما كانت مناسبة لرجل مجد فى النسخ والتعديل ، ولكنه كسول فى التأليف ، الذى أن المجهود الذى يبذل فى التفكير مرهق ، فكان يؤثر — فيها يوافق هواه — أن يتقح ويحسن افكار سواه ، على أن يبتدع افكارا جديدة من لدنه . . وإلى جانب ذلك ، فأننى لم أقصر دورى على مجرد التفسير والترجمة ، إذ أننى لم أكن ممنوعا من أن أستغل تفكيرى فى بعض الأحيان ، وكنت مطلق اليد فى أن أصوغ على بالشكل الذى يمكن كثيرا من الحقائق الهامة من أن تظهر فى مسوح الراهب « سان بيير » ، دون ما تعرض للخطر الذى قد يحدث بها إذا ما ظهرت فى ثيابى أنا . . فضلا عن كل هذا ،

فإن المهمة لم تكن باليسيرة .. لم تكن تتطلب أقل من القراءة ، ثم الاستيعاب والتفكير ، ثم اختيار مادة من اثنين وعشرين مجلدا مهوشة ، مضطربة التنسيق ، مليئة بالحشر والإطناب والتكرار والآراء الضحلة أو الخاطئة .. وكان لابد من التنقيب بينها حتى يمكن العثور على طائفة من الآراء الجلييلة الدسمة التي كانت تشجع على احتمال المهمة الوعرة ! .. بل أنني كنت موشكا - في كثير من الأحيان - على أن أنفض يدي منها ، لو أنني استطعت أن انسحب في تصرف كريم .. ولكنني عندما تقبلت مخطوطات الراهب - التي أعطاها ابن أخيه الكونت دي « سان بيير » ، بإيعاز من « سان لامبير » - أصبحت مرتبطا بشكل ما ، بأن استعملها .. وأصبح الواجب يقتضيني إما أن أردّها ، وإما أن أجعل لها قيمة . وبهذه النية الأخيرة حملتها إلى « ليرميّتاچ » ، فكلفت أول عمل اعترفت أن أكرس له وقت فراغى !

ورحت أفكر - إذ ذاك أيضا - في مشروع كتاب ثالث ، كنت مدينا بفكرته إلى بعض ملاحظات اخذتها على نفسي ، ومما زاد من شعورى بالرغبة في الإقدام عليه ، أنني وجدت من الأسباب ما جعلنى أصبو إلى أن أنتج كتابا ذا نفع حقيقى للجنس البشرى ، بل كتابا يكون أنفع ما قدم إلى البشر ، إذا ما قدر للتنفيذ أن يطابق الخطة التى رسمتها مطابقة ناجحة . فلقدر لوحظ أن الغالبية من الناس كثيرا ما يكونون - فى سياق حياتهم - على غير ما هم عليه أصلا ، وكأنهم يتحولون إلى أناس مختلفين تمام الاختلاف . ولم أكن أبغى بإصدار كتاب فى ذلك ، أن أقر شيئا

معروفا كل المعرفة ، بل كان لدى غرض جديد تهلم الجدة ،
ونو أهمية بالغة . . ذلك هو أن أبحث عن أسباب هذه
التطورات والتغيرات — التي تطرأ على الناس في حياتهم — وأن
أقتصر على ما يكون منها متوقفا علينا نحن أنفسنا ، وأن أبين
كيف يتسنى أن نتحكم فيها بأنفسنا ، لكي نصبح أفضل وأكثر
ثقة بأنفسنا واطمئنانا إليها ! . . ذلك لأنه لا جدال في أن الرجل
الشريف يعاني في مقاومة الشهوات التي اكتمل تكوينها — والتي
ينبغي عليه أن يقاومها — عناء أشد مما لو أنه كبح أو غير أو
مدل هذه الشهوات ذاتها من منبعها ، لو قدر له أن يتعقبها
إلى هذا المنبع . فالرجل يقاوم الغواية مرة لأنه قوى ، ولكنه
— في مرة أخرى — يستسلم لأنه ضعيف . . ولو أنه كان على
ما كان عليه من قبل ، لما استسلم .

ولمّا كنت أمحص نفسي ، وأبحث في النفوس الأخرى عما
يمكن هذا التباين من الحدوث ، تبين أني إنما يعتمد — إلى حد
كبير — على ما تكون أشياء خارجية قد أحدثته — من قبل —
من انطباعات داخلية ، وأننا في تغيرنا المستمر — بفعل حواسنا ،
وأجهزتنا البدنية — إنما نكتشف ، دون أن ندرك عن أثر ذلك
التغير في أنفسنا ، وفي آرائنا ، وفي مشاعرنا ، وفي أعمالنا
ذاتنا ! . . وكانت المشاهدات العديدة والمدهشة — التي
جمعتها — تعلو على كل طعن . . وقد بنت لى ، في أصولها
الطبيعية ، صالحة لأن تؤلف نظاما خارجيا للسلوك ، يتغير بتغير
الظروف ، ويمكن من وضع العقل أو صونه في حال تكون خير
الأحوال ملائمة للفضيلة ! . . فكم من أخطاء يمكن انقاذ العقل

منها ، وكم من رذائل يتسنى خنقها في مهدها ، إذا تيسرت معرفة التحكم في النظام الحيواني بحيث يتلاءم مع النظام الخلقى الذى كثيرا ما يتعرض للاضطراب ! .. ان احوال الجو ، والفصول ، والأصوات ، والألوان ، والظلام ، والنور ، والعناصر ، والمواد ، والضجة ، والصمت ، والحركة ، والسكون .. كل هذه تعمل وتؤثر على جسمنا وعلى عقلنا بالتوالى .. كلها تهدنا بالف فرصة ، تكاد تكون مضمونة ، للتحكم — منذ البداية — فى المشاعر التى تتركها تتحكم فيها !

هكذا كانت الفكرة الأصلية ، التى كنت قد سطرته على الورق ، والتى توقعت منها نتيجة عظيمة النفع لذوى المنبت السليم ، الذين يتحدون ضعفهم ، فى سبيل حبهب الصادق للفضيلة .. حتى لقد بدا لى أن من الميسور أن أجعل من هذه الفكرة كتابا مشوقا من حيث القراءة ، كما هو من حيث الكتابة ! .. ومع ذلك ، فأننى لم أحرز سوى تقدم ضئيل فى هذا المؤلف — الذى جعلت له عنوانا : « المبادئ الخلقية الحسية ، أو مادية الحكيم » (١) — لقد حالت شواغل ، لن تلبث أن تتكشف ، دون أن اعكف عليه .. ولن يلبث أن ينضح كذلك ، ان هذه كانت خاتمة مشروعى الذى كان أقرب إلى نفسى من كل ما يبدو !

* * *

وكنيت — إلى جانب كل هذا — قد فكرت منذ زمن ، في نظام للتربية كانت السيدة دى شينونسو قد رجتنى أن اشتغل به ، في غمرة إشفاقها على ابنها من النظام الذى وضعه زوجها لتربيته ! .. ولقد استوجب سلطان الصداقة أن انصرف إلى هذا الهدف أكثر من سواء ، برغم أنه لم يكن — في حد ذاته — بما يصادف هوى من نفسى . ومن ثم فإن هذا المشروع هو الوحيد — بين كل المشروعات — التى فكرتها من قبل — الذى أنجزته . ولقد كانت الغاية التى وضعتها نصب عيني — وأنا أعمل فيه — جدية ، كما يترأى لى ، بأن تتيح للمؤلف جزاء آخر غير الذى أتاحه . ولكن .. لتجنب الحديث هنا عن هذا الموضوع المحزن ، قبل أن يحين أوانه .. فسوف اضطر اضطرارا إلى الحديث عنه فيما بعد !

ولقد أمدتني هذه المشروعات المتباينة بموضوعات للتأمل والتفكير في نزهاتي اليومية . إذ أننى — واعتقد اننى فكرت هذا من قبل — لا أستطيع التفكير إلا وأنا أتمشى ، فما أن أقف ، حتى أكف عن التفكير ، فليس في وسع عقلى أن يتحرك إلا مع قدمى . على أننى أتخذت الحيلة ، فوفرت لنفسى عملا أؤديه داخل البيت في الأيام المطيرة . ذلك هو « قاموس الموسيقى » ، الذى كانت مواده وأصوله مبعثرة ، ناقصة ، مشتتة بحال تجعل من الضرورى إعادة كتابة السفر كله ، من أوله إلى آخره تقريبا . ولقد ابتعت بعض الكتب التى كنت بحاجة إليها من أجل ذلك ، وقضيت شهرين في السعى إلى الحصول على كثير من الكتب الأخرى ، التى استعمرت لى من

« مكتبة الملك » ، والتي ابيح لى ان اصحب بعضها معى إلى « ليرميلاج » . هذه كانت المواد التى تهيب لى العمل فى البيت ، عندما لا يسمح الطقس لى بالخروج ، او عندما اسام النسخ والنقل . ولقد وافقتى هذا التدبير إلى درجة اننى واظبت عليه فى « ليرميلاج » وفى قصر « مونمورنسى » على السواء ، ثم فى « موتير » بعد ذلك ، حيث اكملت هذا المؤلف ، بينما كنت ملضيا فى مؤلفات غيره . وقد اعتدت دائما أن اجد فى تغيير الاعمال مادة للترويح حقا !

وتبعت فى دقة بالغة - ولفترة من الزمن - النظام الذى فكرته ، فوجدته صالحا للغاية ، ولكن الفصل الجميل (الربيع) لم يلبث أن زاد من تردد السيدة ديبيناي على ضيعة (ايبيناي) او ضيعة (لاشيفريت) ، فوجدت من الشواغل - التى لم تكن تكبئنى من قبل شيئا ، ولكنى لم احسب لها فى تدبيرى حسابا - ما عطل كثيرا من مشروعاتى الأخرى . فلقد قلت - من قبل - إن للسيدة ديبيناي خصالا بالغة اللطف ، إذ كانت تحب اصديقاءها حبا خالصا ، وتخدمهم بكثير من الشهامة ، ولا تضن عليهم بوقت ولا بمال ، ومن ثم فانها كانت تستحق - من جدارة - أن تجازى من ذلك برعاية خاصة . ولقد كنت - حتى ذلك الحين - اؤدى هذا الواجب ، دون أن افكر فى انه واجب ، ولكنى لم البث أن فهمت - فى النهاية - اننى مغلول بسلسلة لم يكن يحول دون شعورى بوطاعتها سوى الصداقة وحدها ! . . ولقد ضاعفت من هذا العيب بنفورى من الاجتماعات الحافلة ، إذ تكرمت السيدة ديبيناي فعرضت اقتراحا بدا ملائما

بالنسبة لى ، واكثر ملامة بالنسبة لها ، ذلك هو ان تحيطنى
 علما بالأوقات التى تكون فيها على انفراد ، او على وشك
 الانفراد . ولقد وافقت على ذلك ، دون ان افطن إلى ما كنت
 اقيد به نفسى . وترقب على ذلك اثنى لم اعد اودى لها زيارات
 فى الوقت المناسب لى ، ولكن فى الوقت المناسب لها هى ، واثنى
 لم اطمئن يوما إلى أن نهارى رهن رغبتى . ولقد انسد هذا
 القيد — إلى حد كبير — ما كانت توغره لى زيارتى لها — فيها
 مضى — من متعة .. وتبينت ان الحرية — التى طالما وعدتني
 بها — لم تمنح لى إلا بشرط الا احظى بها إطلاقا ! .. ولقد
 رغبت — فى مرة أو مرتين — فى أن أجربها ، فاذا بكثير من
 الرسائل ، وكثير من المذكرات ، وكثير من امارات الخوف تنهال
 من السيدة ديبيناي معربة من قلقتها على صحتى .. حتى تبين
 تملها الا شفيع لى فى عدم الاسراع إليها لدى اول بلدرة
 عن رغباتها ، إلا بأن ألزم فراشى تماما !

وكنت مضطرا إلى ان اخضع لهذه الرقعة ، فانصعت فى
 تصاهل يفوق ما كان ينتظر من عدو لحدود لكل ما يحد من
 الحرية .. وقد ساعد الوفاء الصادق — الذى كنت اكنه
 للسيدة — على الحيلولة، إلى حد كبير، دون أن اشعر بالاغلال
 التى كانت ترتبط بهذا الموقف . ولقد استطاعت السيدة ديبيناي
 أن تملأ بهذه الطريقة الفراغ — الذى خلفه غياب الـثـلة التى كانت
 تحيط بها — إلى حد ما . ولقد كانت التسلية التى ظفرت بها
 من نوع لا يلذ لها كثيرا ، ولكنها كانت افضل من العزلة التامة،
 التى لم تكن تطيقها . على أنها أصبحت أقدر على ملء الفراغ

بسهولة ، عندما شرعت تجرب قلمها في الأدب ، ودخلت رأسها
 نزوة كتابة قصص ، ورسائل ، وفكاهيات ، وحكايات ،
 وما إلى هذه التفاهات ، كيما اتفق لها . . . على أن الكتابة لم تكن
 أعظم ما لذ لها بل أن أكثر ما طاب لها هو قراءة ما كانت تكتب . . .
 لماذا هي سودت صحيفتين أو ثلاثا ، كان من الضروري لها أن
 تطمنن إلى وجود اثنين أو ثلاثة ينصتون إلى هذا العمل الضخم
 ويحبذونه . ونادرا ما كنت أحظى بشرف أن أكون واحدا من
 هؤلاء الصفوة المختارة ، اللهم إلا إذا شفع لى مستمع آخر ! . .
 ذلك لأننى كنت — وحدى — لا أكاد أساوى شيئا ينكر ، لا بى
 ندوة السيدة ديبيناي محسب ، وإنما فى ندوة السيد دولباخ ،
 وحيثما كان جريم نجبا متالفا . . وكان هذا التجاهل القام
 لقدرى يلائمنى تمام الملامة ، اللهم إلا عندما أكون مع السيدة
 وحيدى ، إذ أننى لم أكن أعرف أى مسلك اتخذ . . ذلك لأننى
 لم أكن أجرؤ على الحديث فى الأدب — إذ لم أكن أعتبر كتابا
 لإبداء الراى فيه — ولا فى آداب السلوك والمجاملة والإيفاس ،
 لأننى كنت مفرط الخجل ، وكنت أخشى الظهور بمظهر مضحك
 أمام غانية عجوز ، أكثر من خشيته الموت ! . . فضلا عن أن
 هذه الفكرة لم تخطر ببالى إطلاقا عندما كنت برفقة السيدة
 ديبيناي ، ولا كان من الممكن أن تخطر مرة واحدة فى حياتى ،
 ولو قدر لى أن أعيش طيلة عمرى بصحبته . . وما كان ذلك
 لأننى كنت أضمر نفورا شخصيا منها ، بل لعلى — على
 النقيض — كنت أحبها كل الحب كصديقة ، وكنت قادرا على
 أن أحبها كمشيقة ! . . كان يروق لى أن أراها وأن أجانبها
 الحديث . ومع أن حديثها كان طليبا — إذا ما كانت فى جماعة —

إلا أنه كان ممضا في الجلسات الخاصة .. اما حديثى أنا ، فلم يكن لبقا سيالا ، ولم يكن ذا عون كبير فى ايناسها .. وكنت حين أخجل من الصمت فترة طويلة ، أرقق نفسى فى سبيل بعث الحياة فى الجلسة . ومع أن هذا كثيرا ما كان يتعبنى ، إلا أنه أبدا ما ضايقتنى ! .. كنت أبدى لها آيات الغزل من طيب خاطر ، وأبنيها بعض قبلاات أخوية صغيرة ، لم يكن يلوح لى أنها ذات إثارة حسية لها .. وكان هذا غاية ما فى الأمر ! .. فلقد كانت ممرطة النحول ، شديدة البياض ، ذات صدر مبسوط كراحتى ! .. وكان هذا الميب وحده ، كانيا لأن يطلقى كل حرارة فى كيانى ، فما قدر لقلبى ولا لحسى يوما أن يريا أية انوثة فى امرأة بلا نهدين .. وقد كانت ثمة اسباب أخرى — لا جدوى من ذكرها — تجعلنى أنسى الناحية الجنسية دائما ، إذا ما كنت بالقرب من السيدة بيناي !!



أما وقد رضت عقلى على قبول تبعية لا غنى عنها ، فأننى أسلمت نفسى لها دون ما مقاومة مالميتها — فى العام الأول ، على الأقل — أقل عبءا مما كنت أتوقع . وكانت من عادة السيدة بيناي أن تقضى الصيف بأسره — تقريبا — فى الريف . ولكنها لم تقض هناك ، فى هذا العام ، سوى شطر منه .. لها لأن أعمالها كانت تتطلب وجودها فى باريس ، وإما لأن غياب « جريم » جعل الإقامة فى « لاسفريت » أقل ملائمة لها من ذى قبل . ولقد كنت أستغل الفترات التى لم تكن تقضيها هناك ، أو التى كانت تستضيف خلالها كثيرا من الناس ، لأنعم

بعزلتى مع تيريزى الطيبة وأما ، على نمط يجعلنى أعرف لهذه
الفترات قدرها . ومع أننى كنت قد اعتدت — لبضع سنوات —
أن أتردد على الريف كثيرا ، إلا أننى لم أكن أستمتع بهذه
الرحلات ، إذ أنها كانت دائما فى صحبة أشخاص محبين
للمظاهر ، وكانت دائما ما تفقد بهجتها بتأثير الشعور بالتقيد
والحرج ، وإن كنت قد اذكت فى نفسى الميل إلى المتع الرفيعة ..
وكنت كلما لمحت هذه المتع من كتب ، ازدادت شعورا بحرمانى
منها . كنت قد سئمت — كل السأم — « صالونات » باريس ،
ونافورات الماء ، والبساتين ، وحدائق الزهور . وكان أصحابها
أشدّ يعضا للبلل .. كنت ضجرا من التطريز ، والمعزف ، وحبك
الصوف ، والانحناءات ، والمجاملات الحمقاء ، والعواطف
الضحلة ، ورواة القصص التافهين ، ومآدب العشاء الكبيرة ،
حتى أصبحت إذا ما لمحت — بنظرة من ركن عينى — شجرة من
أشجار الصنوبر ، أو عثبا من الأعشاب الشوكية ، أو سياج
مزرعة ، أو مخزنا للخلال ، أو مرجا .. وحتى أصبحت إذا
ما شممت — وأنا أمر بمزرعة — عير « العجة » المتويلة
بالأعشاب الشذية .. وحتى أصبحت إذا ما سمعت من بعد
أصوات الماعز الرفيعة .. أصبحت أتمنى إزاء هذا كله ، أن
يذهب كل الطلاء الأحمر ، والمساحيق ، والعطور ، إلى
الشیطان ! .. وكنت أتحسر على الغداء الذى تعدّه الزوجة
المفترغة لبيتها فى الريف ، والنبيذ المحلى .. وكنت أود — من
قلبى — أن ألكم السيد الطاهى ، والسيد رئيس السقاة ، اللذين
كانا يضطراننى إلى أن أتناول الغداء فى موعد عشائى المعتاد ،
وأن أتناول العشاء فى الساعة التى اعتدت أن أنام فيها ..

وكنت أود - فوق كل شيء - أن أصنع السادة خدم الموائد الذين كانوا يلتهمون بأعينهم اللقم التي أكلها ، ويبيعونى - إذا لم أشتا أن أموت ظمأ - نبيذ مخدومهم المعتق ، بما يفوق عشرة أمثال ما أنفعه من أجله فى أرقى حلة !

ولكن .. ها أنذا أخيرا فى دارى ، فى ماوى منزلى مستحب ، حر فى أن أقضى أيامى فى حياة مستقلة ، متشابهة ، آمنة ، كنت أشعر اننى إنما خلقت لأتعم بها ! .. وقبل أن أنكر الأثر الذى أحدثه هذا الوضع - الجديد على - فى مؤادى ، يروق لى أن أخص الميول الخفية لهذا القلب ، حتى يتسنى للإسلام بجلاء بأسباب هذه التطورات الجديدة .



لقد اعتدت دائما أن أعتبر يوم اتحادى مع تميز هو التاريخ الذى أصبحت فيه حريصا على مبادئ الخلق . فلقد كنت بحاجة إلى ود وثيق ، مذ انقسم فى نسوة ذلك الود الذى كنت مكتفيا به .. ان الظلم إلى الهناء لا يمكن أن يرتوى فى قلب الإنسان ! .. ولقد كانت « ملما » تسمى إلى الشيخوخة ، وتتحدر إلى الجحيم ، وكان من الواضح لى أنها لن تسعد ثانية على الأرض ، فلم يبق لى سوى أن أبحث عن سعادة لنفسى ، بما دمت قد فقت كل أمل فى أن أقاسمها سعادتها ! .. رحت أطلو من مكرة إلى مكرة ، ومن خطة إلى خطة ، بعض الوقت . وكانت رحلتى إلى (البنقية) خليعة بأن تزج بى فى الشئون العامة ، لو أن الرجل الذى قدر لى أن أربط به ، كان على شيء من الإدراك السليم . وأنا ممن يسهل هبوط عزيمتهم ،

لا سيما في المشروعات الشاقة البطيئة . لذلك فان ضعف نجاح هذا العمل (الشئون العامة) نفرنى من أمثاله . ولما كنت - وفقا لمبدئى القديم- أنظر إلى الاهداف البعيدة، على انها أحليل للحتمى ، فقد وطنت العزم على أن أعيش - بعد ذلك - دون أية خطة مرسومة ، إذ أننى لم أجد أرى شيئا فى الحياة كلن قادرا على أن يغرينى على أن اتعب نفسى !

وفى هذه الفترة بالذات ، بدأ نعارفنا ، فلاح لى أن لطف شخصية هذه الفتاة الطيبة ، يتمشى مع طبيعة شخصيتى ، حتى أننى ارتبطت بها بعاطفة لم يقو الزمن ولا الزلات على إيهانها ، ولم يؤد أى شىء - كان يحتل أن يفصمها - إلا إلى توثيقها . ولسوف تتبدى قوى هذه الرابطة فيها بلى ، عندما أكشف عن الجراح والالام التى خلفتها فى قلبى - فى أوج تعاسى - دون أن تبدر منى شكوى واحدة ، حتى الوقت للذى أكتب فيه هذه السطور !

وعندما يعرف أننى - بعد أن فعلت كل شىء ، وبعد أن جابهت كل عناء لا تنفادى فراقها ، وبعد أن عشت معها خمسا وعشرين سنة برغم سجية البشر - أقدمت فى النهاية على الزواج منها فى شيخوختى ، دون أن يكون لديها أى توقع أو أى رجاء ، ودون أن ارتبط معها بخطوبة أو بوعد .. عندما يعزف هذا ، يسهل على المرء أن يصدق أن الحب الجامع ، الذى عبث برأسى منذ اليوم الأول ، قد قادنى تدريجا إلى تأخر حماقاتى .. ولسوف يزداد المرء اقتناعا بهذا ، إذا ما عرّف الأسباب الخاصة ، والقوية ، التى كانت خليفة بأن تمنعنى من

أن أقدم على شيء كهذا .. فماذا يظن إنن ، إذا أنا أعلنت
 - بكل ما لا بد أن يكون قد عرفه في خلقى من صدق - أنني منذ
 اللحظة الأولى التى رايتها فيها ، حتى يومنا هذا ، لم أشعر
 نحوها بأضال قبس من الحب ، وأننى لم أعد أكثر اشتها
 لمضاجعتها ، منى لمضاجعة السيدة دى فاران ، وإن الرغبات
 الحسية التى كنت أشبعها لديها ، لم تكن - فى نظرى - سوى
 استجابة للنوازع الجنسية ، دون أن يكون لها أية علاقة بالفرد ؟
 .. لقد يعتقد القارىء أننى إذ أوتيت بنية تختلف عن بنية
 سواى من الرجال ، كنت عاجزا عن أن أشعر بالحب ، لا سيما
 وأنه لم يدخل قط بين المشاعر التى ربطتنى بتركها المراتين اللتين
 كفتنا أمز النساء لدى . ولكن ، صبرا يا قارئى ! .. ان اللحظة
 المشئومة تقترب ، وستجد أنك مخدوع أكثر مما تخال !



إننى أكرر حديثى ، وأنى لأدرك ذلك ، ولكنه أمر لا بد منه .
 لقد كانت أولى ، وأعظم ، وأقوى ، وأعتى حلجاتى جميعا ،
 تنحصر بأكملها فى مؤادى .. تلك هى الحاجة إلى زمالة اشد
 ما تكون ألفة وقربى وتوثقا .. ومن أجل هذا الغرض - بوجه
 خاص - كنت محتاجا إلى امرأة أكثر منى إلى رجل .. إلى
 صديقة ، أكثر منى إلى صديق . وكانت هذه الحاجة من الفرد
 بحيث أن أوثق العلاقات الجسدية ما كانت لترضيها .
 كنت أتوق إلى روحين فى جسد واحد وقد ظلت - بدون ذلك
 - أشعر بالفراغ دائما !

ولقد ظننت أن اللحظة التي لا أعود أشعر فيها بذلك ، قد حانت .. فإن هذه الشابة اللطيفة ، كانت كفيلة — بفضل ألف من الصنات الرائعة ، بل وبفضل مظهرها الشخصي الذي كان خلوا من أى افتعال أو إغواء — بأن تستوعب كل كيائى فى كيائها ، لو اتنى استطعت أن استوعب كيائها فى كيائى ، كما كنت آمل !

ولم يكن لدى ما أخشاه من ناحية الرجال — فقد كنت موقنا من اتنى الرجل الوحيد الذى أحبته تميز حبا صادقا — وكانت شهواتها من الفتور بدرجة أنها نادرا ما كانت تشعر بحاجة إلى رجال غيرى ، حتى عندما كنت عن أن أكون رجلها فى هذا المجال ! .. ولم تكن لى أسرة ، فى حين أنها كانت ذات أسرة ، ولم تكن هذه الأسرة — التى كان أفرادها جميعا من صنف يخالف فى الخلق صنفها — بالتى استطيع أن اعتبرها كاسرتى .. وكان هذا أول أسباب شقائى ! .. ما الذى كنت اتردد فى أن أجود به ، لكى أضع نفسى من أمها موضع الابن ! .. لقد حاولت ما وسعتنى الحيلة ، دون أن أوفق إطلاقا ! .. كان من العبث أن أحاول أن أوجد كل مصالحنا ، فقد كان هذا مستحيلا .. إذ كانت الأم لا تنك تخلق مصالح تخلف عن مصالحى ، ثم تضعها فى وجه هذه ، بل وضد مصالح ابنتها برغم أن الصنفين لم يكونا مختلفين ! .. ولقد أصبحت وأولادها الآخرين وأحفادها ديدانا ظامئة إلى الدماء ، وكان

ابسط ضرر الحقوق بتميز ، هو أنهم راحوا يسرقونها .
 إذ كانت الفتاة المسكينة قد تعودت أن تنصاع — حتى لبنات
 أخواتها — فتركت نفسها نهبا ومطية ، دون أن تنبس ببنت
 شفة . . ولقد ألتنى أن أرى أنه لم يكن بوسعى أن أفعل شيئا
 لمساعدتها ، يرغم أنى كنت أعتمر مواردى ونصائحى فى هذا
 السبيل ! . . ولقد حاولت أن أقصيها عن أمها ، ولكنها كانت
 تعارض هذا دائما ، فاحترمت معارضتها ، وازددت تقديرا
 لها ، بيد أن هذا لم يحل دون أن يكون رفضها ضارا بمصالحها
 مصالحى . كانت مطبوعة على الوفاء لأمها وبقية أسرتها ،
 ومن ثم فقد كانت ملكا لهم أكثر مما كانت ملكا لى ، بل وأكثر
 مما كانت ملكا لنفسها !

((كتابي))

صدر من هذه السلسلة :

- ٢٥ - العرب والسلام ج ٤ .
- ٢٦ - تعلم كيف تسترخي .
- ٢٧ - مركب النقص .
- ٢٨ - غرام سوان ج ١ .
- ٢٩ - غرام سوان ج ٢ .
- ٣٠ - كيف نجحوا في الحياة .
- ٣١ - كيف تحصل على الثروة .
- ٣٢ - غرام سوان ج ٢ .
- ٣٣ - لماذا أنت عصبي .
- ٣٤ - عش بحكمة تعيش سليما .
- ٣٥ - زواج الحبيب .
- ٣٦ - التحليل النفسي للاعلام .
- ٣٧ - حذار من الشائكة .
- ٣٨ - امير الانتقام .
- ٣٩ - اعترافات جان رسو ج ١ .
- ٤٠ - اعترافات جان رسو ج ٢ .
- ٤١ - اعترافات جان رسو ج ٣ .

تحت الطبع :

- ٤٢ - اعترافات جان رسو ج ٤ .
- ٤٣ - اعترافات جان رسو ج ٥ .
- ٤٤ - مرتفعات ويلرنج ج ١ .
- ٤٥ - مرتفعات ويلرنج ج ٢ .
- ٤٦ - مرتفعات ويلرنج ج ٣ .
- ٤٧ - قلوب ضالة .
- ٤٨ - اوديب .

- ١ - وجوه الحب السبعة .
- ٢ - الحبيب الأول .
- ٣ - جريمة حب .
- ٤ - أنا كارنينا .
- ٥ - العرب والسلام ج ١ .
- ٦ - العرب والسلام ج ١ .
- ٧ - العاطفة .
- ٨ - البؤساء ج ١ .
- ٩ - مدام بوفاري ج ١ .
- ١٠ - مدام بوفاري ج ٢ .
- ١١ - البؤساء ج ٢ .
- ١٢ - الخطيئة الاولى .
- ١٣ - المتسجون .
- ١٤ - العيب هو الكثر .
- ١٥ - فن العيش .
- ١٦ - د. زيباجسو ج ١ .
- ١٧ - د. زيباجسو ج ٢ .
- ١٨ - د. زيباجسو ج ٣ .
- ١٩ - د. زيباجسو ج ٤ .
- ٢٠ - البؤساء ج ٢ .
- ٢١ - العرب والسلام ج ٢ .
- ٢٢ - محاكمة سقراط .
- ٢٣ - الجريمة لا تفيد .
- ٢٤ - نساء ومآس في ساحة

العدالة .

- | | |
|----------------------|-------------------------|
| ٤٩ - عاشقات في الغرب | ٦٢ - نينو تشيكا ج ٢ |
| ٥٠ - أسرار الجاسوسية | ٦٣ - ماريا ايلانوفنا |
| ٥١ - الابن المفضل | ٦٤ - الغسق |
| ٥٢ - ارواح هالمة | ٦٥ - البعثة |
| ٥٣ - الثمار للوطن | ٦٦ - اليلة ج ١ |
| ٥٤ - المسبحة ج ١ | ٦٧ - اليلة ج ٢ |
| ٥٥ - المسبحة ج ٢ | ٦٨ - اليلة ج ٢ |
| ٥٦ - بنر سبع ج ١ | ٦٩ - القلم ج ١ |
| ٥٧ - بنر سبع ج ٢ | ٧٠ - القلم ج ٢ |
| ٥٨ - جين ايسر ج ١ | ٧١ - القلم ج ٢ |
| ٥٩ - جين ايسر ج ٢ | ٧٢ - يوشكين |
| ٦٠ - جين ايسر ج ٣ | ٧٣ - ذات السرداء الابلى |
| ٦١ - نينو تشيكا ج ١ | |

اقرأ في الجزء الرابع

تحليل «روسو» لعلاقاته بتمريز ، وحبه لمدام دوديتو ،
والمؤامرات التي تعرض لها ، والصراع الذي دار بينه
وبين أصدقائه الحاقدين وأعدائه اللداء ، وغضب
الحكومات عليه ، وهجره للأندلس .

رقم الإيداع : ٤٣٧٩

الترقيم الدولي : ٦ - ٠٨٠ - ١٦٣ - ٩٧٧

المطبعة العربية الحديثة

٨ شارع ٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية

تليفون : ٨٢٦٢٨٠ القاهرة

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية



مطبوعات كتابي إصدار جديد

عزيزي القارئ..

إذا أردت أن تعرف قيمة هذا الكنز الأدبي الخالد الذي توافيك به (مطبوعات كتابي) اليوم ، فأليك ما كتبه عنه المفكر المطلع الأستاذ «سلامة موسى» في عدد ١٩ نوفمبر عام ١٩٥٥ من جريدة (أخبار اليوم) ، إذ قال :
« واعترافات جان جاك روسو من الكتب التي يجب أن تترجم إلى لغتنا قبل ١٠٠ أو ١٥٠ سنة ... » .

.. كما كتب الأديب والشاعر الكبير الأستاذ «عبد الرحمن صدقي» في مقال بمجلة (الثقافة) بتاريخ ١٤ فبراير ١٩٣٩ يقول : « انقضى نيف ومائة وستون سنة على وفاة «روسو» ، وانصرف الأدباء وجمهرة القراء عن مطالعة كتب «روسو» الأخرى ، ولكنهم لم ولن ينصرفوا عن مطالعة (اعترافاته) ، ذلك أن الآراء في السياسة والاجتماع والتربية والأخلاق يدخلها التغيير والتبديل ، أما نجوى النفس البشرية فهي لا تتغير ولا تتبدل . »

.. والواقع أن هذه (الاعترافات) التي تقدم (مطبوعات كتابي) إليك اليوم أول ترجمة أمينة «كاملة» لها باللغة العربية ، هي أدق وأصدق مصدر لسيرة المفكر العبقري «جان جاك روسو» ولقد كان من أهم الميزات التي كتبت الخلود لهذه الاعترافات ، إنها كانت أول عمل أدبي يكشف صاحبه فيه عن نفسه ، فقد سجل «روسو» في هذا الكتاب أدق أحداث حياته - خيرها وشرها ، طيبها وخبيثها - دون أن يجفل من مواجهة الحقيقة !

حامى مراد



Bibliotheca Alexandrina



0705962